نجيب الكيلاني

نور الله

الجزء الثاني

مؤسسة الرسالة
بيروت - ص. ب: ٤٤٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

نور الله

بعض شخصيات الرواية

عبد الله بن أبيّ	ـ شيخ المنافقين بالمدينة
أبو سفيان	ـ زعيم مكّة
أبو العاصي بن الربيع	ـ زوج زينب بنت الرسول
صفية	ـ ابنة حيي بن أخطب زعيم اليهود، وزوجة الرسول فيما بعد
سلام بن مشكم	ـ زعيم يهودي بخيبر
زينب بنت الحارث	ـ زوجة سلام
كنانة بن الربيع	ـ زعيم يهودي بخيبر، وزوج صفية في البداية
ابو بصير	ـ مولى من الموالي الثائرين ضد مكة
الحويرث	ـ احد أئمة العناد في مكة والمعتدي على زينب بنت الرسول
عكرمة بن أبي جهل	ـ من قادة الشرك
وحشي	ـ قاتل حمزة عم الرسول
الحجاج بن علاط	ـ تاجر يهودي بخيبر
العباس	ـ عم الرسول
لؤلؤة	ـ إحدى غواني مكة
خالد بن الوليد	ـ قائد فرسان مكة
فهد	ـ عبد من عبيد سلام بن مشكم بخيبر
أم حكيم	ـ زوج عكرمة
أم الفضل	ـ زوج العباس
هند	ـ زوج أبو سفيان
عمرو بن سالم	ـ رجل من خزاعة (حلفاء الرسول)



٥

الفصل الأول

كانت زينب بنت الرسول مضطجعة على حصير مهترئة، وسمات الألم ترسم على وجهها النحيل الشاحب، وعيناها المبللتان تعبران عن الحزن الدفين، ومن آن لآخر تصدر عنها تأوهات خفيضة مبتورة، وتحاول جاهدة أن تلتقط أنفاسها اللاهثة، ولا تستطيع أن تتحرك على فراشها في حرية، اذ أن أقل حركة تثير الألم الساكن في أحشائها، فيموج وكأن عشرات المدى تمزق في بطنها، ان ضوء النهار قد ولى، والظلام يزحف إلى حجرتها الضيقة القليلة الأثاث، لشد ما تكره الظلام، وتنوء بحمله، انه يثقل على روحها وقلبها، ويزيد من أحزانها وآلامها، لكنها غير قادرة على أن تتحامل على نفسها وتذهب إلى حيث يوضع مصباحها الزيتي... وأطفالها قد انصرفوا عنها... وزوجها «أبو العاصي بن الربيع» لم يعد بعد من مسجد الرسول... فما عليها الا أن تنتظر على مضض... وبعد وقت قصير عاد زوجها، ثم القى السلام عليها فردت عليه التحية بأحسن منها وهي تشعر بقليل من الراحة...

— «أراك صامتة يا زوجتي الطيبة»

— «الله أعلم بحالي... لكم يعز علي ان أرتمي هكذا على فراشي ! ! كلما رأيتك يا أبا العاصي تقوم على خدمتي، وتشغل نفسك بأمر البيت وأمر الأولاد ينتابني غم شديد... »

وأراد أن يهون عليها فقال :

— «لسنا مجرد أزواج... بل أنت بنت الخالة، رحم الله أمك خديجة ! ! وحفظ الله أباك رسول الله... ما أعظم الأشياء التي تربط بين قلبينا يا زينب! ! »

تشبعت نظراتها بالدموع وهي تقول :

— «لكنها إرادة الله، وليس علينا الا الصبر والتسليم... »

وأدرك أبو العاصي ما يعتمل في ذهنها، انها الآن تستعيد ذكرى ايامها الغابرة، وهل تستطيع زينب بنت الرسول ان تنسى ما حدث ؛ لقد رفض زوجها في البداية أن يؤمن برسالة أبيها محمد، لكنه في نفس الوقت رفض أن يطلّق زينب، على الرغم من أن أساطين الكفر

في قريش أثّروا على زوجيْ أختيها رقية وام كلثوم فطلّقتا من ابني أبي لهب ... كان ابو العاصي يحب زينب ... لم يكن يتصور الحياة بدونها ... وكان يحب أباها على الرغم من عدم إيمانه بدعوته ... أجل ... كانت زينب تحمل له في قلبها عاطفة غلابة، ويؤلمها أشد الألم أن تسلم هي ويبقى هو على كفره، لكنها بقيت معه لأن الوحي لم يكن قد أمر بالتفريق بين الزوجة المسلمة والزوج المشرك ... وظلت على ولائها لزوجها برغم اختلاف العقيدة ... والأنكى من ذلك أن قريشاً أصرت على أن يخرج ابو العاصي معهم لحرب محمد يوم « بدر الكبرى »، وطلبوا منه أن يخرج دفاعاً عن نصيبه من التجارة الآتية من الشام إن لم يخرج دفاعاً عن دينه الذي سفهه محمد ... انه يوم عصيب تتذكره زينب جيداً ... ان زوجها يخرج لمحاربة أبيها، زوجها ولا أحد غيره ... يا لها من ليلة ليلاء!! ظل أبو العاصي يتقلب على فراشه، وهي الزوجة المخلصة المحبة تدرك ما يعتمل في قلب زوجها آنذاك، وأبو العاصي لم ير منها الا بر الزوجة، وحنان الأنثى، وطيب العشرة، وجمال التضحية، ورأت زوجها أبا العاصي يخرج في ذلك اليوم شارد النظرات، مضطرب القلب، يتحرك كتمثال، ويمضي أصم الأذنين عن هتاف قريش وصراخها واستعدائها ... كان كالمخدر... يؤدي الدور المنوط به بلا قلب ... كان قلبه هناك عند الزوجة الوفيّة الأبيّة التي فاضت روحها بالإيمان والصبر، الزوجة التي تقف بين عبث الكفر وصدق الإيمان، والتي تقف بين الزوج المشرك والأب الذي يدعو الناس إلى وحدانية الله، وحقائق العقيدة السمحاء ...

وظلت زينب تنتظر أوبة زوجها من المعركة التي يخوضها ضد أبيها ... وأخيراً عادت فلول المشركين من قريش هاربة مهزومة ...

وهتفت زينب آنذاك :

— « أين زوجي؟ ؟ هل قتل ؟ ؟ »

وجاءها صوت أحد المنهزمين الحاقدين :

— « لقد قتل أبوك ورجالُه قمم الرجال من قريش، وساق عشرات الأسرى... »
أتفرح زينب ؟ ؟ أتحزن ؟ ؟ لقد حقق الله النصر الذي وعد به أباها، وأذل الكفر ورفع راية الإيمان، كان من العدل ان يحدث ما حدث، لكنها تهتف مرة أخرى :

— « وزوجي ! ! ما مصيره ؟ ؟

— « وقع أسيراً في يد أبيك ... »

وتدحرجت الدموع على خديها، أكانت دموع الفرح ؟ ماذا يكون الامر لو سقط الرجل الذي تحبه قتيلا بسيوف رجال أبيها ؟ ؟ وأبوها رجل بر رحيم، ان زوجها اذن في مأمن من

كل شر، وهي تعرف ان زوجها خاض المعركة شارداً، لم يكن يؤمن بما يفعل، لكن سيل الشرك الجارف قد اكتسحه، خاف أنْ يُرمى في كبريائه وشرفه وانتقاصه لدين الآباء والأجداد، ونظام بلده ... لا شك ان ذلك مرحلة دون الإيمان الصادق، ودون الاعتراف بالحق المجرد ... لكن أبا العاصي لم يكن بقادر على أن يعلن إيمانه، ربما كان الإيمان بالدين الجديد في تلك الفترة يعني التخاذل، يعني التنكر للنظام والماضي وتراث الآباء ... ثم إن أبا العاصي كان مديناً بكثير من المال لرجالات قريش، أيهاجر ليتهم في أخلاقه ؟ ؟ كانت زينب تدرك ذلك بما تلاحظه وما تسمعه، وزينب لم تجعل من قضية إيمان زوجها محلا للجدل العقيم الكثير، كانت تعلم أن عقله يستطيع ان يستوعب القضية، ويصدر فيها حكماً بينه وبين نفسه ... وكانت ترى في نظراته وكلماته أمارات تنبي عن مستقبل كريم مستقر لها وله، في ظل القيم الجديدة التي يدعو إليها أبوها ... وخيل إليها أن زوجها لن يعود من الأسر إلا وقد أعلن إسلامه، وكم كانت دهشتها عندما علمت ان زوجها قد ارسل يطلب الفداء كي يطلق محمد سراحه، اذن فأبو العاصي لم يعلن إسلامه ... آه هذا موقف من الصعب على أبي العاصي فيه أن يثوب إلى الرشد، أيعود إلى الحق في ظل الأسر والهزيمة ؟ ؟ لا... انه لن يعتنق الدين الجديد في مثل هذه الظروف... هي تعرفه، يرفض الاذعان للظروف التي تبدو سيئة قاهرة، فما كان من زينب الا أن أرسلت الفداء ومعه قلادة كانت أمها خديجة قد أهدتها لها عند زواجها، وعندما رأى الرسول القلادة رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين من حوله :

— « ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا ... » لكن الرسول اتفق فيما بينه وبين أبي العاصي على ان يفارق زينب، وقد فرق الإسلام بينهما ... وعاد أبو العاصي إلى زوجه زينب فاشرق وجهها بالسعادة الغامرة، وهمست :

— « كيف حالك يا أبا العاصي ؟ ؟ »

قال وقد أطرق برأسه في أسى :

— « كان أبوك برا بي، كريماً معي أقصى الكرم ... »

— « هذا يسعد قلبي ... »

— « لكن لا مفر ... »

— « ماذا تقصد ؟ ؟ »

— « لا بد أن ترحلي اليه ... هذا أمر الله .. لقد وعدته بذلك، لم يعد في الإمكان أن تصبح المسلمة زوجاً للمشرك ... »

وسادت فترة صمت، قال ابو العاصي بعدها :

— « وقد حضر معي رسولان ليأخذاك إلى المدينة ... إن أبا العاصي لا يخلف وعده، ولا ينكص عن عهده ... »

وقالت زينب وقلبها يدق مسرعاً :

— « أما آن لك ان تؤمن برسالة الله ؟ ؟ »

قال وقد احتقن وجهه :

— « انني على استعداد لأن أقدم أغلى ما أملك للحفاظ عليك، والبقاء إلى جوارك يا زينب... لكن أمر الله فوق كل أمر ... انني أدرك ذلك ، انني في موقف اختيار عصيب عنيف ... لكن لعل الله يجعل من ذلك الموقف الصعب مخرجاً ... »

— « ولِمَ الانتظار ؟ ؟ »

فانصرف إلى الداخل ليداري دمعة أفلتت من بين أهدابه، واعدت زينب نفسها للرحيل ... وخرجت مع رسولي الرسول قاصدة المدينة، وقلبها ينزف أسى ، لم يكن لها خيار، إن أمر الله فوق كل اعتبار، فلتضح زينب بأعز ما تملك، فلتضح بحياتها وسعادتها الدنيوية في سبيل الله ... وحاولت جاهدة أن تنسى ما عدا ذلك ... وعلى مشارف مكة تعرض لها ذلك الكافر الحاقد المدعو « الحويرث »، واغرى بها بعض الأوباش فاعتدوا عليها حتى اجهضوها ... أجل ... كان يوماً عصيباً مشئوماً ... ومنذ ذلك اليوم وهي مريضة تتألم وتنزف، وبلغت المدينة وهي في حالة من الحزن والألم الجسدي والنفسي لا يعلم الا الله مداها، لشد ما تأثر الرسول ! ! وأعلن حكمه في « الحويرث » : القتل... حتى ولو وجد متعلقاً بأستار الكعبة ...

●

تذكرت زينب كل ذلك، وهي ترقد على حصيرتها المهترئة، في تلك الحجرة الضيقة الخافتة الضوء، وأدرك زوجها ما تفكر فيه، فاقترب منها في حنان، ونظر إلى وجهها الشاحب، فرأى الدموع في عينيها برغم الضوء الخافت وقال في رقة :

— « ماذا جرى لك يا زينب ؟ ؟ »

— « إن جريمة « الحويرث » هي سبب ما أعانيه من آلام طوال هذه السنوات ... »

ضغط على أسنانه في غيظ ، وهدر :

— « لسوف يأتي اليوم الذي أثأر منه ... »

واجهشت باكية وهي تقول:

— « أنت السبب... لو انصعت إلى الحق منذ البداية لوفرت علينا ما عانيناه من عذاب... »
هدّأ أبو العاصي من روعها، وأخذ يقول محاولا التخفيف عنها :

— « كان لا بد ان أرد على قريش أموالها، الثمرة لا بد أن تنضج حتى يحلو مذاقها ... وهذا ما حدث، فلقد خرجت إلى الشام في تجارة بعد ذلك، ثم عدت ومعي الربح الوفير عازماً على أن أرد إلى قريش حقوقها أولا، ثم أعلن إسلامي... لكن سريّة للمسلمين اعترضت طريقي وأخذتني أسيراً إلى المدينة ... أنت تذكرين ذلك جيداً يا زينب... لقد جريت اليك مستجيراً بك ... فأجرتني ... لقد أتيت اليك ليلتها مستجيراً وعازماً على الإسلام ... رأيتك في البيت كالوردة النديّة — برغم مرضك — وقد أشرق وجهك بنور الإيمان ... صدقيني يا زينب... لم أكن انتوى الرحيل بعد العفو الثاني الذي صدر من أبيك بسببك ... لكني أخذت تجارتي وأموالي ورحلت إلى مكّة، وأنت في غاية من الدهشة والاستغراب لأمري ... وعندما بلغت « مكة » ورددت إلى الناس حقوقهم، وقفت بين حشد كبير من رجالات قريش وصحت بأعلى صوتي :

« يا معشر قريش ! ! هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ ؟ « قالوا لا... جزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيا كريما » . قلت لهم : « فاني أشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا إني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت » ... ثم تركتهم يا زينب وسط دهشتهم وذهولهم، وعدت إلى المدينة، كنت أخترق الصحراء، تحت لهيب الشمس المشرقة، لكن وجهك المشرق بنور الايمان والحب يتبدى في خيالي، فأحث الخطى، وأواصل السير بالليل والنهار ... لكني كنت خائفاً ... »

قالت زينب وقد تطلق وجهها :

— « مم تخاف؟ ؟ »

— «كنت أوجس خيفة ألا يجمعنا بيت واحد مرّة ثانية ... »

قالت بصوت خفيض ترويه المشاعر الندية :

— « ان صفح أبي يتسع للسماء والارض ... »

فقال وهو يحرك سبابته في اصرار :

— « الا « الحويرث »... حتى ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة ... »

هزت رأسها وقد أظلت وجهها سحابة أسى :

— « أجل ... »

ثم تمتمت :

— « ألا تشعل المصباح ... »

— « ان وجهك يضيء لي حياتي كلها يا زينب ... يا بنت خير خلق الله ... »

واحتضنت يداه يدها الصغيرة في حنان بالغ ... »

الفصل الثاني

رفض عبد الله بن أبي أن يتناول غذائه، وظل قابعاً في مكانه، يخترمه الأسى، وتتكدس فوق رأسه الهموم، وكيف يحلو له طعام، او يستسيغ أي شراب؟؟ وما قيمة الحياة اذا تحولت ساعاتها إلى مشاهد للفشل المروع والهزائم المتتالية؟؟ وهل هناك لذة أو متعة اذا تحطمت الآمال، وأطل القدر من عليائه ساخراً شامتاً؟؟ انه التحدي والمغامرة ولا شيء غيرهما يستطيع «ابن أبيّ» أن يشهرهما في وجه القدر والفشل والهوان، بالأمس توافدت قبائل العرب من قريش وغطفان وأسد وأشجع وفزارة واليهود، وأحاطت بالمدينة إحاطة السوار المعصم، موكدة تصميمها على سحق محمد ورجاله، وتعاهدت عهداً مقدساً ألا ترجع الا وقد مزقت شمله، وبددت آماله وآمال المسلمين، آه ... وخفق قلبي خفقات حلوة النغم... ودعوت إلهي من كل قلبي أن ينصر أبا سفيان، وزعيم اليهود حيي ابن أخطب، وشعرت بلذة عارمة، وأنا أرى محمداً يسرع إلى هنا وهناك، ويمتزج عرقه بالغبار وهو يشارك في حفر الخندق، وبدا لي المسلمون كفئران سقطوا في مصيدة قاتلة لا نجاة منها ... وكدت أرقص من الفرح وانا أرى نيران الأحزاب تتوهج في ظلام الليل وتنذر محمداً ورجاله بالويل والثبور... يا لها من أيام رائعة ! ! المسلمون يتحركون زائغي النظرات ... وابن الخطاب يضرب الأرض بمعوله وهو يحفر الخندق في ثورة عارمة ... لكأنه كان يحطم رأس الفتنة والهزيمة المتوقعة ... كان المسلمون مجموعة من العراة الجياع، يقفون على شفا هاوية سحيقة القرار... وكان الفناء محتما ... والخطر يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم... وبنو قريظة يعدون شفراتهم الحادة ... يا لها من ذكريات ! ! عندئذ برقت في خيالي صورة التاج والخرز ... آه ذلك التاج الذي كانت تعده يثرب لتضعه فوق رأسي، كي أصير ملكاً ... وخيل الي آنذاك انني أصبحت قاب قوسين او أدنى من تحقيق الأمل الذي أصبو اليه وهو أمل ذو شقين أولهما اندحار محمد ورجاله، وثانيهما أن يدخل الغزاة من الأحزاب واليهود ويرفعوا التاج، ثم يضعوه على رأسي الأشيب ... كنت صامتاً أرقب الأحداث... أتلذذ بالمشهد التاريخي الرائع الذي ستدور به الركبان، وترده المسامر ... وتخيلت سقوط محمد ووقوفي على رأسه قائلا :

— «لو كنت نبياً حقاً لما اكتويت بنار الهزيمة ... «أين الله الذي تدعو إليه ليأخذ بيدك؟» لكن الشيء الذي لا أنساه أن هؤلاء الرجال من أتباع محمد .— كانوا يناضلون

في استماتة ... لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم برغم الجوع والبرد والهزات النفسية العنيفة، وبرغم انسلاخ بعض المسلمين عنهم ... هؤلاء الذين يسمونهم بالمنافقين، وبرغم غدر بني قريظة ... لو كنت مكان محمد لاستسلمت على الفور، لأن النجاة من ذلك المأزق الرهيب ــ كما تبدو لي ــ كانت شبه مستحيلة ... اليهود والأحزاب وغدر بني قريظة ... وضيق المسلمين بما هم فيه من قلة في العدد، وجوع وبرد، وانصراف البعض عنهم ... ماذا بعد ذلك ؟ ؟ لم يكن أحد يتوقع إلا الهزيمة ... كان المسلمون يستميتون في معركة خاسرة ... أي ايمان هذا الذي جعلهم يصمدون حتى النهاية ؟ ؟ ان هذا الإيمان يبلغ في قوته درجة البلاهة ... هذا ما أتصوره ... لكن للأسف ! ! ! في يوم مشئوم فتحت عيني على مأساة ... عصفت الريح... وجدّت أحداث ... ورفعت عيني إلى الشاطئ الآخر من الخندق، فماذا وجدت؟ ؟ الاحزاب رحلت... ولم يعد هناك سوى رماد النيران التي كانت تتوهج بالأمس ... الرماد وحده بقي يحكي قصة الخيبة المفاجئة الغريبة التي حلت بالأحزاب... أين قريش وغطفان ؟ وأين أبو سفيان وعكرمة والحارث؟ ؟ يا للهول الاكبر ... اليهود من بني قريظة يفرون إلى حصونهم يتوزعهم الرعب القاتل، ويؤرقهم المستقبل المخيب... وحيي بن اخطب يجتر آماله الخائبة ... والمسلمون ؟ ؟ هنا الكارثة وعلى رأسهم محمد بن عبد الله ... يرفعون رؤوسهم ... ويسمون بجباههم صوب شمس الشتاء الدافئة المشرقة ... وينطلقون خفافا وثقالا يترنمون بالنصر ... كيف أتى النصر ؟ ؟ انه اشبه ما يكون بالمعجزة ... المعجزة ؟ ؟ إنها من حق الأنبياء وحدهم ... وهل محمد نبي؟ ؟ فلأدع هذا الامر... إن ما يسيطر على أفكاري صباح مساء هو ذلك المشهد المثير ... المقاتلون من بني قريظة ينزلون من حصونهم، ويسلمون رقابهم لسيوف محمد ... وانتهت صفحة أخرى من صفحات الرجال المناضلين ضد محمد ... انتهت بنو قريظة ... وسقط حيي بن أخطب... سقط بطلا يأبى أن يطأطىء رأسه ... سقط وهو مصر على عدائه لمحمد ... هكذا يكون الرجال ويكون العداء ... يا للكارثة لقد فقدت ــ بفقدك يا حيي بن اخطب ــ ركنا من أقوى الأركان المكافحة ضد سيطرة محمد ... إن كل يوم يمر يتناقص فيه اعداء محمد ... ليكن ... اما أنا فسأبقى... لن استسلم ... سأظل انخر في عظام التجمع الإسلامي ... سأضرب في الظلام ... وأسدد طعناتي ... وسأظل ابتسم في وجهك يا محمد برغم علمك بحقدي ... وستنطلق الكلمات المعسولة تنتثر من فمي ... أتسمي ذلك نفاقاً يا محمد ؟ ؟ انه أسلوب من أساليب الحرب ... إنني أنافح عن ملكي الذي اغتصبته مني في آخر لحظة ... نزعت التاج الذي كان على وشك أن يوضع فوق رأسي ... مزقت حلفائي من اليهود ... وقضيت على كبرائهم ... كعب بن الاشرف ... عمرو بن جحاش ... كعب بن أسد ... وسفكت دم الرجال من قريش في بدر ... أتتهمني بعد ذلك بالنفاق ؟ ؟ أنت صاحب حق وحامل رسالة يا محمد ... وأنا كذلك صاحب حق، ولكني لا أحمل رسالة جديدة ... انني أمين على تراث الآباء والأجداد ...

كلانا يعتقد أن الحق في جانبه، ربما لا أستطيع أن أزعم النبوة، ومن حسن الحظ ان النبوة امر نختلف عليه، فلنتركها جانباً ... ولنلتق وجهاً لوجه، ورجلا لرجل ... دع أمر السماء اذا سميت انتصارك في معركة الأحزاب معجزة فبماذا تسمي هزيمتك يوم «أحد» ؟ ؟

وأفاق عبد الله بن أبي من هواجسه واحلامه المضطربة الصاخبة على صوت زوجه :

— «ألا تأكل ؟ ؟»

نظر اليها في شرود :

— «ماذا ؟ ؟»

— «ألا تسمعني ؟ ؟ أنت لا تأكل ... أنت لا تخرج إلى الناس ... أنت لا تنام ... إنك تقتل نفسك بذلك، وتحمل على كاهلك فوق ما تطيق من هموم ...»

قال وهو يتنهد في أسى :

— «انه العذاب يا امرأة»

— «أنت الذي تعذب نفسك ...»

— «أتعتقدين ذلك ؟ ؟ هكذا يكون كبار النفوس ...»

— «وهل من الضروري يا عبد الله أن يصاب كبار النفوس بالنحول والشحوب وفقدان الشهية ...»

— «لأن أفكارهم وآمالهم فوق طبيعة البشر...»

قالت دون أن تدرك خطورة ما تتلفظ به :

— «ان محمدا يحارب ويتعرض للأخطار، ويقتحم الأهوال، لكنه يأكل ويشرب ينام ... ويبتسم يا عبد الله ...»

صرخ في حدة :

— «لا تذكري اسمه أمامي؟ ؟»

— «ألست مسلماً ؟ ؟»

قال وقد تفصد جبينه عرقاً :

— «رماني برذيلة النفاق، وحقر من شأني، وجعلني سخرية الساخرين ...»

— «لقد بسط لك من صفحة ومجاملاته ما تعرف ...»

قال محتداً :

— « صفحه ؟ ؟ ماذا تقصدين ؟ ؟ الصفح عمن يقترفون الآثام... أنا صاحب حق، وصاحب رأي يا امرأة ... »

— « لكنه نبي... »

— « وأنا صاحب هذه الأرض والمرشح الأوحد لتولي عرشها ... لو كان نبياً حقاً، لترك شئون الدنيا لي، واهتم هو بأمر الآخرة ... انه من العدل أن يكون الأمر قسمة بيننا، ولن ينقص ذلك من نبوته شيئاً ... »

— « ولماذا لم تفاتحه في الأمر ؟ ؟ »

قهقه في سخرية :

— « انه يعلم كل شيء، وهل تعتقدين انه يتنازل عن سلطة وضعتها الأقدار في يديه، ويهتف بي كي آتي اليه ليسلمها لي ؟ ؟ كيف ؟ ؟ ان ابني نفسه يبذل دمه وروحه في سبيل محمد، وقومي من الخزرج يفدون محمدا بالأرواح والأموال ... فكيف اقف في وجه هذا الطوفان الكاسح ؟ ؟ ان محمدا جعلهم يؤمنون بأنه قيم على شئون الدنيا والدين، والحرب والحكومة، والمدرك الوحيد لأسرار الموت والحياة، وعالم الغيب والشهادة ... لقد استطاع محمد بذكائه الخارق، ان يمزج ذلك كله في عجينة واحدة لذيذة المذاق، فتهافت عليها الحمقى والبلهاء ... »

قالت في دهشة :

— « لكأنك يا عبد الله تريد ان تتحدى اراده الله، وتتصدى لنواميس الكون، وتزحزح جبل « أحد » عن مكانه ... انك تخوض معركة يائسة ... »

رفع سبابته وصاح : آه ... »

ثم استطرد : « ألا تذكرين ؟ ؟ لقد كنت أقول نفس هذه الكلمات عندما كان محمد ورجاله محصورين جائعين... عراة ... والأحزاب يحيطون بهم من كل جانب... لم يكن أحد يتصور أنه سيخرج من هذه الورطة، ثم ماذا ؟ ؟ انتصر... تصدى لنواميس الكون ... وزحزح ما هو اخطر من جبل أحد ... هل نواميس الكون تقول أن بضعة مئات من الجياع العراة المفزعين يهزمون اثني عشر ألفا ؟ ؟ انه الصمود والإصرار يا امرأة ... ليكن محمد نبياً، وأنا على استعداد ان أظل مؤمنا به لكن على شرط ألا يتعرض لحقي في الحكم ... في الملك ... »

قالت زوجه :

— « أهو إسلام مشروط؟؟ »

— « ولم لا؟؟ »

— « ان المسلم الحق — كما افهم — لا بد وان يسلم امره ونفسه لله ... وان يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ... »

سدد اليها نظرات قاسية وهتف في غيظ :

— « ارفعي من أمامي هذا الطعام ... اذهبي عني ... »

ثم تمتم مبهور الانفاس :

— « ان حلفائي ليسوا هنا ... ابني يعارضني ، وأنت كذلك ... والغالبية العظمى من الخزرج كلكم تفسدون علي مخططاتي ... بل أنتم جواسيس حقراء لمحمد ... أما حلفائي الصادقون فهم هناك ... سيفدون من خلف الجبال ، ويقطعون الفيافي القاحلة ... وتسيل بهم الوديان في جمع لن تروا له مثيلا... »

تطلعت اليه في استغراب ، ان الرجل يهذي ، يبدو ان طول السهر ، وقلة إقباله على الطعام ، وادمانه التفكير ، كل ذلك قد أثر على قواه العقلية ، فاضطربت أفكاره ، واختلطت اوهامه بنزواته ، وأصبح قاب قوسين او أدنى من الجنون ، انه أجدر بالعطف والتسرية ، فأقبلت نحوه ، وجلست إلى جوارة ، وقالت في حنان :

— « أي زوجي العزيز ، انك في الذؤابة من قومك ، ولك من حسبك ونسبك ما يجعلك سيدا مطاعاً ... »

فقاطعها قائلا :

— « أتعتقدين ذلك حقاً؟؟ »

— « هذه هي الحقيقة ... وانت تعلم يا عبد الله انه لم يبق من العمر اكثر مما مضى ، فلم تقضي ايامك نهباً للأحزان والآلام؟؟ ما كان التاج يوماً مصدر سعادة وهناء ، ورب أشعث أغبر ، لا يجد سوى قوت يومه ، يسكن في خيمة بالية ، تعتورها الرياح والامطار... رب رجل هذا شأنه ، أهنأ بالا ، وأسعد حالا من ملك على رأسه تاج... »

أطرق عبد الله قائلا :

— « هذا عزاء عظيم ، ورثاء مؤثر.. »

— « انني أتكلم عن إيمان ... وانت تعرف أن الرجل على حق ، وأنه رسول من عند الله

وانه يبغي الخير للناس جميعاً، وانه لا يشهر سيفه الا في وجه المعتدين، وأن الأيام اثبتت صدقه، وان القلوب لتعشق كلماته، وأن الرجال يضحون في سبيلها بالمهج والأرواح، وأن قرآنه يرطب القلوب، ويحيى الارواح، ويدعو إلى التي هي أقوم، ويبشر الذين يعملون الصالحات بالنعيم المقيم ... فلماذا لا تطرد هواجس نفسك، وتقهر وسوسات الشيطان، وتنطلق في ركبه نحو الله موًمناً قوي الايمان ؟ ؟ »

انسابت دموعه فجأة، وأخذ يحاول ان يكتم نشيجه، وهو يقول بنبرات باكية موًثرة :

— « لا أستطيع ... لا أستطيع ... انني مغلوب على أمري ... »

ولم تتمالك هي الاخرى نفسها، فأخذت تبكي وتنشج وتربت على ظهره في حنان وتقول :

— « ولماذا لا تحاول ... ان الدنيا بكل ما فيها لا تساوي عند الله جناح بعوضه ، وليست بدار مقام، هبك ملكاً على رأسه تاج ... ما هي النهاية ؟ ؟

هناك في الصحراء المترامية لكل انسان حفرة ضيقة ... »

أشاح بيده في رعب وقال :

— « لا تنطقي بهذه الكلمات... لا أريد أن أسمعها ... دعيني وشأني الآن ...

ارحميني يا امرأة ... انني أشعر بقيود ثقيلة مرهقة تشدني إلى الأرض، لا أعرف كيف أخلص منها ... »

قالت وهي تجفف دموعها :

« عندما تريد فستستطيع ... »

رفع رأسه كشيطان شرس، وكأنما أفاق من حلم عجيب، وهتف :

« ان ما أريده هو حقي في الحياة ... أما الآخرة ... أما الحفرة التي تتحدثين عنها فلنرجىء ذلك إلى حينه ... »

الفصل الثالث

هتف كنانة بن الربيع بزوجه صفية بنت حيي بن أخطب قائلا :

— « صفية ... أين أنت ؟ ؟ »

وقدمت صفية شاحبة الوجه، حزينة العينين، لا يبدو على ثيابها أدنى أثر للأناقة او الاهتمام، وخصلات شعرها تنفر من تحت شالها الأسود، معبّرة عن الإهمال الزائد، ومع ذلك فان هذا كله لم يستطيع ان يطمس مسحة الجمال الرائق الجذاب التي تنطق بها ملامحها المتناسقة، بل لعلها بدت في هذا الإطار المهمل، وكأنها أكثر جمالا ووقاراً، ووقفت صفية مطأطئة الرأس، وهمست :

— « معذرة، كنت مشغولة ببعض شئون البيت... »

انفجر في غيظ :

— « ماذا جرى لك ؟ ؟ انني لا أطيق هذه المعاملة، فلأكن جزء من شئون المنزل، انك تتجاهلين أمري، وتكبدينني الكثير من الضيق والكدر، انني أرفض هذه المعاملة، وأنحى باللائمة على هذا السلوك الشائن ... »

تمتمت في نبرة احتجاج :

— « الشائن ؟ ؟ »

— « أجل ... انك لا تراعين حقوق الزوجية، ولا تعطينني حقي من الرعاية والاهتمام، ان نسوة « خيبر » كلهن يتحدثن عن انطوائك المريب، وصمتك الزائد ... »

قالت وقد تندت عيناها بالدموع :

— « انطوائي المريب؟ ؟ كيف تقول هذا الكلام، الجميع يعرفون مأساة أبي، فهل عليّ لوم إن أنا انشغلت — على الرغم مني — بالحزن عليه ؟ ؟ »

صاح في حدة :

— « وأنا ؟ ؟ »

— « أنت زوجي ... »

— « هذا لا يكفي... ان كأس المنايا دوار على كل الشفاه، كل ما في الأمر أن أباك سبق اليه، ولم يكن وحده ... كان معه المئات ... »

— « ما كان أبي مثل كل الرجال ... »

— « أعرف ذلك ... كان تفكيره يفوق الآلاف اخلاصاً واصراراً ... وكان أول المناضلين عن مستقبل اليهود في هذه الأرض، لقد حاز شرفاً لا يدانيه شرف، ولسوف نسير على هديه حتى الموت أو النصر ... »

لم ترق لها هذه الوجهة من الحديث، ومع ذلك فقد قالت :

— « كفى ما كان »

— « ماذا تعنين ؟ ؟ »

— « لم يعد هناك مسوغ لمزيد من الدماء »

— « انك تنطقين بكلمات خطيرة يا صفية، أهون ما تعنيه أن أباك لم يكن على حق، وان مستقبل اليهود لم يعد يؤرقك ... »

— « لكل وقت ملابساته ... »

— « انك تشردين بي إلى قضايا خطيرة، إلى متاهات مرعبة... لندع امر محمد والحرب واليهود ... انك في هذه الايام تهربين مني ، وتتحاشين اللقاء بي... وتنامين وحدك ... انني بدأت أشك فيما يربط بيننا من رباط مقدس ... مستحيل ان يكون السبب هو ما يعتمل في قلبك من أحزان، انني لا أقل عنك حزناً على ما أصابنا نحن اليهود من مصرع ابيك العظيم ... ان هول الكارثة لم يأخذ بيدي إلى ظلام اليأس، بل اشعل في قلبي الجذوة الملتهبة ... جذوة الحقد ضد محمد والمسلمين من ورائه ... الحزن ليس معناه أن أتجاهل نداء الحياة والواجب ... »

قالت في ضراعة :

— « صدقني يا « كنانة » ... لا حيلة لي فيما أفعل، ولا سيطرة لي على مشاعري، انني لا استطيع ان أضع للحزن مواصفات ومعايير أو موازين دقيقة، إن حزني لا يعرف التعقل او الدقة ... انه طوفان عارم يشل ارادتي، ويغرقني في أمواجه الصاخبة، ويقذف بي هنا وهناك ... انني أتخبط يمنة ويسرة، لا أعرف لي قراراً، ولا أرى شاطئاً للنجاة ... نحن في أيام شقاء مريع... انني استغرق في النكبة واتمثلها بكل ابعادها، ارحمني يا

« كنانة » ... انني عاجزة عن الثبات... أبحث عن الصبر فلا أجده، واتلمس اليقين في مظانه، لكني حائرة ممزقة، إنني أضرع إلى الله ... أتراه لا يستمع لندائي ؟ ؟ انا صادقة الرغبة في النهوض والتماسك لكن قواي منهارة تماماً ... »

هب واقفاً واقترب منها، وامسك بيدها الباردة، وقال وهو يرمق أهدابها المبللة بالدموع :

— « بالله عليك لا تقولي هذه الكلمات يا صفية ... انها قاسية ... انها اقسى عليّ من ضربات السيوف ... لم يزل في الحياة بقية من أمل، ونحن لا نستطيع ان نسحق ما تبقى من أيامنا تحت معول الأحزان الهدام المدمر... لولج الناس في أحزانهم لا نطفأ كل نور في الحياة، ولتلطخ جبينها بالسواد الصافي ... هيا انفضي عن كاهلك ما يثقلها من هموم ... ان ميتة أبيك ميتة بطل لم يدخر وسعا في سبيل الحفاظ على شرفه ومبادئه، وهذه الميتة تبعث على الفخر والسعادة ... »

ثم تلعثم وطأطأ رأسه في أسى وقال :

— « وأنا أحبك يا صفية ... أحبك لدرجة العبادة، ولا أستطيع ان أتحمل غيبتك عني ساعات معدودة ... أنت حياتي وهنائي ووجودي فلا تعذبيني بها الصد، ولا تمزقي قلبي بتجاهلك لي ... ارحمي فؤادي المعذب... »

وشردت صفية إلى بعيد ... ها هي الرؤيا الغريبة تثب إلى ذهنها ... القمر الوافد من آفاق يثرب... ذلك القمر الذي يدنو صوبها رويداً رويداً ... ثم يهبط إلى حجرها ...

— « فيم تفكرين يا صفية ؟ ؟ »

تداركت أمرها، وأفاقت من شرودها، وقلبها يدق في عنف، وقالت متلعثمة :

— « وما قيمة الحياة التي يتهددها الفناء، وتحدق بها الأخطار من كل جانب ؟ ؟ »

— « لا تحملي هما يا حبيبتي ... لدينا من الذهب ما يكفينا مئات السنين، هل نسيت يا صفية ؟ ؟ انني امتلك كنز بني النضير ... كمية ضخمة من الذهب ... أخفيها عن العيون ... لا يعرف احد أين هي، انها تكفل لنا العيش الرغد طوال حياتنا ... فاذا ما تأزم الموقف، وأطبق علينا الخطر استطعنا ان نحمل كنزنا ونهرب إلى أي مكان ... ان كل ما أفكر فيه هو أنت يا حبيبتي ... انني لا أفكر في حرب محمد الا من أجلك انت ... ومن أجل أبيك ... انني أحاول جاهداً ان أحفظ عليك كرامتك ودينك ومستقبلك ... »

وأخذ كنانة يسكب في سمعها كلمات الحب والغزل، ويغمرها بآيات صدقه ووفائه، ويعتذر لها عما بدر منه من عنف أو قسوة في ماضي الأيام، ويؤكد لها أن كل ما كان يقدم عليه، إنما كان انفجاراً عما يشعر به من تجاهلها له، وبرود عاطفتها نحوه، وهل

هناك ما هو أشد حدباً عليها، وتشبثاً بها، وحباً لها من زوجها ؟ ؟ والغريب ان هذا التوسل المتزايد ، وهذه الاعترافات الذليلة لم تكن تزيدها إلا نفوراً منه، واستثقالا لظله، وتبرماً بحديثه .

— « لو كنت تحبني حقاً يا « كنانة » لاحترمت احزاني »

— « انني أشفق عليك، واريد ان انسيك بعض ما تعانين من آلام، والحزن لا يمنع الناس من أن تأكل وتشرب وتنام وتمارس حياتها الزوجية ... الناس يموتون ... والأطفال يولدون ... والحروب تشتعل، والسلام ينشر ظلاله ... والحياة تمضي يا حبيبتي... »

وأفلتت منها كلمات خطيرة، قد يكون لها وقع الصاعقة لو ادرك معناها ... قالت :

— « ليست هذه هي القضية ... »

رفع حاجبيه في دهشة وقال :

— « ما هي القضية اذن ؟ ؟ »

اذا لم تكن مشاعره الطيبة نحوها ونحو أبيها، هي القضية، واذا لم تكن أنشودة الحب التي يترنم بها، ومواساته الرقيقة التي يبذلها في رفق هي القضية، فماذا تكون اذن ؟ ؟
ورفع « كنانة » حاجبيه في دهشة، وتنبهت حواسه، وأعطاها اذناً صاغية، وأدركت هي ما تورطت فيه من تعليق فاسرعت قائلة :

— « القضية هي عجزي الشنيع عن مقاومة الضعف والحزن ... »

قال وقد انجاب عن قلبه ما اعتوره من هواجس مخيفة :

— « طيبي نفساً يا حبيبتي ... لسوف ابقى إلى جوارك، محاولا — بكل ما أوتيت من قوة — أخفف عنك، وان امسح دموعك الغالية، وأن أذهب عنك الأرق والوجوم ... »

وصمت برهة، وهتف وقد أخذته العزّة :

— « ولسوف يأتي يوم اقدم اليك فيه أروع هدية تحلمين بها ... »

قالت دون اكتراث :

— « كنزك المخبوء ؟ ؟ »

قهقه في مرح وقال :

— « لا... ان كنزي ملك يمينك منذ الآن »

فشد انتباها اليه، فقالت :

— « أية هدية تقصد إذن ؟ ؟ »

قال وقد تصلبت ملامح وجهه :

— « رأس محمد »

خفق قلبها في رعب، وصرخت وهي ترفع يديها :

— « ماذا ؟ ؟ »

قال وقطرات من عرق تلمع فوق جبينه :

— « ان ضربتنا هذه المرة ستكون قوية حاسمة، ولن تكون هذه أول مرة يقتل فيها اليهود نبياً لا يروق لهم ... وعندما يتحطم البناء الشامخ الذي حاول محمد أن يقيمه على مدار السنين ... فلسوف يسقط في أيدينا ... وعندئذ احتز رأس محمد دون رحمة، آخذاً بثأر أبيك ... وسأحمل اليك هذه الرأس الغالية، وألقي بها في حجرك على حين غرة ... وستصرخين في البداية مذعورة ... ثم نضحك ... ونملأ الآفاق مرحاً ونشيدا ... ونغني على اشلاء المسلمين ... »

ثم ابتلع ريقه، وافاق من أحلامه الدامية الحمراء وقال :

— « أليست هذه أروع هدية تحلمين بها ؟ ؟ ستكون العلاج الناجع لكل آلامك وأحزانك ... فماذا تقولين ؟ ؟ »

ألقت بجسدها المتعب على وسادة قريبة وهي تقول :

— « ان رأسي يدور، وعيناي لا تكادان تريان شيئاً ... انني خائرة القوى متعبة ... وأبغض شيء إلى نفسي حديث الدماء ... »

سدد اليها نظرات حائرة مستغربة، وبقي في مكانه صامتاً .

الفصل الرابع

جلس « نعيم بن مسعود » — رجل غطفان الذي اسلم ابان أزمة الأحزاب — ومعه عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي وأبو العاصي بن الربيع زوج زينب بنت الرسول، واخذ الجميع يتجاذبون اطراف الحديث، ويتذاكرون ما كان من أمر اليهوديّ اللعين حيي بن أخطب الذي اخزاه الله، وكتب عليه العقاب الرادع، ويتحدثون عن دهاء نعيم بن مسعود، وما أقدم عليه من حيلة بارعة في تفريق صفوف المعتدين، واثارة الشكوك بينهم، وما أفاء الله على المسلمين يوم « قريظة » المشهود، وأخذوا ينظرون إلى المستقبل من خلال الأحداث العنيفة التي مرت، وما ينتظر أن تقدم عليه قريش او يهود « خيبر » وهم القوة الوحيدة التي ما فتيء يكمن فيها الخطر، وتهب من ناحيتها ريح الفتن والمؤامرات، وكلما جاء ذكر مكة أشتد انفعال عمر بن الخطاب، وهدرت مشاعره، ومع ذلك فقد كان عمر يكظم تلك الانفعالات والمشاعر، انه يعتقد ان « المدينة » كانت خير بديل « لمكة » وفي المدينة وجد الرسول الحلفاء والانصار، وأتيحت الفرصة لكلمات الله ان تعلو، ويتردد صداها القوي في الآفاق، ألا وان الوطن ليس مجردِ أرض، ولكنه مبادىء تتحرك فوق هذه الأرض، وتنتصر وتتحول إلى واقع، وأهل المدينة بذلوا النفس والنفيس، والمال والولد، والدم والأرواح في سبيل دعوة الله ومناصرة رسوله الكريم ... فان كان ولا بد للدين الجديد ان يعتز بأرض فليعتز بهذه البقعة الطيبة — المدينة — التي شهدت توافد المهاجرين ومعارك النصر في « بدر » وعظمة الصبر والنهوض من الكبوة « في أحد » ومنازلة المنافقين واليهود في السر والعلن والصمود أمام زحف الاحزاب المخيف ... أية أحداث كبرى جرت على ثرى هذه المدينة العظيمة ! ! ومع كل ذلك فان عمر بن الخطاب يشعر بحنين جارف إلى « مكة » وعندما قال عمر :

— « ما أشد شوقي إلى تلك البلد الطيب مكة ! ! » .

قال سلمان الفارسي في دهشة :

— « أتقول مكة ... انني لا أكاد أصدق ؟ ؟ »

هتف عمر في انفعال :

— « ميمونة تلك القرية التي بارك الله حولها، وجعل فيها البيت الحرام ... »

قال سلمان :

— « لكنك تعلم يا عمر أن أهلها آذوا رسول الله، ونكلوا بالمؤمنين الأوائل، ودبرو قتل محمد، وما برحوا يحشدون الجيوش ، وينفثون الحقد، و يفتحون صدورهم وبيوتهم للمتآمرين من اليهود والمنافقين والمشركين ... »

أردف عمر دو ن أن يزايله انفعاله :

— « انها أرض الذكريات والأهل والامل ... »

— « الأمل يا عمر ؟ ؟ »

— « أجل يا سليمان ... الامل العظيم، عندما يأذن الله بأن يفتح قلوب أهلها للخير، وترتفع في سمائها راية الإسلام الخفاقة... ألم يثن عليها القرآن ويشيد بذكرها، ويمجد بيتها الحرام ... انني كثيراً ما أتخيل يا سليمان هذه البلدة وقد فتحت أبوابها على مصراعيها و هتفت بنا ادخلوها بسلام آمنين... هنالك الكعبة ... وهناك ستقام شعائر الحج الذي فرضه الله علينا، وهناك يلتقي المسلمون — باذن الله — من شتى انحاء الارض يكبرون ويهللون ويترنمون بكلمات الله الخالدة ... ذلك هو الامل... ولهذا فأنا أحب تلك الارض كما احب المدينة ... قال ابو العاصي بن الربيع — وقد كان اللقاء في بيته —

— « ان قلبي يميل لتأييد عمر بن الخطاب فيما يقول، ولقد سمعت رسول الله يتحدث عن شيء من هذا القبيل ... والحقيقة التي لا مراء فيها أن المهاجرين هنا يتحرقون شوقاً إلى اهلهم وديارهم ومراتع صباهم في مكة ... لعلهم كانوا يرون من العبث التفكير على هذا النحو من قبل، لكنهم الآن وقد منّ الله عليهم بالنصر، وخذل الأحزاب، وأخزى بني قريظة، ورد المنافقين إلى جحورهم ... بعد كل ذلك اخذوا يفكرون بشجاعة ... »

وانطلق نعيم بن مسعود قائلا :

— « ان أبا سفيان ومن على شاكلته تصوروا أنهم أصحاب البيت الحرام ... ونسوا انه بيت الله ... لا يستطيع واحد منهم مهما كان شأنه أن يدعي ملكيته ... »

وهتف ابو العاصي ملوحاً :

— « الحقيقة ايها الرجال أن الناس في مكة يرفضون منطق ابي سفيان وشيعته، ويرون ان من حق اي عربي أن يأتي البيت الحرام ويؤدي شعائره الدينية حسبما يروق له، وعباد بيت الله من قديم يختلفون في معبوداتهم و شعائرهم، وكل يؤدي شعائره بطريقته الخاصة.. علق عمر بن الخطاب قائلا في سخرية :

— « لكن ابا سفيان وشيعته يعترفون بجميع اديان العرب ما عدا الاسلام ... ومن ثم فهو يرى أنه لا حق للمسلمين في زيارة البيت ... »

قال نعيم ابن مسعود :

— « يجب أن تدركوا أيها الرجال أمراً ذا بال، لقد كنت وثيق الصلة برجالات قريش وبأبي سفيان بالذات قبيل معركة الأحزاب، وكنت آتي مكة وأرى بعيني ما يجري في دروبها وأتسمع لما يجول في نداوتها ... فالرجال والنساء في مكة قد ضاقوا ذرعا بمنطق أبي سفيان ... ان لهم بينكم هنا إخوة وابناء وآباء يحنون إليهم، ويشفقون عليهم، ويشتاقون للقائهم، لقد درجت مكة من قبل على حرية العقيدة ... كان فيها اتباع عيسى وموسى وعباد الاصنام ... ولم تخرج مكة عن تقليدها العريق الا عندما جاء محمد برسالته ... لقد مل الناس هناك الحقد والحرب وتحكم طبقة السادة الحاقدين في مصائره ... انني أرى في نواحي مكة وبيوتها تمرداً على أبي سفيان ... بل هناك الكثيرون ممن يخفون إسلامهم ...
قال عمر بن الخطاب :

— « لقد أصبت كبد الحقيقة يا نعيم ... ولست عندنا بمتهم ... »

وضج الجميع بالضحك عند سماعهم لعبارة « لست عندنا بمتهم » فهي نفس العبارة التي قالها اليهود، وقالتها قريش وغطفان لنعيم عندما ذهب اليهم ليوقع بهم في تيه الخذلان والشك ... وابتسم نعيم وهو يقول :

— « الحرب خدعة ... وماذا كنت فاعلا؟ ؟ أأترك الاحزاب ينكلون بالمسلمين، ويسمون على الناس بعقيدتهم الخاوية الفاسدة ؟ ؟

وسادت فترة صمت قال ابو العاصي بعدها :

— « ان شعب مكة ينذر بالتمرد والثورة ... وتصرفات سادتهم لا تعبر إلا عن مصالحهم الخاصة، ونفوذهم المهدد ... السادة في مكة لم يقدموا لبلدهم مبدأ واضحاً مقنعاً ... لم يستطيعوا أن يعطوا جواباً شافياً لتساؤلات الناس الحائرة عن قضايا حياتهم ودينهم الشائكة ... النظام في مكة قد فشل ... الحرب لا يحشدون لها الحشود إلا لحماية قافلة تجارية، أو أخذا بثأر، أو شفاء لحقد ... ومحمد صلى الله عليه وسلم استطاع ان يؤدي الرسالة ويقدم الزاد الفكري والروحي ... وان ينهض دفاعاً عن المبادىء الواضحة العادلة ... »

فهز نعيم بن مسعود رأسه قائلا :

— « صدقت يا أبا العاصي ... لقد حاربت عدة معارك ضد الإسلام ... وجالست اليهود وزعماء قريش ... لم أكن مقتنعاً بشيء مما يقولون ... »
وعلق سلمان الفارسي في مرح :

— « ولست عندنا بمتهم ... »

فضحك الجميع ثانية، وشاركهم نعيم، الذي عاد يقول :

— « كنا جميعاً نفتقد الحافز ... نفتقد المبدأ القوي الذي يملأ القلب والروح والفكر... صدقوني... كان مثلي كمثل الذي يقبل على طعام ... أي طعام دون رغبة أو شهية ... يحرك فمه ... ويبتلع اللقمة، ويملأ المعدة وكأنه يؤدي مهمة ثقيلة على نفسه ... »

قال سلمان الفارسي في احتجاج ملحوظ :

— « ولماذا لم تلق عن كاهلك وروحك هذه الحياة المقيتة ... »

تفحص نعيم بن مسعود الحاضرين بنظرات حادة وقال :

— « أجيبوا أنتم عني... أجب يا عمر ... يا أبا العاصي ... »

قال عمر :

— « كنت في الجاهلية أقف صامتاً بعض الوقت أمام الامور المصيرية الحاسمة وخاصة تلك الأمور التي تتعلق بكيان الوطن وحكومته ... »

قال سلمان :

— « أنت لم تقف صامتاً ... بل شاركت في ايذاء بعض من أسلم ... »

أشاح عمر بيده قائلا، وقد بدا الضيق على وجهه :

— « بالله لا تذكر هذه الايام السيئة ... لقد كنت في حيرة قاتلة ترهق أعصابي، وتسلبني النوم والراحة ... الجديد دائماً مثير ومحير ومربك ... ومع ذلك فأنا لم أتأخر عن اللحاق بركب القافلة المؤمنة ... ولله في خلقه شئون ... »

واستدار سلمان إلى أبي العاصي قائلا :

— « وأنت ؟ ؟ »

— « كان غباء مني ... تلك هي الحقيقة ... كنت أشعر أن هناك حاجزاً من الكبرياء الكاذبة يسد طريقي ... لم أمارس قلقاً فكرياً حقيقياً في البداية ... وعندما رغبت في الإسلام لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة قبل سداد ديوني حتى لا يقال لقد هرب صهر رسول الله وأكل أموال الناس ... »

وابتلع ريقه، ثم قال :

— « الحقيقة ... انها كانت فرصة رائعة لأرى زوجتي تقدم لي المثل الأعلى في الوفاء والاخلاص و الصبر ... »

قال سلمان :

— « لقد كان في بيتك قبس من نور النبوّة وتعشى عنه ... »

فاستدرك ابو العاصي قائلا :

— « الأسلام يَجُبّ ما قبله، ويمسح الخطايا التي سبقته ... »

واستدار سلمان اليهم، واشرق وجهه بالنور والحب، وانجلت أهدابه عن نظرة فياضة بالشوق والحنين والايمان، واخذ يقول في شفافية بهية :

— « أما أنا فقد انزل الله في قلبي توقاً إلى الحقيقة في وقت مبكر... فتركت فارس وسرت من بلد إلى بلد أبحث عن نور الله ... لقد قيل لي انه نبياً على وشك أن يأتي إلى إلى الناس في هذا الزمان ... تحدثوا عنه وعن اطراف من رسالته، وعن الأرض التي يخرج منها ... وظللت أضرب في فجاج الأرض بحثاً وتنقيباً ... يا لها من لذة رائعة ؟ ! أسأل الناس عن أخباره ... أيها السقاة ... ابعدوا كوؤسكم انها لا تروي ظمأى... أيها الندمان وفروا أحاديثكم فما بي شوق إليها ... يا من تقدمون لي أطايب الزاد انني زاهد في طعامكم يا من تنطقون بالحكمة، ان حكمتكم — وكذلك حكمة فارس والهند والرهبان — لم تشبع روحي او تملأ قلبي ... ايها الشعراء لقد مللت أنغامكم وموسيقاكم ... يا أبطال الحرب... انتم تضربون وتسفكون الدم دونما غاية اصيلة ... يا حملة الكتب والاقلام يا فلاسفة هذا الزمان ... يا هؤلاء جميعاً ... ليس لديكم ما ابحث عنه ... انني سأستأنف المسير بحثاً عن نور الله ... عن نبي هذا الزمان ... وهكذا أيها الإخوة عندما قابلت محمداً حدثت لأول وهلة أمور عجيبة ... نظرت إلى وجهه فاستراحت روحي، وشعرت باطمئنان غريب ... وسمعت كلماته فطغت على كل ما عداها من أوهام الحكماء والشعراء والكهان والفلاسفة ... معذرة أيها الاخوة ... لم يقف في طريقي نظام قائم عتيد، ولم تحجب الضوء عني كبرياء كاذبة ... لقد حطمت هذه الأصنام جميعاً قبل أن آتي محمداً ... أتيته بعد أن نظفت قلبي من الأوهام والأحكام المسبقة ... وعندما سمعت كلماته امتلأت بها روحي، وعمر بها فكري ... ومن كلماته استلهمت العزة والنظام ... استلهمت المبدأ الذي اعطى لحياتي نسقاً فريداً، ومعنى جديدا ... »

أغرورقت عينا عمر بالدموع، وقال في انبهار :

— « صدق رسول الله حين قال : « سلمان منا أهل البيت »

كان الحاضرون يستمعون اليه في شغف، ويهيمون معه في الافاق الجميلة التي توحي بها كلماته المؤمنة المخلصة، تلك الكلمات التي اسرعت بخفقات قلوبهم، وبللت أهدابهم بالدموع، وتغلغلت إلى أعماق قلوبهم، ما أعظم ان يطهر الانسان قلبه من الهواجس والأوهام، وينطلق باحثاً عن الحقيقة الحية ... انه لأمر جد عسير يحتاج إلى طاقة غير عادية قد تفوق طاقة البشر، هذا ما كان عمر يحدث به نفسه وهو يستمع إلى كلمات سلمان الفارسي «ما أوسع البون بين رجل يقدم اليه النور والهداية فيرفضهما ويشرع سيفه في وجهيهما، ورجل يجري ويلهث بحثاً عن النور، ويضحي في سبيله، ويتكبد المشاق، ويترك حياة الدعة والرغد والمتعة !!!

وتمم نعيم بن مسعود :

— «أليس عجيباً أن يأتي رجل من فارس ليعتنق الاسلام على يدي نبي لم يكن لديه سابق معرفة به، بينما عم رسول الله يكيد لابن أخيه ويحاول قتله، وهو يعلم جيداً ان محمدا صادق الوعد أمين، وانه طاهر حصيف نظيف في طفولته وشبابه وكهولته ؟؟ قال ابو العاصي :

— «والله يعلم وانتم لا تعلمون ...»

وأدرك نعيم بن مسعود ما ران عليهم من انفعال واثارة، فمال على عمر قائلا :

— «علام تبكي ؟؟»

قال عمر وهو يجفف دموعه :

— «على ما مضى من جهالة وحماقة ...»

وأراد نعيم أن يثير المرح والدعابة من جديد فقال :

— «صدقت... ولست عندنا بمتهم ...»

فضحك الرجال، ثم عادوا يتحدثون عن مكة، وعن ضرورة تأدية فريضة الحج والطواف بالكعبة، ويطنبون في الحديث عن مشاعر المهاجرين الذين يكتوون بنار الفراق، ويؤرقهم الحنين والشوق إلى موطن الأهل والأحباب والذكريات ومقر بيت الله الحرام ...

وفي صبيحة اليوم التالي كان المسلمون مجتمعين للصلاة في مسجد رسول الله، وبعد أداء الصلاة، أنبأهم رسول الله برؤياه الصادقة :

— «انهم سيدخلون المسجد الحرام ان شاء الله آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون. فما كان الرسول يعلن هذا الامر، حتى علا صوت المسلمين بحمد الله وتكبيره

داخل المسجد، واشرقت ملامح المصلين بالفرحة الغامرة، ولمعت في نظراتهم أمارات السعادة والبهجة، ان كلمات الرسول لا يعتريها شك، ووعده لا يلحقه نكث، ودخول مكه — على اية صورة من الصور — امر تهتز له النفوس وتهفو اليه الأرواح، انه حدث ضخم لا يمكن الا أن يُتَقَبَّل بمزيد من الاهتمام والفرح والحماس المنقطع النظير ...

كان عبد الله بن أبي يحضر الصلاة في ذلك اليوم، على مقربة من نعيم بن مسعود، وذهل شيخ الحاقدين وهو يستمع إلى كلمات الرسول، وغمغم بينه وبين نفسه :

— « هذا جنون مطبق ... هل يتصور محمد ان يفتح له أبو سفيان أبواب مكة هكذا ببساطة ؟ ؟ أتراه الغرور الذي دفع المسلمين لكي يأخذوا رؤيا الرسول مأخذ الجد ؟ ؟ من هم حتى يقتحموا حرمة مكة، ويطوفوا بالبيت العتيق ؟ ؟ وأين سيوف أبي سفيان وعكرمة وخالد بن الوليد ؟ ؟ ان دون ذلك دماء وأهوال ومعارك وحشية ... ان هذا الغرور سيضع النهاية لوهم محمد واتباعه ... آه لقد اغراهم انسحاب الاحزاب واعتبروه نصراً كبيراً ... انه لا يعتبر نصراً حققه المسلمون بقدر من هو فساد في خطة الأحزاب، وسوء تصرف منهم في تخطيطهم وإدارتهم للمعركة ... والقضاء على بني قريظة مجرد سوء حظ... لا أكثر... »

ثم عاد يخاطب نفسه : « آه ... لو استطاع محمد أن يفعلها و يصل إلى بغيته، فستكون كارثة كبرى — ستقول العرب ان محمدا يكرم البيت العتيق ... وسيكسب إلى صفه قلوب الطيبين والسذج من أهل مكة ...

وقد يستطيع محمد — هذا الحريص الذكي — ان يهيىء لنفسه جوا من الثقة والهدوء يمكن به لنفسه، ويقهر به اعداءه ... »

ومال عبد الله بن أبي على اذن ابن مسعود :

— « ألا ترى أننا نتعجل الأمر، ونعرض أنفسنا للخطر بهذا التصرف يا بن مسعود؟؟ »

نظر اليه نعيم في ضيق، وقال في حدة :

— « وهل بعد رأي رسول الله رأي ؟ ؟ إنها رؤيا صادقة أشبه ما تكون بالوحي... »

ارتسمت على ثغره ابتسامة صفراء وقال :

— « انها ليست وحياً على أي حال، وفي يوم « أحد » أطاع محمد الصبية وعصاني ماذا كانت النتيجة ؟ ؟ الهزيمة ...

اكفهر وجه نعيم وقال :

— « سأكظم غيظي ... فنحن في المسجد ... ولن أعطيك الفرصة لإيقاظ فتنة جديدة.. »

— « انني لا أطعن يا ابن مسعود، ولكني أبدي رأياً أراه، والرسول لا يمانع في ذلك.. »

قال ابن مسعود :

— « لو أطاع الرسول المنافقين ودعاة الهزيمة يوم « الأحزاب » لسلم نفسه ورجاله للكفار... أتذكر يا عبد الله بن أبي؟ ؟ »

— « إنك حديث عهد بالاسلام وحماسك يطغى على عقلك ... والله لئن قدمتم إلى مكة في موسم الحج هذا، للقيتم شراً وهواناً ما بعده هوان ... الغرور مركب خطر، ومنزلق من مزالق التهلكة ... هذا رأيي، ولك رأيكم ... »

•

واستطارت الانباء في انحاء المدينة، المسلمون سيخرجون للحج هذا العام، ولم يكن احد يدري هل ينتوي الرسول ان يدخل مكة عنوة، او يدخلها مسالماً لتأدية الشعائر والعودة بسلام ...

الفصل الخامس

عاد المهاجرون إلى بيوتهم في هذا اليوم المشهود وقد فاضت نفوسهم بشرا وسعادة، النساء مبتهجات بدعوة الرسول للخروج إلى بيت الله الحرام، والرجال تخفق قلوبهم للغد الباسم، وهل هناك اروع من الطواف ببيت الله الحرام، والوقوف بعرفات، ومناجاة بارىء الأرض والسماء، ؟؟ وهل هناك أحلى من لقاء الأهل بعد طول فراق، وكثير عناء وحرمان ؟؟ ما ألذ أن يعود المهاجر إلى أرضه يهتف بالذكريات، ويقارن بين الماضي والحاضر، بين الجاهلية والإسلام، والضعة والعزة، والضعف والقوة ... لسوف يقف أهل مكة يرقبون هؤلاء المهاجرين الذين خرجوا ذات يوم مظلومين مقهورين، تطاردهم الاضطهادات والسخريات سيرقبونهم وقد ذاعت قصة الإيمان العظيم، وانتشرت أنباء صمودهم وتضحياتهم وانتصاراتهم في كل الأنحاء ... سيرى اهل مكة معجزة تتحقق ... سيلمسون عن قرب اصالة الحق وقوته وصبره على المشاق، وسيشهدون كيف تنتصر القلة المؤمنة وكيف تحول الضعف إلى قوة بفضل الله، وكيف استطاعت مبادىء الدعوة الإسلامية أن تخلق هذا التجمع المتميز بأخلاقه وسلوكه ونضاله الشريف ... هذا التجمع تحت رأيه الحق الخالد ...

ما أعذبها من رحلة بعد غزوات متصلة، وسرايا مترادفة، ومعارك دامية ! ! ! لقد آن الاوان بعد أن قبع اليهود في جحورهم موتورين، واختفى المنافقون وراء الجدارن يعضون أناملهم من الغيظ، ويئست مكة وغطفان من طول المناوئة ... آن الأوان بعد ذلك كله ان يخرج المهاجرون والأنصار إلى حج بيت الله للعبادة والزيارة والترويح عن النفس ...

وكم كانت دهشة أهل المدينة حينما علموا أن الرسول قد بعث برسله إلى القبائل المجاورة لكي يخرجوا معه حاجين إلى البيت الحرام، وهم على ما هم عليه من الشرك، وعدم الإيمان بالرسول ... البيت بيت الله ... فليخرج العرب ليؤدوا الفريضة كل حسب معتقداته ودينه، ولا شك أن هذه السماحة سوف تدخل الاطمئنان على نفوس أعداء الدعوة، وستعطى قريشاً الدليل القاطع على أن محمدا قد خرج لتأدية الشعائر، ولم يخرج للحرب او الغدر ...

وضرب عبد الله بن أبي كفاً بكف وقال لزوجه :

— « ان محمدا بتصرفه هذا سيجر على المدينة الوبال ... ستتعرض أرضنا وبيوتنا وأولادنا للخطر بسببه ... هذه الأرض التي عشنا عليها مئات السنين أحراراً شرفاء، يأتي محمد اليوم ليوجه إليها أنظار قريش وتوابعها كي يطمعوا فينا ، ويفكروا في استعبادنا وغزونا »

قالت زوجه في دهشة :

— « إنك تقول كلاما غريباً لم اسمع بمثله قط... »

— « لانك غبية مثل عامة الناس ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لسوف تنتفض قريش ثائرة عندما تعلم بنية محمد ... ولكي تدفع عن نفسها الشر والعار فستسرع بالتأهب للحرب ومداهمة بلدنا الطيب هذا ... أيدخل محمد في وضح النهار ويجوب شوارع مكة ليراه اولئك الذين ما زالوا يندبون قتلاهم في يوم « بدر » و «أحد» وغيرهما من المعارك ؟ ؟

أتتصورين ذلك ؟

قالت زوجه :

— « أمرك جد غريب يا عبد الله ... لقد استشهد من المسلمين عدد كبير ، وقتل من المشركين كذلك عدد كبير ... كلا الجانبين ذاق مرارة الحزن ... هذا أمر لا يجب أن يجرنا إلى جدل وما قتلاهم باشرف من قتلانا ولا أعز ، واكرم ... »

وابتلعت ريقها ، ثم استطردت قائلة :

— « وحرية الحج مكفولة للجميع... على هذا درج العرب من قديم الزمن ... وفي الأشهر الحرم لا يستطيع مخلوق أن يرفع سيفاً ليسفك دماً ... »

قهقه في سخرية وقال :

— « ما دام الامر بسيطاً هكذا فلماذا لم يفكر محمد قبل ذلك خلال السنوات الستة الماضية في الحج ؟ ؟

ولما لم تجب زوجه قال :

— « تكلمي أيتها اللسنة الفطنة ... لماذا لم يحج وقد حول القبلة التي كان عليها إلى البيت الحرام، ونزلت آيات القرآن تمجد هذا البيت وتكرمه ؟ ؟

ولما ظلت صامتة قال :

— « انا أجيبك ... إن حالة الحرب كانت محتدمة وما زالت ... ولا يمكن ان يأمن المسلمون لقريش، ولا يمكن ان تثق قريش بصدق نوايا المسلمين ... »

قالت في ثقة :

— « المسلمون لا يغدرون ... »

لوح بيده في غضب وقال :

— « أنت تتكلمين بمنطق الأنثى الساذجة التي لا تتعمق الأمور ... »

هتفت غاضبة :

— « الناس جميعاً في نظرك لا يحسنون التفكير والمسلمون دائماً حسبما تعتقد يخطئون، ولا تكاد تمر حادثة إلا وتلتمس للكفار ألف عذر وعذر ... إن قلبك دائماً معهم ... »

— « بل مع الحق يا جاهلة ... »

قالت محتدة وهي تدرك ان كلماتها تثير غيظه وضيقه :

— « ما يقوله محمد هو الحق »

رفع يده، وفتح فمه في اشمئزاز وقال :

— « تطلبين مني أن ألغي عقلي ... وأشل تفكيري؟؟ لا... يا زوجتي ... ان محمدا بشر ... »

قاطعته قائلة :

— « ونبي ... لا تنس ذلك ... وهو يحمل إلينا كلمات الوحي... كلمات الله ... وحذار أن تنقص كلمات الله او تنقدها ... إن العقل لا يستطيع ان يتحدى خالقه . أو يرى ما هو اصوب دائماً »

— « منطقك يا امرأة على ما فيه من وضوح وقوّة — يحمل في طياته ابلغ الخطر... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « ليس كل ما يقوله او يفعله محمد وحيا ... هناك أشياء يفعلها كبشر ... وأشياء يفعلها كنبي ... والفرق بين الحالين كبير ... اخطأ محمد يوم خرج لملاقات الأعداء يوم « احد » وكان الأفضل ان يبقى ... لقد كان رأيه كذلك في البداية ... لكنه انصاع لرأي المتحمسين ... من الشباب الاغرار ... لم يكن تصرفه وحيا من السماء وانما اجتهاد بشر... أليس كذلك ؟ ؟ »

قالت في عناد :

— « لم يخطىء محمد ... ولا أريد أن تذكر كلمة الخطأ إلى جوار اسمه الطاهر... كان الخطأ خطأ الرماة الذين عصوا أمره، وتركوا مواقعهم جرياً وراء الغنائم ... وكان كل ما حدث ابتلاء من الله، وتجربة يستفاد منها ... »

وصمتت برهة ، ثم قالت في تلعثم :

— « والخطأ الآخر هو خطؤك انت... »

اشرأب بعنقه مستفسراً :

— « كيف؟ ؟ »

— « ألم تنسحب برجالك في أدق الظروف وأحرجها ؟ ؟ »

هز رأسه قائلا :

— « ما كنت لأشارك في أمر يرفضه عقلي ... أأسلم نفسي للموت وانا على بينة من فساد تصرف المسلمين وخطئهم ... »

— « لكنهم انتصروا في بداية المعركة ... »

— « العبرة بالنتيجة ايتها العنيدة المتحيزة ... »

— « النتيجة برغم التضحيات — كانت خيراً وبركة ... ألم يخرج محمد في اليوم التالي ورجاله لمواجهة أبي سفيان ؟ ؟ ألم تهرب قريش إلى مكة وترهب العودة إلى لقائه ؟ ؟ ألم يطهر المدينة من اليهود، ويؤدب القبائل الغادرة ؟ ؟ ألم يكثر عدد المؤمنين بالله ودعوة رسوله ؟ ؟ أي نصر أروع من ذلك ؟ ؟

واشتد حنق عبد الله بن أبي حينما تكلمت عن تطهير المدينة من اليهود، حلفائه الأقدمين، وعادت به الذكريات إلى الماضي البعيد ... إلى أيام الحرب الضروس بين الأوس والخزرج، لقد انحاز، بعض اليهود للأوس، ومن ثم حاقت الهزيمة بالخزرج قوم عبد الله بن ابي، ووقع عبد الله في أيدي أعدائه، وكادت سيوف الأوس تمزقه شر ممزق، لكن اليهود انقذوه ... انقذوا حياته الغالية، وحياة أسرته ... هل ينسى هذه اليد البيضاء لليهود ؟ ؟ منذ ذلك الوقت وهو يحمل لهم الود المكين، ويرتبط معهم بأوثق العهود، ويقف إلى جوارهم، ويمكن لنفوذهم وسلطانهم، وسيطرتهم التجارية حتى وثقوا به أشد الثقة، واعتبروه واحدا منهم ... ويوم ان فكرت المدينة في التفاهم والوئام، واختيار رجل يتوجونه ملكاً عليها، لم يجد اليهود رجلا يوثق به غير حليفهم وصنيعتهم عبد الله بن

أبي... لكن « الغريب » المهاجر ... القادم من مكة ... محمد.... قد اضاع كل شيء...
أصبح السيدّ المطاعَ ... أذلّ اليهود ... أفسَدَ مخططاتهم وركل التاج الجديد بقدمه قبل ان يوضع على رأس سيد الخزرج ... وسدد عبد الله إلى زوجه نظرات حادة قاسية وقال :

— « اليهود هم الذين صانوا عرضك، وانقذوا حياة زوجك ... ألا تذكرين ؟ ؟

واجهت نظراته بحزم وقالت :

— « هل نسيت يا عبد الله ؟ ؟ لقد تقاضوا الثمن أولا... ألم يكن لديك رهائن من شبابهم لضرب أعناقهم اذا ما غدر آباؤهم ؟ ؟ ماذا جرى ؟ ؟ خان اليهود عهودهم مع الخزرج، وانحازوا للأوس مضحين بالرهائن وقال قائلهم : ما هي إلا ضجعة من النساء ننجب بعدها غير هؤلاء الشباب... أما أنت يا عبد الله فقد بادرت برد الرهائن اليهم دون ان يصيبهم سوء ... فكان ان حفظوا لك حياتك ... ثم ... ألم تتوسط لدى محمد لانقاذ بني النضير ؟ ؟ واحدة بواحدة ... إن اليهود لا يسدون معروفاً ... دائماً يتقاضون الثمن . ودائماً ينظرون إلى الأمور نظرتهم إلى الصفقات التجارية ... »

هز رأسه قائلا :

— « انت في واد ... وانا في واد آخر ... ولن نلتقي... ها نحن في بيت واحد، وتحت سقف واحد، لكن ما بيننا بعد المشرق عن المغرب... وهكذا يفعل محمد بأفراد الاسرة الواحدة .

— « نستطيع ان نلتقي اذا اردت... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « انت تعرف ؟ ؟ »

— « اذهبي عني ... فقد مللت حديثك ... »

— « بل تضيق ذرعاً بكلمة الحق ... »

رفع اليها وجها اشيبا مستغربا وقال :

— « أأنت التي تأخذ بيدي إلى طريق الصواب... ألا لعنة الله على هذا الزمان المشئوم الذي تخرج فيه المرأة عن رأي زوجها، وتتبع البريق الذي يخدع الحمقى والجهلاء...

— « دائماً تعرض برسول الله تعريضاً جارحاً ... ان دعوته ليست بالبريق الخادع »

أمسك بكتفها ورجها في عنف قائلا :

— « اسكتي والا حطمت جمجمتك ... »

— « افعل ما شئت فما أنا بالتي تسمع ذلك التجريح دون أن ترد عليه ... يكفي انني استرك، واحفظ سرك، وابقى على ما بيننا من ود قديم ... »

قهقة ساخراً ودفعها إلى الوراء قائلا :

— « من أنت ؟ ؟ »

— « امرأة مسلمة ؟ ؟ »

— « أنت حشرة ... »

انفضت رأسها في أسى، ولم تجب، وأخذ يقول :

— « أي سر تحفظين ؟ ؟ لقد أصبح اسمي على كل لسان ... واصبحت قصتي آيات في القرآن يتلوها المصلون في المساجد ... مع كل صلاة ... لم يعد عدائي قاصراً على محمد وصحبه ... بل أصبح عدائي لله ... هكذا صوروني وأنا المسلم مثلهم ... وكل جريمتي ان لي رأيا مخالفاً في بعض الامور .. »

قالت وهي ترتجف :

— « أتوٌمن بما تزعم ؟ ؟ »

— « أهناك غير ذلك ؟ ؟ »

— « انك تظل تردد هذه الكلمات المخادعة ... لكنك بطول تكرارها وترديدها صدقتها ... لست صاحب رأي، ولكنك تكره محمداً وتحقد عليه ... تذكر مجدك المنهار وانكشاف امرك، وتبرم الناس بمسلكك فتمتلىء نفسك ثورة عنيفة تطمس كل المعاني النبيلة فيك كإنسان ... تلك هي الحقيقة باختصار ... وهل نسيت ؟ ؟ ألم تصرح انت بذلك ذات يوم ؟ ؟ » وثب نحوها كنمر مفترس على الرغم مما يعانيه من ارهاق وحزن، واطبق على عنقها في غيظ، حاولت جاهدة أن تتخلص منه فلم تستطع وسر ت الزرقة في وجهها المغضن الشاحب، وجحظت عيناها في ضراعة، وتدلى ذراعها في عجز ... واستسلمت للمصير ...

لكن صوتاً أتاها، وكأنه يهتف من بعيد ...

— « أماه ... آه ... »

أفاق الشيخ من جنونه، وترك زوجه الزاهلة تلهث وتستغرب ما جرى، فسعلت ومسحت عن عينيها ووجهها وعنقها، وتمالكت اعصابها وصاحت بعد حين :

— « ولدي عبد الله ... اني قادمة اليك ... مرحباً بك ... »

وكان مجيء ولدها عبد الله بن عبد الله بن أبي إيذاناً بانصرافها عما كان يحتدم من نقاش، ونجاة لها من يد الوحش الذي لا يرعى رحمة ولاذمة ... »

جلست إلى جوار ولدها وصدرها يعلو ويهبط، وغير قليل من الارتباك يخالط حركاتها ونبراتها، ولم يخف ذلك على عبد الله الذي قال :

— « ماذا بك يا امي ؟ ؟ »

وقالت وهي تغتصب ضحكات مصطنعة :

— « بارك الله في عمرك يا ولدي... ألا ترى أن السن قد تقدمت بي وفعلت الأفاعيل وفي البيت كثير من الامور التي لا بد من الاشراف عليها بنفسي ... »

وعادت تمسح على فمها ووجهها وتقول :

— « ومع الشيخوخة يا ولدي تتسلل الامراض إلى البدن، وتضعف القوى... » وكم كانت دهشتها عندما وجدت زوجها يخرج من حجرته، وعلى فمه ابتسامة عريضة، وكأن شيئاً لم يحدث، والغريب انه يقدم نحوهما ويصافح ولده عبد الله، ويقول :

— « رحم الله الشاعر العربي القديم حينما قال عن الشيب

ألقى عصاهُ وأرخى من عمامته ... وقال: «ضيف» فقلت «الشيب»؟ قال: أجلْ
فقلت اخطأت دار الحي قال «ولِـم؟؟ ... مضت لك الاربعون التمّ» ثم نزلْ
فما شجيت بشيء ما شجيت به ... كأنما اعتم منه مفرقي بجبـــــلْ

وعلق الأب مستطرداً :

— « وأمك يا عبد الله قد تخطت الاربعين منذ زمن بعيد ... »

وأخذت المسكينة ترى زوجها وهو يمازح ولده، ويجوب به مناحي الحديث، وينتقل به من موضوع إلى آخر، فلم تتمالك نفسها ان هتفت دون أن يسمعها : « منافق ».

الفصل السادس

وضع كفه اليمنى فوق حاجبيه مبسوطة ليتقي ضوء الشمس القوي، ونظر إلى بعيد، هناك على بعد اميال تقبع « خيبر »، وامتطى ناقته وحثها على المسير، كان يمشي وحده، لكنه يشعر بضعف بالغ، وأسى مكتوم، وسمع صوتاً من خلفه يهتف به :

— « إلى أين يا عبد الله بن أبي ؟ ؟ »

التفت خلفه في ازدراء ؛ ورمى محدثه بنظرة عاتبة، لماذا يصر على التدخل في شأنه، آه ... ان عيون محمد تنبت في كل مكان، اذا تكلم او مضى لبعض شأنه لاحقته العيون والاستفسارات ... انه حصار سمج مميت ، لكن عبد الله بن أبي تمالك اعصابه ورد قائلا في سخرية :

— « رحلة إلى الله ... »

وتركه وانطلق بناقته التي تسرع الخطو نحو « خيبر »، وخيبر غنية بالذهب والزرع والضرع وفيها الرجال الاشداء المغاوير، وفيها الحصون المنيعة، والسلاح الوفير، وفيها « سلام بن مشكم » القائد الهمام، وفيها « كنانة بن الربيع » الزعيم اليهودي الثائر زوج صفية بنت حيي بن أخطب... أجل هناك الحقد العظيم المدمر، وفي قلوب الرجال رغبة عارمة إلى الثأر ... التأر لبني قينقاع والنضير وقريظة ... ولكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب وكعب بن أسد وغيرهم ... هؤلاء الاصدقاء الاوفياء الذين ضحوا بكل شيء، ولم يهدأ لهم جفن، او يطمئن لهم قلب، ازاء الصراع مع محمد، وظلوا أوفياء للحقد العظيم حتى لاقوا حتفهم ... في « خيبر » يا عبد الله بن أبي تجد البيئة الصالحة لدعوتك، وتجد العقول المفكرة القادرة على استيعاب آرائك واستقراءاتك للاحداث المقبلة ...

لم تزل خيبر أرض الاول، وقاعدة الانطلاق لتدمير محمد وهدم البناء الصلد الذي أقامه ووقف فوقه يكبر ويهلل، ويدعو الناس للانضواء تحت لوائه ... وتذكر عبد الله فجأة ما قالته له زوجه بالامس القريب : « ... هناك في الصحراء المترامية لكل انسان حفرة ضيقة » لشد ما يؤلمه ان يستمع لهذه الكلمات... انه متشبث بالحياة أشد التشبث، يكره ان يموت، أيموت محطم النفس والروح مهزوماً ؟ ؟ أتذهب كل الجهود التي بذلها في حياته

هباء ؟ ؟ ألا أن ضربة الموت قاصمة لا نجاة منها ولا مهرب ، وهذا ما يحزنه ... حفرة ضيقة يطوي فيها جسده ... ثم تمضي الايام وهو في صمته البارد المتعفن ، ومحمد يصول ويجول ، ويحشد البشر تحت لوائه ، ويتردد اسمه في الآفاق ، ويمر الناس على قبري أنا ، فيبصقون ويهتفون :

— « لعنة الله عليك يا بن أبي ، ويلحقني العار حيا وميتاً ... »

وأخذ عبد الله يلهب ناقته بعصاه في انفعال شرس ، لكأنه يريد أن يسبق الاحداث والايام يجب أن يسبق الموت ويتحدى الضعف و الشيخوخة والفشل ، والاصرار والمغامرة تصنعان الرجال ، وهو يشعر — برغم ضعفه وشيخوخته — أنه أقوى من الموت ، وأقوى من الفشل. وتذكر كلمات زوجه وهو يعد راحلته للسفر « إلى أين تذهب يا عبد الله ؟ ؟ انك لم تعد تقوى على أعباء السفر ووعثائه » فقهقه في فظاظة ، واخذ يحدث نفسه : « لم أزل قادراً على السير ، واحتمال أهوال المعارك ، ان بي طاقة من الغيظ تستطيع أن تلهب عزائم الألوف من الرجال ... انني جيش بأسره ... وغدا تعرف زوجتي ... ويعرف محمد من اكون... لقد استطاع محمد أن يلهب خيال الدهماء باحاديث عذبة عن الجنة والنعيم ، فتسابقوا إلى الموت في جنون ... هكذا الناس دائماً تحركهم عواطفهم ، ويغريهم زيف المنى والاحلام... الحقيقة المرّة لا يستسيغها احد ، لا بد أن تقدم اليهم في إطار من الخرافة والشعر والإثارة... »

وأدرك أنه يفتئت على محمد ويظلمه ، ان محمدا في الحقيقة لا يزيف ولا يخدع ، ومحمد على الرغم من روعة بيانه ، وحلو حديثه ، وبلاغة منطقه على الرغم من كل ذلك فان كلماته تتفق مع العقل ، وهل في الامكان ان يتسابق الناس خلف عبارات طنانة ، وخرافات منمقة ويبذلوا أرواحهم في سبيلها ؟ ؟

وسرعان ما تذكر عبد الله ان هذا المنحى من التفكير ، سيبذر في نفسه التردد والشك ، وسيضعف من عزيمته ، ويوهن من إصراره وعناده ، فاستبعد بسرعة تلك الأفكار الخطرة ، إنه يخاف على نفسه من نفسه .

•

وبلغ عبد الله بن أبي « خيبر » ، كان في استقباله « سلام بن مشكم » قائد خيبر ، وكنانة بن الربيع ، وعدد آخر من زعماء اليهود ، فاستقبلوه بحفاوة بالغة ، وعناق مؤثر ، وعبارات ترحيب مألوفة ، وتمتم عبد الله في انفعال : « أرقتني الدماء التي سفكها محمد ظلما ، وآلمني غدر قريش ... ان عويل الابرياء من بني قريظة ما زال يطن في أذني ، لكن الذي يخفف عن أساي هو أنني أرى أمامي رجالا ... »

ثم قال :

— « هل تسلمتم رسالتي ؟ ؟ »

— « بالطبع ، و لهذا وجدتنا في انتظارك ... كنا نترقب قدومك على احر من الجمر ... »
وكان اللقاء في بيت « سلام بن مشكم » حيث التقى عبد الله في المساء بعدد من زعماء خيبر يتدارسون الامر ، ويعدون له عدته . وفي رأس كل منهم ينتصب شبح محمد كبيراً مسيطراً مهيباً ، لا يستطيع أحدهم أن يبعده عن ذهنه او ينساه لحظة ، وابتدرهم عبد الله قائلا :

— « الايام تسرع الخطى ، والزمن في صالحه »

قال كنانة :

— « ونحن نقضي النهار ، وجانباً كبيراً من الليل لا نفكر الا فيه ... محمد »

قال عبد الله :

— « انه يعتزم المسير إلى مكة ... »

قال سلام بن مشكم :

— « انه يسير إلى حتفه بظلفه ، لقد بلغنا نبأ ذلك فطر بنا له ، وخاصة بعد أن تأكد لنا أن قريش لن تدعه يدخل مكة ، فيلحقهم العار والشنار ، والأهم من هذا كله أن قريش قد لبست لبوس الحرب ، وتنادوا للسلاح وأقسموا ألا يدخل عليهم محمد ... ومحمد في نفس الوقت مصر على الدخول ... ما معنى ذلك ايها الرجال ؟ ؟ معناه الصدام الأكيد ... الغرور سيدفع المسلمين إلى الاعتصام بسيوفهم ، وفي هذا الفناء الكامل لهم ... وخاصة لو تدبرنا أمرنا ، وطعناه من الخلف ، وداهمنا المدينة في غيبته ... »

ابتسم عبد الله في ثقة ، وقال :

— « استمعوا إلي جيداً أيها الرجال ... انكم على الرغم من كل ما حدث ما زلتم تجهلون محمدا ، ولا تدركون الهدف من وراء أفكاره العميقة ، إنني أرقبه عن كثب ، وألاحظ سلوكه وأوامره لرجاله ، وحكمه على الأشياء صغيرها وكبيرها ، وهو لا يقدم على شيء الا بعد تفكير دقيق ، والاستعداد لكل طارىء ... هل تعتقدون أن محمدا يغامر — بكل بساطة — بمستقبله ورجاله في معركة غير متكافئة وغير مضمونة النتائج ؟ ؟ »

ردوا جميعاً بصوت يكاد يكون واحداً :

— « انه أشد حرصاً مما نتصور ... »

— « اذن فمن العسير ان نقتنع بأنه خارج للحرب ، ان معه اربعمائة وألفاً من الرجال ، وليس معهم سوى السيوف في أغمادها ، وعدد من الهدى لنحرها ، لقد أشاع في كل الانحاء انه لم يخرج لحرب ، وانما خرج لاداء الحج مثله مثل أبناء العرب في كل مكان ... انه لا يبغي سوى السلام والمحبة والسماح له بتأدية الشعائر ، فلو انقضت عليه قريش للامها العرب وعابوها ، بل لن تجد قريش من يشاركها هذا الإثم ، وعلى أسوأ الفروض ، لو قامت معركة ما بين المسلمين وقريش ، فان في مكة مسلمين أخفياء يشكلون حماية لمحمد ، ويستطيعون ان يغيروا من نتيجتها لصالح صاحب الرسالة ... وفي مكة أيها الرجال — عدا المسلمين — أقارب وأصهار للمهاجرين والأنصار... ولو تمادينا في تصوراتنا لحدوث معركة ، فان محمدا قادر على ان ينسحب بقواته عند الخطر ، وينقذها من الفناء كما حدث قبل ذلك ... وهل نسيتم ان غير المسلمين قد اشترك في الحج مع محمد حيث دعا جميع القبائل المجاورة للمدينة على اختلاف عقائدها للخروج معه ؟ ؟ »

كان اليهود يستمعون إلى حديث عبد الله في اهتمام بالغ ، ويستوعبون كل كلمة يقولها ، ويبدو على وجوههم الإعجاب الشديد لحسن فهمه للأمور ، واستنباطاته لمجريات الحوادث ، وبينما هم مندمجون في التفكير ، واستعادة ما قاله عبد الله ، اذا فتح باب الحجرة عنوة ، ودخلت امرأة شبه ملثمة ، وقالت :

— « لا بد أن أشارككم في هذا الاجتماع الخطر... ان اليهود اكتووا بنار المذلة والعذاب ، رجالا ونساء ، وشيباً وشباناً ... »

انتفض سلام بن مشكم واقفاً ، وصاح :

— « لا مكان للنساء هنا يا زينب بنت الحارث ، وعندما يعجز الرجال عن تدارك الخطر الداهم ، او ينوؤن بثقل المسئولية ، فلتحضر النساء ... »

لكنها لم تبد اهتماماً يذكر باعتراض زوجها سلام بن مشكم ، وجلست في مكان قصي وهي تقول :

— « بل سأبقى مهما كان الامر ... »

فتدخل عبد الله بن أبي قائلا :

— « دعوها ، فليس في حضورها من بأس ... »

وعاد الرجال إلى حديثهم الهام ، وقال كنانة :

— « ان الامر أعقد مما كنت اتصور ، لم يتبادر إلى ذهني سوى ان قريشاً ستشهر

سيوفها في وجه محمد، وترده جريحاً مهزوماً، لكنني أعتقد الآن يا عبد الله انك قد اصبت كبد الحقيقة ... »

وقال سلام بن مشكم :

— « ان محمداً في معاركه كان يلجأ دائماً إلى موقع حصين يحميه، او جبل يستند اليه، او حيلة بارعة يضرب بها خصمه، أما أن يدفع برجاله بعيداً عن المدينة، دون ان يكون لديه السلاح الكافي او العدد الكافي من الرجال، فهذا أمر غريب غاية الغرابة ... انني بدأت أشك في أن خيانة كبرى سترتكب داخل مكّة ... إن ابا سفيان وزعماء مكة سيغربون من الخلف، والا فكيف تتصورون أن محمداً يواجه مكة بأسرها بهذه الحفنة من الرجال ؟ ؟ »

عاد عبد الله يبتسم من جديد ويقول :

— « ليس لدي ما أضيفه، لقد قلت ما اعتقد أنه عين الصواب، والاحتمالات التّي أمامنا هي : اما ان تسمح قريش له بزيارة البيت الحرام، وهذا قد يؤدي إلى تخفيف حدة العداء القائم بينهما، واما ان يعود محمد بخفي حنين، ومن ثم لا تكاد تمر فتّرة قصيرة الا ويهب محمد لفتح الطريق إلى الكعبة عنوة، ويحتدم القتال من جديد، وأمام هذه الظروف لا بد من السير في طريق الشهيد السيء الحظ حيي بن أخطب... »

قالت زينب زوجة سلام بن مشكم سيدة قومها :

— « أو تعتقد يا ابن أبي ان في الامكان حشد غطفان وقريش والاحزاب من جديد، بعد الفشل الذريع الذي منينا به ؟ ؟ »

قال عبد الله :

— « ولم لا يا بنت الحارث؟ ؟ ان نار الحقد ضد محمد لم تزل محتدمة الاوار في قلوب الرجال، بل ان الفشل قد زادها اشتعالا... »

قالت زينب دون أن ترفع النقاب عن وجهها، ودون ان يدرك احد ما يرتسم على وجهها من انفعالات حاقدة :

— « ان أقصر طريق هو قتل محمد ... »

قال عبد الله بن أبي :

— « هذا ما فكرنا فيه قبل ذلك ... حاولت ذلك بنو النضير، ولكن عمرو بن جحاش فشل، وانزلوا به العقاب الرادع ... وقتلوه ... »

قالت زينب :

— « ان الفشل مرة لا يعني التوقف عن المحاولة ... »

وقامت ضجة تحتج على رأيها الساذج، فلوح عبد الله بيده قائلا :

— « دعوها، ما التقينا هنا يا حلفائي المخلصين الا لنتداول الرأي ونقلبه على جميع جوانبه ، ولن نخسر شيئاً ... »

وعادت زينب تقول :

— « لم لا تبعثون اليه برجل يعلن إسلامه، ثم يدس له السم في الطعام أو امرأة ؟ ؟ فان نجح رسولنا فقد اغنانا السم عن جيش بأسره، وان فشل فلن نخسر الا واحدا ... »

قال عبد الله في هدوء :

— « انها فكرة طيبة، لكن لا يصح الاعتماد عليها كلية ... فلتسر هذه الخطة إلى جانب الخطة الكبرى... اعني محاولة حشد أعداء محمد مرة أخرى في صعيد واحد ... »

قال كنانة بن الربيع :

— « ايها الصديق الوفي عبد الله بن أبي، لقد عاشرناك من قديم، وراقبنا سلوكك ابان الصراع الدامي مع محمد، فلم نجد فيك الا الوفاء والمروءة، ولن ننسى فضلك يوم أن انقذتنا سيوف محمد في حصار « بني النضير » ... نعم الأخ أنت! ! ! انك مثال رجل المبدأ والعقيدة، لا تحيد عن فكرك قيد أنملة، وتحملت في سبيل ذلك ما تحملت... وان رجالا هذا شأنهم لواصلون إلى النصر مهما كانت التضحيات، ومهما طال الزمن ... وأمام هذا الود القائم فانني أزف اليك بشرى سوف يطرب لها قلبك، وتطيب بها نفسك ... ان غطفان قد وافقت مبدئياً على أن يضمنا واياهم حلف وثيق كي ننهض لحرب محمد، ونحن الآن في طور الإعداد والتجهيز، وعندما يأتي الموعد المضروب فسترى بعينيك مصارع الأعداء ... عند ذاك تجف الدموع على شهداء قريظة، ويعود الحق إلى نصابه ... و يعود إليك حقك وتاجك المسلوب... »

وسادت فترة صمت، قال سلام بن مشكم بعدها .

— « غير ان مباحثاتنا مع قريش لم تصل إلى نتيجة بعد ... »

ابتسم عبد الله في دهاء وقال :

— « أو تظنون أن أمر حديثكم مع غطفان يخفي عليّ ... لقد مهدت لذلك ما استطعت

وبعثت برجالي إلى هناك، ثم ان ثقتي الكبرى ما زالت تعول على قريش هي الاخرى... »
والتفت إلى زينب قائلا :

— « ويجب ألا ننس وجهة نظر زينب، فان طعنة في الظلام، أو لقمة سائغة محشوة بالسم قد تمهد السبيل لزحف شامل لتطهير الأرض من سلطان محمد ... »

قالت زينب في حماس :

— « لا فض فوك ... نحن النساء نقدم جواهرنا ومالنا وكل ما نملك حتى لا نصبح يوماً من الايام في عداد السبايا ... انني كلما تصورت ايها الرجال انه قد يجري علينا ما جرى على قينقاع وقريظة والنضير ... وقد تصبح زينب بنت الحارث زوجة بن مشكم، وصفية بنت حيي زوجة كنانة ضمن السبايا ... كلما تذكرت ذلك دارت بي الارض... واصبح مذاق الحياة في فمي كالعلقم ... وأية حياة يحلو مذاقها بعد ذلك ؟ ؟. فالبدار... البدار أيها الرجال قبل ان نجثو على أقدام محمد، ونعفر جباهنا العالية بتراب نعليه ... وقبل ان يصبح نساؤكم إماءً لزوجات محمد، وخادمات للانصار والمهاجرين ... »

وابتلعت ريقها ثم قالت :

— « لم تعد المسألة مسألة صراع بين دينين فحسب، بل هي مسألة الكرامة قبل كل شيء ... فذودوا عن نسائكم وكرامتكم ولو تخضبت الارض بدمائكم جميعاً، فلا قيمة للحياة مع الذل والهوان ... »

شعر عبد الله بن أبي بما يشبه الدوار، أين زينب الشجاعة من زوجه الغادرة التي استعبدتها كلمات محمد وقهرتها، فوقفت تتحداه في تبجح، وتنال من أفكاره الرائعة ؟ ؟

وتمتم عبد الله وهو يرمق زينب بنظرات الاعجاب :

— « نعم الزوجة أنتِ ! ! »

الفصل السابع

تطلع من كوة صغيرة في جدار بيته، ورمى الموكب الكبير بنظرة حاقدة، وجوه الرجال تفيض بشراً وحيوية، وبريق نظراتهم، ووميض ابتساماتهم أبهر وأغنى من ضوء الشمس المشرقة التي تملأ جنبات يثرب، وأصوات التكبير والتهليل تعلو على ما عداها... والأطفال يترنمون بالأغاني... وفي المقدمة يمضي محمد رسول الله راكباً ناقته «القصواء» وبقي عبد الله بن أبي في مكانه، ينظر من خلال الكوة، ومئات الأفكار تعصف في رأسه المتعب المشحون بالضيق والضجر، وتمتم في أسى :

ـ «محمد ورجاله يسيرون... ويسيرون... أقدامهم لا تعرف الكلل، وأجسادهم الضامرة لا تمل الحركة، وآمالهم لا نهاية لها... يعبرون التلال، ويضربون في الأودية، ويعانون من الجوع والحر أو القر، ويموتون... لكنهم أبداً سائرون... كيف يمكن وقف هذا السيل الجارف؟؟»

ورأى أحد الرجال وجه عبد الله خلف الكوّة، وهتف :

ـ «لماذا لم تذهب معهم يا أبا عبد الله؟؟ الا تريد زيارة بيت الله الحرام؟؟»

حدجه عبد الله بنظرة شرسة، وقال ساخراً :

ـ «الحقيقة انني لا أكاد أفهم شيئاً... بالأمس كان بيت المقدس قبلتهم، واليوم الكعبة قبلتهم... وعلى الرغم من أن ديننا يختلف عن أديان العرب جميعاً إلا أننا نقلدهم في زيارة البيت وتقديسه... اصبح البيت مثابة المسلمين وغير المسلمين...»

قال الرجل :

ـ «ماذا جرى لك يا عبد الله؟؟ إن هو إلا وحي يوحى... والبيت بناه ابونا ابراهيم. وقداسته تمتد لسنين طويلة...»

اكفهر وجه عبد الله وصاح :

ـ «أهي زيارة أم حرب؟؟»

ـ «ماذا؟ إنها زيارة بالتأكيد... والسيوف في الأغماد يا عبد الله...»

— « قريش ترفض ذلك ... »

— « ومحمد له الحق في الزيارة ... »

قال عبد الله :

— « وبين حق محمد، ورفض قريش تنتصب السيوف، وتوشك الدماء ان تسيل ... »

— « ألهذا رفضت المسير، وخالفت أمر الرسول ؟ ؟ »

— « ان احترامي للرسول لا يجعلني احتقر تفكيري ... »

— « لكنه امر الله يا عبد الله ... »

— « انصرف عني ... فما بي رغبة لهذه اللجاجة ... »

وفي مكة تواترات الأنباء عن خروج محمد لزيارة البيت، وامتلأت أنديتها بالجدل الحاد، واضطربت الآراء، وما جت الخلافات، قالت هند زوجة أبي سفيان :

— « لن يمر المسلمون إلا على جثتي ... ماذا جرى ؟ ؟ إنه العار والشنار اذا دخل محمد مكة عنوة ... ولسوف تسخر العرب من قريش وترميها بالجبن والوهن ... »

وقال عكرمة بن أبي جهل :

— « كيف نرى اولئك الذين قتلوا آباءنا واخوتنا وأبناءنا يوم « بدر » ثم ندعهم يودون الشعائر في البيت العتيق ؟ ؟ الموت ولا هذا ؟ ؟ »

وقال وحشي بن حرب قاتل حمزة :

— « هل فيكم من يؤكد لي أن محمدا لن ينوي غدراً ؟ ؟ ماذا لو فتحنا له أبواب مكة، ثم انقض علينا برجاله ؟ ؟ ألا يجوز أن يكون وراءه جيش عرمرم يختفي في الصحارى والجبال ينتظر اللحظة الحاسمة كي يستولي على مكة ؟ ؟... وهنا ... بين أظهرنا مسلمون أخفياء ... ألا يصح أن يكون بينه وبينهم تواطوء من نوع خطر ... »

وهز ابو سفيان رأسه في حيرة :

— « لا أدري ماذا أقول، إن لجميع العرب الحق في زيارة البيت، وتقاليدنا لم تخرج عن هذا منذ أمد طويل ... »

فصاحوا بصوت واحد :

— « لن يدخل محمد مكة عنوة... »

قال أبو سفيان وقد تفصد جبينه عرقاً :

— « أجل ... لن يدخلها عنوة ... »

وتراكض الرجال نحو الخيول والسيوف، وأعدوا جيشاً لملاقاة محمد قبل ان يبلغ مكة .. وعلى رأس الجيش خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل ...

•

أما محمد ورجاله فقد تابعوا المسير ... وتمتم عمر : « هذا يوم شديد هوله، حاسم أثره، فان رجعنا دون ان نبلغ ما نريد فقد لحقنا ألم كبير، وتحدثت بذلك الأعداء، وأرى أن رؤوس العناد في مكة لن يفتحوا لنا الطريق ... ونحن لن ننكص عن حق لنا قررته شريعة العرب ولو كان فيه حتفنا ... »

وبلغ موكب المسلمين « عسفان »، فأتى رجل من الصحابة الرسول أن مسافراً قادماً من مكة قد أتى لعله يحمل أنباء ذات فائدة، فأسرع اليه الرسول، يسأله عما لديه من أخبار، قال المسافر :

— « قد سمعت قريش بمسيرك فخرجوا، وقد لبسوا جلد النمور، ونزلوا « بذي طوى » يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى «كراع الغميم ... »

وشعر الرسول بألم بالغ، وبدا التأثر على وجهه الكريم، ان قريشاً تأبى الا أن تركب وتسدر في غيها، وتمنع حقاً قررته العرب طوال القرون ... فقال الرسول :

— « يا ويح قريش !! لقد أهلكتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فان هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن اظهرني الله عليهم، دخلوا الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش ؟ ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به، حتى يظهره الله، او تنفرد هذه السالفة[1] » وهاجت مشاعر المسلمين من حوله، اذا كانت قريش بها العناد لدرجة الصد عن بيت الله والعبث بشريعة الآباء والأجداد، وارتكاب الحماقات، فماذا يفعل المسلمون ؟ ؟ أيرضخون للعسف، ويرضون بالدنية، ويعودون مقهورين صاغرين ؟؟ وماذا يفعل محمد ؟؟ انه لم يخرج محارباً، وإنما خرج محرماً، أيتصدى لجيش المشركين، ويحيل زيارة البيت إلى معركة ودماء ؟ ؟ أيعرض رجاله للخطر ؟ ؟ ماذا لو انتصرت قريش ؟ ؟ لا شك انها ستجعل من ذلك يوم فخار وأشعار، وستملأ الجزيرة ضجيجاً وأكاذيب...

---

(١) حتى الموت .

وبينما كان الرسول والمسلمون في غمرة أفكارهم ، اذ قدم رجل من الطلائع المنبثة حول معسكر الرسول، وقال وهو يلهث :

— « يا رسول الله ... ان قوات العدو على مرمى البصر، وهي في الطريق الينا ... »

وصمت الرسول مفكرا، بينما هتف احد المسلمين :

— « لقد فرضوا علينا المعركة ... لا بد من الحرب ... »

وتلفت الرسول حواليه، فأصاخوا السمع، وتركزت نظرات المسلمين على شفتيه، لسوف تلامس آذانهم كلماته الحاسمة، وأخيراً سمعوه يقول :

— « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ ؟ »

وانصاع الجميع لرأي الرسول، لكن هذا الانصياع لم يكن يعني ان الجميع على نفس المستوى، لقد تهامس احدهم قائلا : — « أنهرب من ملاقاتهم ؟ ؟

لقد أرادوها حرباً وبدأوا بالعدوان، فلماذا لا نتصدى لهم ؟ فرد عليه آخر :
— « الرأي ما رأى الرسول ... إن تصرفات الأعداء الخاطئة لن تجرنا إلى الخطأ ...

لقد خرجنا محرمين لا محاربين... ولسوف نحافظ على معنى السلام ... لكي نعطي للجميع دليلا قوياً على صدق نوايانا، واحترامنا للشهر الحرام والبيت الحرام... »

وخرج من بين المسلمين رجل يرشدهم إلى طريق اخر كي يتجنبوا الصدام، كان الطريق الجديد وعراً شاقاً مضنياً، قاسي فيه المسلمون الأمرين من الظمأ والحر والإرهاق، حتى غمغم احدهم قائلا :

— « هل يُتَـصَوّر أن تكون المعركة التي تجنبناها اقسى من هذا الطريق ؟ ؟ »

ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت « القصواء » ناقة الرسول، وظن الناس ان التعب قد نالها، غير ان الرسول قال :

— « انما حبسها حابس « الفيل » عن مكة ... لا تدعوني قريش إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ... »

وبات واضحاً ان الرسول يرفض الحرب، ويتمنى ان تثوب قريش إلى رشدها، وتعتصم الهدوء، والتعقل . وتقدم حلا معقولا، يضع حداً للخطر المحدق ... وفي نفس الوقت أدرك خالد بن الوليد ان المسلمين قد سلكوا طريقاً آخر صوب مكة، فقال في حيرة :

— « ماذا جرى يا عكرمة ؟ ؟ أتراهم يهربون منا أم أنها خطة بارعة لبلوغ مكة والاستيلاء عليها ؟ ؟ »

قال عكرمة وقد انتفض جسده حنقاً :

— « انهم لا شك ينوون شراً ... وما اظنهم الآن إلا على أبواب مكة ... »

— « ما العمل ؟ ؟ أنمضي من خلفهم كي نأخذهم على غرة ؟ ؟ »

— « بل تسرع بالعودة إلى مكة كي نقف قبالتهم ... »

لكن محمداً بقي بالحديبية، وعاد خالد وعكرمة وقواتهما إلى مكة، الجميع يتحدثون عن مسلك محمد واصراره على السلم، ورفضه للدخول في معركة، وإعلانه أنه ما جاء إلا محْرِما ... واظهاره للهدى التي ستذبح تأدية للشعائر... وفكرت مكة، قال أبو سفيان :

— « الحرب ليست في صالحنا ولا في صالح المسلمين، وليس هناك داع لها، والكثيرون من الناس يرون أن من حق أي عربي زيارة البيت العتيق ...

زمجرت هند قائلة :

— « هل تعني ان يدخل محمد مكة زائراً ؟ ؟ »

لوح بسبابته قائلا :

— « لا... لن يدخلها عنوة ... »

لكن غلاة الحاقدين والمتحمسين أرادوا شيئاً آخر، لقد تجمع أكثر من خمسين محارباً، وانقضوا على معسكر المسلمين كي يخرجوا المسلمين عن خطتهم في السلم، ويجروا الطرفين إلى معركة رهيبة ...

لكن الرسول لم تغفل له عين، لقد اصدر اوامره بان يُمْسك بالمهاجمين وان يؤخذوا أسرى دون أن يمس أحدهم بأذى، وقال رجل من المسلمين :

— « اضربوا اعناقهم ... انهم معتدون ويريدون قتلنا ... »

لكن الرسول أمر أن يُطلق سراحهم، ويعادوا إلى مكة ... ودهش رجالات مكة لصنيع محمد بل وأخذ حلفاء قريش ينفضون عنها، ويرون أن المسلمين أصحاب حق في الزيارة، وأن قريش هي التي تتعنت، وتمد في حبل العناد والمكابرة ... وأخيراً أرسلت قريش رسلها الواحد تلو الآخر للتفاهم مع محمد ...

ولم يجد الرسول بدا في النهاية من أن يبعث بعثمان بن عفان إلى مكة للتفاوض لما له من حظوة وصلة رحم، غير أن عثمان طالت غيبته، وانطلقت انباء تقول أن قريشاً قد قتلت عثمان ... توترت الأعصاب، وهاجت المشاعر، كيف يقتلون رسولاً بعثه رسول الله، إن

قتل رجل كعثمان خطيئة كبرى، وأمر لا يمكن السكوت عليه، قد يكون فعلها أحد أولئك الحاقدين الذين يرفضون أن تمضي الأمور بسلام، واحد من أولئك الذين حاولوا تعكير الصفو، وانقضوا على معسكر المسلمين بجرهم إلى معركة، ويبدو أن هؤلاء الماكرين قد نجحوا في خطتهم الشيطانية أخيراً ... أيُقتَل عثمان في شهر حرام، وفي حرمة البيت الحرام؟ ؟ » .

وهتف الرسول في أسى بالغ :

— « لا نبرح حتى نناجز القوم ... »

ودعا أصحابه إليه، وقد وقف تحت شجرة في هذا الوادي، فبايعوه جمعا على ألا يفروا حتى الموت ...

واهتزت السيوف في أغمادها، وصدرت صيحات التكبير والتهليل ... الجهاد ... حتى الموت ... لكن عثمان يعود سالماً، ويطرح القضية أمام الرسول ... إن قريشاً أقسمت ألا يدخل المسلمون مكة عامهم هذا، حتى لا يُشاع بين العرب أن المسلمين قد دخلوها عنوة، وأن قريش ترغب في عقد معاهدة مع محمد ...

واخيراً جاء رسول قريش لإقرار الاتفاق

« باسمك اللهم »

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ... »

وعقدت هدنة مدتّها عامان، واتفق على أن من جاء محمد مسلماً بغير إذن وليّه رده محمد عليهم، ومن جاء قريش من رجال محمد مرتداً لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا، على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه . فيدخلوها ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح السيوف في قربها، ولا سلاح غيرها ...

وثارت ثائرة عمر بن الخطاب، وهدر :

— « كيف نرد إليهم رجلاً جاء مسلماً، ولا يردون إلينا من ارتد ... »

هز أبو بكر رأسه في ثقة قائلا :

— « أما من ارتد، وعاد إلى الكفر والجاهلية، فلسنا بحاجة إليه ،

— « والأخرى؟ ؟ »

— « واعادة المسلم الفار إليهم ؟ ؟ علم ذلك عند الله ... وستثبت الأيام صدقَ الرسول ... »

أمسك عمر بيد ابي بكر وقال :

— « يا أبا بكر ... أليس برسول الله ؟ ؟ »

— « بلى يا عمر ... »

— « أو لسنا بالمسلمين ؟ ؟ »

— « بلى »

قال عمر في ضيق :

— « فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ؟ »

— « يا عمر الزم غرزك، فإني أشهد أنه رسول الله ... »

فهرول عمر إلى الرسول، وقال وقد احتقن وجهه غضباً :

— « أو لست برسول الله ؟ ؟ أولسنا بالمسلمين ؟ ؟ فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ؟ »

ابتسم الرسول في ثقة وإيمان وقال :

— « أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني ... »

وعاد الركب إلى المدينة ...

آه ...

ان عبد الله بن ابي يقف خلف كوته ... وينظر، ويقهقه ساخراً :

— « ها قد عادوا يا امرأة ... عادوا دون أن يحققوا هدفهم ... ردتهم قريش خائبين... لم يجسروا على فتح الطريق بسيوفهم ... أليس هذا ألعن من الهزيمة ؟ ؟ »

قالت زوجه فيما يشبه الحزن :

— « لسوف يذهبون في العام القادم ... لقد علمتنا الأحداث أن محمدا يعني ما يفعل ... ويعني ما يقول ... »

فعاد عبد الله يقهقه ساخراً ويقول : « وفي العام القادم ستجد أحداث... وأحداث... »

الفصل الثامن

قالت زينب بنت الحارث لزوجها سلام بن مشكم :

— « ما استشعرت العجز في حياتي كما استشعره الآن »

قال زوجها :

— « ويحك يا امرأة ! ! هذا كلام لا تقوله زوجة سلام، فأنا فارس خيبر، وقائد جندها ... وأنا أملك القوة والمال والسلطان ... واليهود ورائي... ماذا بعد ذلك ؟ ؟ »

قالت :

— « كل هذا ليس له أدنى قيمة ما دام محمد على ظهر الارض ... »

— « أو تسمين التأني والصبر عجزاً ؟ ؟ »

— « بل جبنا رخيصا ... »

قهقه في ثقة وقال :

— « النساء متعجلات عاطفيات ... »

— « أريد أن أشرب من دمه، وألوك كبده ... كما فعلت هند بحمزة بن عبد المطلب.

— « ولم تستبعدين ذلك ؟ ؟ »

شردت بنظراتها الحانقة إلى بعيد وقالت :

— « لقد فاوضته مكة مفاوضة الند للند ... وهذا كسب كبير حققه محمد ... واتفقوا على هدنة طويلة ... »

ثم التفتت إلى زوجها قائلة في حدة :

— « أتدري معنى هذه الهدنة ؟ ؟ »

— « أعرف ... لكي يتفرغ لنا ... »

— « فماذا تنتظرون إذن ؟ ؟ »

— « كلما زاد انتشاء محمد بالنصر، واتسع نفوذه، ازدادت المخاطر إحاطةً به ... أتفهمين ؟ ؟ الانتصارات الصغيرة لا تلفت النظر ... أما الآن وقد علا نجم محمد، وازداد المؤمنون به، فمعنى ذلك الإسراع في النهوض اليه ، والقضاء عليه قضاء تاماً... تتساءلين كيف ؟ ؟ لقد جرت بيننا وبين الروم اتصالات واتصالات ... « وهرقل » أخذ يقتنع بخطورته على دينه وعلى ملكه ... إن هرقل لا يطمع في هذه الجزيرة الجرداء، فهي فقيرة مقفرة ... لكن عندما يدرك ان خطراً يتهدده فلن يتوانى لحظة عن حشد جزء من جيشه لدفن محمد ودعوته في تلك الأرض القاسية ... إن أمراً كهذا لا يعرفه محمد ولا يفكر فيه ... وجنود الرومان لديهم القوة والمنعة ورصيد لا ينفذ من الرجال والمؤن والذخائر. قد يحتاج الأمر لبعض الوقت ... ولا بأس من الانتظار ... »

قالت زينب في فرح غامر :

— « أحق ما تقول ؟ ؟ »

— « تلك آخر جولة نقوم بها، ولا يصح أن نتردى في الخطأ الذي تردى فيه بنو قريظة وبنو النضير... وغطفان ... غطفان ستأتي يا امرأة ... ومكة أيضاً لن تتوانى عن نقض معاهدتها عندما يجد الجد لتشفي احقادها وتأخذ بثأرها ... »

نظرت إلى السماء بوجه مشرق، وعينين ضاحكتين، وهمست :

— « يا لها من رؤيا جميلة ... الرومان ... جنود بني الأصفر ... صناديد خيبر ... آساد غطفان ... ها ... ها ... ها ... لسوف يفر المسلمون أمام هؤلاء كالفئران المذعورة »

واتسع فمها عن ابتسامة خبيثة وقالت :

— « وكل ما أطلبه منك يا زوجي العزيز... أن تختار لي واحدة من زوجات محمد ضمن سباياك ... ولتكن عائشة بنت « أبي بكر » ... ها ها ها ... أم المؤمنين ... سيكون شيئاً رائعاً أن تقوم على خدمتي زوجة نبي... لقد وعد كنانة بن الربيع زوجته « صفية » بأن يهديها غداة النصر رأس محمد ... حسنا ... لن تستمتع صفية بذلك غير وقت قصير ... أما أنا فسيحلو لي إذلال عائشة أبد الدهر ... عندئذ يُشفى غليلي ... وتهدأ روحي... ويموت شعور العجز القاتل الذي يعبث بأمني وهنائي ... »

وظلت زينب تثرثر بينما استغرق زوجها في تفكير عميق، وأخذت تقول :

— « إلى الآن لا أكاد أصدق ما يجري؟ ؟ هؤلاء العرب أمرهم جد عجيب ... لقد كانوا دائماً ضحايا الفوضى والجهل والغرور... يغامرون في حماقة ... يقيمون المعارك

لأتفه الأسباب، لا يربطهم معنى كبير، ولا ينسقهم تنظيم محكم ... ويتغنون بأيامهم التافهة ... آلاف يموتون من أجل ناقة ... أو هجاء ببيت من الشعر... أو من أجل عرض امرأة ... ونحن نسخر ونحرض، ونجني من وراء حماقاتهم الثمار اليانعة والمال والمجد والسلطان ... ماذا جرى ؟ ؟ »

لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن يتوحد هؤلاء، وأن ينصاعوا لشرائع وتقاليد جديدة تنظم الزواج والإرث والعلاقات العامة ... ويكون لهم مبادىء يؤمنون بها ... مبادىء كبرى يتفانون في سبيلها ... واليوم أرى محمدا وحوله طرازاً غريباً من الناس ... لا غرور. لا فوضى... لا تهور ... ويفكرون ويخططون، وينتصرون على تدابير اليهود وذكائهم الخارق ... إنني لا أكاد أجد تفسيراً لذلك ... أتستطيع انت أن تشرح لي الأمر يا سلام بن مشكم ؟ ؟ »

قال : هه ... ماذا ؟ ؟

— « انك في واد آخر ... »

— « اعرف ... أعدك بأن تكون عائشة ضمن سباياك ... »

وشردت بضع لحظات ثم قالت :

— « عندي فكرة ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « لن توافق عليها ... »

— « اشرحي لي الأمر أولا... »

— « حسناً يا سلام ... إنني امرأة ... امرأة حاقدة ... وأفكاري قد تبدو مغرقة في الخيال، والحماقة أحياناً ... ليكن ... لن أخسر شيئاً اذا عرضت عليك خطتي ... ماذا يقول الناس عني لو فررت من زوجي، وغادرت خيبر خفية، وامتلأت خيبر بالأراجيف والشائعات ... »

قال في دهشة :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « صبراً يا سلام ... سيكون لذلك دوي هائل ... زوجة فارس خيبر وقائدها الهمام هربت إلى المدينة، وقصدت محمداً رسول الله لتعتنق الإسلام ... »

هتف مستغرباً :

— « الإسلام ؟ ؟ »

— « أجل ... لقد مال إليه قلبي، وهداني الله، فتركت ورائي المال والولد والزوج، والدنيا بأسرها، وانطلقت إلى الله ... إلى طريق الحق ... إن حدثاً كهذا سوف يهز المدينة هزّاً عنيفاً ... لسوف أدخل يثرب في موكب رائع ... والتهليلات والتكبيرات تشق عنان السماء ... ومحمد يبسم لي، ويدعو لي بالتوفيق والسعادة ... وقد يتزوجني ... »
توترت أعصاب سلام، وشحب وجهه، وانتفض واقفاً وهو يزمجر :

— « بماذا تهذين يا بنت الحارث؟ ؟ إنها دعابة سخيفة ... »

واخذت زينب تقهقه حتى كادت تستلقي على ظهرها من الضحك، واخذت تقول وهي تجفف بللا أصاب عينيها من شدة الضحك :

— « أتغار؟ ؟ »

— « بل أخاف على عقلك من التلف ... تارة تريدين عائشة ضمن السبايا، وتارة أخرى تريدين أن تعتنقي الإسلام ... »

وبدا الجد على وجهها، ثم قالت :

— « ولسوف يحوطني محمد وصحابته بالإجلال والإكبار، إنهم يفرحون بمن أتى مسلماً أكثر من فرحتهم بحيازة كنوز الدنيا ... وأؤكد لك أن محمداً سوف يتزوجني ... فسأكون وحيدة مسكينة ... مضحية بكل شيء ... وقد يقتلني اليهود ... لا بد انه سيتزوجني أو على الأقل يقربني منه ... وفي هذا الوقت أستطيع أن أدس له السم، أو أجهز عليه بخنجري .. »

زايلة توتره وابتسم ...

ورماها بنظرة متعالية، وتمتم :

— « لسنا في حاجة لهذا الشقاء كله، إن خيبر وحدها قادرة على سحق محمد وجنده ... ليس هناك بشر معصوم من الهزيمة ... الأنبياء أحياناً يهزمون بل ويقتلون ... القوة الماكرة تستطيع أن تغير وجه الأرض ... استمعي إليّ جيداً ... أنا لا أعرف شيئاً اسمه المسلّمات وليس هناك قيم ثابتة ... حتى في ديننا، ولعل سر نجاحنا ... اننا نتغير ونغير نصوص ديننا مع الزمن ... »

قالت في ضيق :

— « أكاد لا أفهم شيئاً مما تقول، حسبتك ستطرب لفكرتي ... »

— « فكرتك رائعة ... لكن ليس هذا وقتها ... أنسب وقت لها يوم ان تندحر قوانا، ونعجز عن هدم الكيان الإسلامي ... عندئذ نتحول إلى سوس ... أجل ... سوس ينخر في ذلك الكيان حتى ينقض على أهله ... لن نستسلم أو نموت... وأمامنا الأبد ممتد حتى نهاية الزمان ... وما لا نحققه غداً ... »

زمجرت في حدة :

— « لا أجد من يفهمني... ما أتعسني ! ! لسوف أتصرف في النهاية وحدي... »

— « لو فعلت شيئاً من ذلك دون موافقتي لسحقت رأسك هذه ... »
ورماها بنظرة حادة مخيفة ...

فتساقطت الدموع من عينيها وهي تقول :

« محمد أزال دولتنا ... وقتل الأحبة من قومنا ... وعرّى نوايانا، وأفسد مخططاتنا ...

أهناك عار أبشع من هذا العار ؟ ؟ »

قال سلام في ضيق :

— « هذا كلام ممل ... اسمعه للمرة الألف... فلتتركي الرجال يقومون بواجبهم... »

— « دائماً تصغـّر من شأني ... وتسفه من آرائي ... »

— « لأن حقدك يعميك عن التبصر والتأني وإدراك الحقائق ... »

وفجأة صمتت ...

لقد وثبت إلى ذهنها صورته ...

واحد من العبيد في منزل زوجها ... هادئ ... أسود السحنة ... يرمقها دائماً بنظرات صارمة قوية ... يمتزج فيها الاشتهاء بالعنف والصمت الصاخب ... إنها تخافه، وتفهمه أيضاً ... « فهد » ... أجل فهد ... لماذا لا تتكرر قصة وحشي قاتل حمزة، وهند بنت عتبة ... بأي ثمن ... »

الفصل التاسع

— « فهد ... أيها التعس المسكين... لتذهب إلى البستان وتحضر لي بعض الفاكهة ... »
النظرات القوية الصارمة تنبعث من عينيه ، وعوده السمهري ينتصب في إباء وشمم يتنافى مع خضوع العبيد، وصمته المريب يثيرها ، ويبعث الرجفة في جسدها ... ويحضر « فهد » الفاكهة، ويضعها أمامها في صمت وينصرف ...

— « فهد ... أيها الفتى الطيب... انك جدير بكل إعزاز وتكريم ... حسناً ... فلتذهب وتستدعي لي تاجر الذهب... إنني أريد سواراً رائعاً ... »

وأخذت الإماء يتبادلن النظرات الحائرة، ماذا جرى لمولاتنا ؟؟ إنها لا تدعو إلا فهداً ولا تتحدث إلا عنه، تكيل له الثناء، لم يعد يبقى سوى أن تطلب منه أن يجهز لها حمامها وثيابها الحريرية ...

— « فهد ... إنك وقعت في أسر العبودية ظلماً ، ما أكثر العبيد الذين يفوقون السادة سمتاً وعقلاً وهيبة ... »

قالت زينب هذه الكلمات ، وسرعان ما رقت نظرات « فهد »، وبدا الخجل على وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع ، وطأطأ رأسه في حزن، وهو يقول :

— « أتسخرين مني يا مولاتي ؟ ؟ »

— « لو كنت اصنع أقدار الناس لجعلت منك سيداً يُشار إليه بالبنان ... »

— « لكنه قدري يا مولاتي ... »

صرخت في حدة :

— « أيها العاجز ... »

رفع اليها عينين دهشتين وقال :

— « وماذا أفعل ؟ ؟ »

ضحكت في خلاعة وقالت :

— « تحلم بالحرية ... »

— « الاحلام تزيدني حزناً وتعاسة ... »

— « فلتصنع لك عالماً من الخيال ... تصور نفسك سيداً مهاباً ... عش هذا الوهم ... أدمن التفكير فيه ... تصرف على أساسه ... »

ضحك في أسى وقال :

— « لو نفذت ما تقولين لكنت أنت يا مولاتي أول من يشوي جسدي بالسياط ويحرقني بالنار ... »

قالت في انفعال :

— « أنت إنسان يا فهد ... »

— « لكن لم يكن لي في الأمر حيلة ... حتى اسمي غيرتموه أكثر من مرة ... انا لا شيء ... انتم تحزنون من أجل ناقة نفقت، أو بعير ضل ... او شاة أكلها ذئب... أما أنا ... »

— « أنت انسان ... ألم تسمع ؟ ؟ »

نظر إلى وجهها الممتلىء، وعينيها الواسعتين القلقتين، وشعرها الفاحم، و فمها الدقيق الشهي، و تمتم :

— « الحقيقة التي تملأ عالمي هي انني حرمت من نعيم الحياة كله ... الحرمان فظيع ... فظيع... حتى مجرد التعبير عما في قلبي لا أجرؤ على الجهر به ... أتدركين ذلك ؟ ؟ مستحيل ... انك لم تجربي هذا العناء القاسي ... »

قالت وشفتها ترتجف :

— « تكلم ... قل ما تشاء ... أريد أن أعرف ما يعتمل في قلبك ... »

— « انه الموت... »

— « أعدك بشرفي... »

— « ألن تشي بي؟ ؟ »

— « لقد وعدتك ... بشرفي ... »

ودار بنظراته في جنبات الحجرة ، ثم عاد وركز نظراته القوية الصارمة على عينيها وقال في هدوء والعرق يتفصد من جبينه الأسمر :

— « انني أحبك ... »

انتفضت ... وتصنعت الدهشة ... واخذت تعض على شفتيها، وصرخت :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « كنت واثقاً من ذلك ... السياط و النار ... بل الموت ... لاني عبد ... ولأنك زوجة سلام بن مشكم ... »

هدرت :

— « ايها المنحط... القذر... »

— « أجل ... لو قالها أحد السادة لقوبلت بابتسامة ... او باكفهرار ... ولا شي غيرهما لكنها مني انحطاط ... »

— « انصرف فوراً ... »

— « انها النهاية ... ما أشد غبائي... أكان ما حدث اختباراً ؟ ؟ يا له من اختبار مميت... »

— « انصرف ايها النذل ... »

— « لكن الانصراف معناه التسليم بالموت ... إنني قادم إليك ... لسوف أقبل قدميك وحذاءك ... بل والثم التراب الذي تطأينه ... وأذرف دموع الندم ... لعلك ترحمين عبداً تعساً مثلي، وتبقين على حياتي ... »

وخطا نحوها في خشوع، وكأنه يسير في موكب جنائزي، وانحنى صوب قدميها، فأمسكت بساعده وسددت إليه نظرات شرهة، ثم تشبثت به، وضمته إليها في جنون ...

— « ماذا جرى يا مولاتي ؟ ؟ »

— « الحب لا يعرف الحواجز ... كنت أفهم نظراتك ... لطالما عذبتني ... وذهلت حينما سمعتك تتحدث عن الحب ... ذهلت وسعدت في نفس الوقت ... احببتك واحتقرتك ... »

قال وجسده ينتفض كله:

— « كيف ؟ ؟ »

— « حسبتك تتحدث عن الحرية ... »

— « حبك في قلبي أقوى وأعظم من كل شيء ... »

— « لم تزل عبداً رائعاً ... كلمات لم أسمعها من سلام بن مشكم طول حياتي ... كنت على استعداد لأن أهبه عمري لو قالها ... »

قال وقد تدلت ذراعاه، واضطربت انفاسه :

— « احياناً تبدو الحرية وكأنها الحب، وأحياناً هي المال ... وأحياناً اخرى تبدو نوعاً من الاطمئنان النفسي الغريب برغم القيود ... أنا لا أفهم حقيقةً ما هي الحرية ... كل ما افهمه عن الحرية هو أن اعبر عن أشواق ذاتي ... »

مرت بيدها الناعمة على لحيته الخشنة وقالت :

— « أيها الأناني ... لكم أحبك ... »

— « لا أعرف كيف أتكلم ... »

— « انت هكذا شيء جميل ... »

وفجأة وبدون مقدمات قالت :

— « أتسمع عن وحشي بن حرب ؟ ؟ »

— « من وحشي هذا ؟ ؟ »

— « فتى من عبيد مكة ... قتل حمزة عم الرسول ونال حريته ثمناً لبطولته ... »

— « أوه ... لقد سمعت عنه ... »

— « لو أردت ... لكنت مثله ... »

— « سيدتي ... انني ارغب عن مثل هذه الامور ... »

صرخت محتدة :

— « إليك عني ... انني اكره الجبناء ... »

— « ماذا أفعل ؟ ؟ »

— « يجب ان تكون حراً ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « بأي ثمن ... »

— « حبي الصامت العاجز لك شل تفكيري عن كل شيء ... لم أكن أفكر الا فيك...

النظرات التي اختلسها إليك ... كانت زاد أحلامي ... وشفاء جدب روحي ... لم يكن لدي وقت للتفكير في شيء آخر ... »

— « أريد رجلا ... »

— « وأنا ؟؟ »

— « رجلاً متمرداً حراً ... واسع الآمال ... »

— « اني رهن لمشيئتك يا مولاتي ... »

•

ومرت أيام قلائل ، عاشها فهد وكأنه يتسامى في أرض سحرية مليئة بالخضرة والزهور والينابيع الدفاقة، وزينب تعطيه بمقدار ، لا تتركه يظمأ حتى يقتله الظمأ، ولا تدعه ينهل حتى يرتوي، والعجيب في الأمر أن زينب قد طرأ عليها بعض التغيير ، لم تعد تأنس كثيراً لزوجها، بل إن أسعد أوقاتها هي الأوقات التي يقضيها خارج البيت، ولم تعد عيناها ترى من العبيد والأماء إلا فهد ... وذهلت زينب لهذه التغيرات، أيمكن أن تحب عبداً ذليلاً حقيراً كهذا ؟؟ مستحيل، لكن الحقيقة تصرخ في تحد ، انها تسعد لوجوده، وتبش لمقدمه، وتحلم أحلاماً في غاية الحماقة والانحراف ... أية كارثة حلت ؟؟؟

وذات مساء قالت له :

— « اي فهد العزيز ... ان سلام بن مشكم قد سافر اليوم إلى مكان بعيد ... لعله قصد أرض غطفان ... قد يعود بعد خمسة أيام أو أكثر ... وفي بستاننا الجميل يا فهد عش رائع، بعيد عن الأنظار ... يكفي رجلا وامرأة ... وعندما يغيب الهلال ستجدني هناك انا اكره الانتظار ... وحذار أن تهمس لاحد بشيء والا فقدت حياتك ... »

•

مرت ليلة البستان ... »

آه ... كل شيء يوشك ان يتهدم ... يا ليل العربدة المثيرة ... كل شيء تحركه الرغبات جميعهم جياع ... الويل لي لو عرف بن مشكم الحقيقة ... حسنا انني ابيع نفسي للشيطان لكي أظفر بمحمد ... وخيل إليها أن قهقهة ساخرة تنطلق من مكان بعيد ... ماذا ؟؟

أنا لا أكذب أو أخدع نفسي، لم أسلم نفسي للعبد إلا لغاية كبرى ... وتلفتت حولها في توجس ... لا أحد ... أعترف أنني كنت أشتهيه، لقد ضربت عصفورين بحجر

واحد، أطفأت ظمأي ... ودبرت الجريمة الكبرى التي ستهز العرب جميعاً ... لقد اتفقت مع « فهد » ان يذهب ليغتال محمداً ... ثم يعود ... ونهبه الحرية ... ونشترك في قتل سلام زوجي ... وبعد ذلك ... نهرب... ونتزوج ... لن أنفذ الشطر الثاني من الاتفاق ... لن اقتل زوجي ... آه ... وقضيت مع الداعر بن الداعرة في أحضان البستان ليلة لا تنسى... وامصيبتي! ! سلمت نفسي له ، وأسلم نفسه لي، وماذا في ذلك ؟ ؟ خيبر كلها تحترق بالإثم والنفاق والأكاذيب ... الخطايا تهوم فوق البساتين والدور والطرقات... الحياة رغبات ... كل ما نملك هو في خدمة الرغبات المتأججة في الصدور ... »

وارتمت زينب بنت الحارث على فراشها باكية، واخذت تشهق بصوت مسموع، وعندما تجمع حولها من بالبيت في ذعر قالت :

— « لا أريد أن أرى أحد ... »

قالت فتاة من الاماء :

— « ان مولاي قد عاد ... »

رفعت رأسها في دهشة والدموع لم تزل في عينيها :

— « كيف ؟ ؟ »

— « قطع رحلته ... بلغته انباء عن حشد كبير للمسلمين غير معلوم الوجهة ... »
ودارت بنظراتها هنا وهناك ... فرأت فهد ينزوي في ركن بعيد فصاحت في وقاحة وهي تجفف دموعها :

— « فهد ... »

— « مولاتي ... »

— « أخبر مولاك بأنني أريده على عجل ... »

فهرول مرتجف الاوصال ، شاحب الوجه، ورأسه يدور ، لا يكاد يرى شيئاً أمامه، واصطدم بقادم في الطريق، وعندما فتح عينيه جيداً صاح في رعب :

— « مولاي ... مولاتي تريدك ... »

قال سلام في هدوء :

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

ومضى في طريقه ثابت الخطى... »

الفصل العاشر

قال سلام بن مشكم لأصحابه من رجالات خيبر :

ــ « أيها الرجال ... ان الحرب واقعة بيننا وبين محمد لا محالة ، ولو آثر محمد السلم وأبدى رغبة في المهادنة ، فلن نقبل ... إن الأمور واضحة لي تمام الوضوح، فنحن المعقل الأخير لبني اسرائيل في هذه الجزيرة، ومحمد يدرك أن عداءنا له أشد من عداء قريش ... ونحن أهل كتاب لن نفرط فيه مهما كان الامر ، كلانا يتحفز للآخر، سيبطش محمد بنا إن لم نبطش به ... وأرى أن نخرج إلى « يثرب » ومعنا غطفان ويهود وادي القرى ويهود فدك وتيماء ... سيكون النصر لنا ... لقد علمت العرب أننا اقوى شأناً وبأساً، وأكثر مالا وعدة وعدداً ... »

.وكان بين الجالسين يهودي يدعى الحَجّاج بن علاط، وهو تاجر ناجح ، له تجارات واسعة في انحاء الجزيرة، وخاصة مكة، قال الحجاج :

« انني أخالفك الرأي، وليس وراء الحرب إلا الخراب واليتم والثارات التي لا تموت... ومحمد لم يغدر في عهد من عهوده قط، وأرى أن نعقد معه معاهدة صلح لا ننقضها ما حيينا، فننال السلم ، وننعم بالرخاء، ونخلي بينه وبين العرب، فإن أصابوه بلغنا ما نصبو إليه وإن اصابهم لم نخسر شيئاً ... »

قال كنانة بن الربيع وكان مشايعا لسلام بن مشكم :

ــ « السؤال الاول الذي يجب ان نطرحه هو : من الأقوى؟؟ نحن أم محمد؟؟ فان كان محمد أقوى شكيمة واستعدادا منا عقدنا معه الاتفاق، حتى تحين الفرصة للقضاء عليه وإن كنا الأقوى، انطلقنا إلى يثرب دون إبطاء وحطمنا سلطانه ودينه ... واعتقد ان القوة لنا ... هل فيكم من يخالفني الرأي؟؟ »

قال سلام :

ــ « أنا معك ... »

وقال الحجاج بن علاط :

— « ان عوامل اخرى تتدخل في الحروب ... هل نسيتم ما حدث يوم الاحزاب، كانت القوة لنا ... لكن جدت أمور وعوامل أخرى لم تكن في الحسبان، ان مقاييس القوة ليست بعدد الرجال، وكمية السلاح، وفطانة الرجال ... هناك إرادة الله ... وإرادة الرجال ... »

قال سلام :

— « ارادة رجالنا أقوى ... وإرادة الله في صفنا ... »

— « الله في صفنا ؟ ؟ »

— « أجل يا حجاج ... والا كنت ضعيف الايمان، زائغ العقيدة ... »

— « كل طرف يا سلام يعتقد أنه على حق ... »

— « لا يهمني الآخرون ... لو لم اؤمن أعمق الإيمان بديني لا تبعت محمداً ... »
وكانت غالبية الآراء في صف « سلام بن مشكم » ، واتفقوا على أن يعدوا العدة لهجوم مفاجيء ساحق على « يثرب »، وتبادلوا الوعود والمواثيق مع غطفان، أما الاستعانة بالرومان فلم يكن الوقت كافياً لتنفيذها، فالانتظار معناه تعريض « خيبر » لخطر الغزو، وعندما عاد سلام إلى زوجه، قال وهو يخلع عنه ملابسه :

— « لقد جد الجد، وسنذهب لضرب محمد في الصميم ... »

قالت في طرب :

— « وافرحتاه ! ! هذا يوم المنى ... يوم الثأر ... »

ثم اقبلت نحوه، وأمسكت بيده وقبلتها، واحتضنته في حب قائلة :

— « لكن حذار ان تضحي بنفسك يا سلام ... الحياة بدونك عذاب أبدي ... »

ابتسم في غرور :

— « سأعود اليك منتصراً، ومعي عشرة من السبايا بينهن عائشة ... »

قالت وهي تقهقه في شماتة :

— « أم المؤمنين ... »

— « أجل ... ونثأر لأحزان المساكين من بني قينقاع والنضير وقريظة ... »

وشردت بضع لحظات، وتمتمت في انفعال :

— « أتحبني يا سلام ؟ ؟ »

التفت اليها في دهشة وقال :

— « ماذا تقولين ؟ ؟ إن أمرك لحد عجيب ! ! أو تشكين في ذلك ؟ ؟ »

— « لا... ولكني أريد أن أسمع كلمة الحب تخرج من بين شفتيك ... ستكون وساماً أعلقه على قلبي ، وأتيه به فخراً بين نساء خيبر ... »

قال وهو يلقي بجسده المتعب فوق حشية بجواره :

— « الحب ليس كلمة تقال ... »

— « فماذا يكون إذن ؟ ؟ »

— « انه شيء تحسين به ولا تسمعينه ... تدركينه في اللمسات والنظرات والتصرفات ألم تفهمي ذلك طوال السنين الفائتة ؟ ؟ »

قالت في شبه غيبوبة سكرى :

— « لكن الكلمات حلوة ... إنها تلامس الأذن فتهز كيان المرأة هزّاً ... لعلها أتفه أدوات التعبير في نظرك ... لكني أراها أروع شيء ... »

قهقه في سخرية وقال :

— « ان فيك قليل من جنون وسذاجة ... »

ثم استدار اليها مرة اخرى وقال :

— « لم هذا السؤال في هذا الوقت بالذات ؟ ؟ »

— « لا أدري ... ربما لأنها أوقات عصيبة، وأنا أخاف عليك من الحرب ... إنها غادرة ... »

— أوه ... فهمت . شيء أشبه ما يكون بالوداع ... طيبي نفساً يا زوجتي ... لن أموت سأعود اليك وعلى جبيني غار النصر ... أنا القائد ... وعندما انظر إلى حصون خيبر ونخيلها وحدائقها الخضراء ... وعزيمة الرجال الأشداء وامكانياتهم الضخمة، أؤمن بأن ملكنا لن يزول ... »

خيل إليه آنذاك أنها ستندفع إليه، وتضمه إلى صدرها، وتتشبث به ، وتغرق وجهها بالقبلات، لكنها ظلت حزينة صامتة، فقال في دهشة :

— « ماذا بك ؟ ؟ »

— « لا شيء ... »

— « انني لا أفهمك ... هل أصابك سوء ؟ ؟ انت تخفين شيئاً عني ... »

قالت في ذعر :

— « ماذا ؟ ؟ لا شيء ... »

— « يبدو أن احدى العرافات قد تنبأت لك بقتلي ... لكن طيبي نفساً انني اقوى من النبوءات والزعازع ... إن سلام بن مشكم لن يموت، انه لا يعرف الخوف، ولا يرهب المستقبل ... أنا ورجالي الأمل الباقي لبني إسرائيل في هذه الأرض ... أعرف ذلك جيداً ... ولست على استعداد لأن أفهم شيئاً غيره ... »

وسادت فترة صمت قالت زينب بعدها :

— « انني أعيش المعركة بكل كياني ... »

ضحك سلام قائلا :

— « لدرجة انك فكرت في اعتناق الاسلام ، والذهاب إلى محمد لدس السم له ... »

— « لكنك ترفض ... »

— « بالتأكيد ... »

— « وأنا لم أيأس ... »

قال في اهتمام :

— « كيف ؟ ؟ يخيل الي انك انتويت تنفيذ ما تفكرين فيه، ولعل هذا هو سبب حديثك المفاجيء عن الحب... ربما فكرت في اكتشاف امرك وتعريض نفسك للقتل ... الآن فهمت ... »

قالت في هدوء وقد انفضت رأسها :

— « لا ... »

— « ماذا اذن ؟ ؟ »

— « لقد غيرت خطتي ... لسوف أرسل واحداً من العبيد لقتل محمد، وسنهبه الحرية اذا ذهب ونفذ ما نريد ... حكاية شبيهة بحكاية وحشي بن حرب قاتل حمزة ...

فهل توافق على ذلك ؟ ؟ »

هز كتفيه في شيء من الاشمئزاز :

— « انها لفكرة رائعة لو تحقق لها النجاح ... لكني لا أثق في العبيد ... »

قالت : « كيف ؟ ؟ »

قال : « انهم ضعاف النفوس، تمتلىء قلوبهم بالحقد، لا يستسيغون التضحية الكبرى من أجل سادتهم ... »

— « بل من أجل حريتهم يا سلام ... »

— « ماذا لو ذهب ذلك العبد ، وعاش إلى جوار محمد، وسحره حلو حديثه، ومعسول وعوده، وابتسامته النفاذة ... إن محمداً ساحر ، ولا تعجبي اذا جاءتك الأنباء عن خيانة العبد الذليل، واعتناقه الاسلام، وتطوعه بافشاء السر لمحمد ... »

قالت في ضيق :

— « أنت تهول في الامر ... بعض هؤلاء العبيد، قد درجوا على الوفاء والإخلاص النادرين، ربما يكون بعضهم أشد وفاء من الزوجة لزوجها ... أنا أعرف ذلك ... »

— « ومن سيقوم بذلك ؟ ؟ »

— « فهد ... »

فكر لحظة، وضيق عينيه، وقرب حاجبيه وقال :

— « ذلك الذئب الصامت ... انني لا أحبه ... حسناً ليذهب إلى الجحيم ... »

— « لا تحبه ؟ ؟ كيف ؟ ؟ انه لم يخطىء قط ... ولم يعص لك أولى أمراً ...

وقد فاتحته في الامر ... »

— « حقاً ؟ ؟ »

— « أجل ... واغدقت عليه من بري ، ووعدته بالحرية ... والفتاة التي يختارها للزواج وعدداً من الإبل والأغنام والنخيل ... »

قال دون اكتراث :

— « ليكن لك ذلك ... وحتى لو غدر ، فلن يكون سوى تابع تافه لمحمد، يمضي في ذيل الموكب، منتشياً بعطر الكلمات المعسولة التي ينثرها محمد وسط الجميع ... ولكن لا تنس ان محمدا سيهبه الحرية ايضاً ... ومضافاً اليها الجنة، تلك التي يهرع اليها المسلمون وسط النار والدم والسيوف دون خوف ... »

قالت في إصرار :

— «ونحن سنهبه الجنة ايضاً ... جنة محمد بعيدة ... دونها الموت والحقب الطويلة والغيب المجهول ... والبشر يريدون جنة قريبة عاجلة ... يريدون المال والجاه والمتعة ... جنة الحقراء ... »

قال وهو يتثاءب :

— « حسناً ... افعلي ما شئت ... »

وفي الصباح وقد انصرف سلام إلى وجهاء قومه ليعدوا العدة، ويكلموا الحشد للسير الى المعركة المرتقبة، خرجت زينب بنت الحارث من حجرة نومها فوجدت « فهداً » يقف مضطرب النظرات، مرتعد الفرائض، اقتربت منه وقالت ؛ :

— « ماذا بك ؟ ؟ »

تلفت حواليه في ذعر وقال :

— « أحد العبيد قال كلمات خبيثة ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « فهمت انه يعرف شيئاً عن علاقتنا الآثمة ... لو عرف سيدي لمزقني إربا إربا ... »

قهقهت في توتر وقالت :

— « ولو وضعني في زيت يغلي، وجلس يتسلى بمنظري البشع... »

— « ما الحل ؟ ؟ »

— « هذا أمر تافه يا فهد ... ارسل ذلك العبد إليّ فوراً ... لا مجال للإبطاء الوقت ضيق ... »

واقبل العبد الذي كشف السر متعثراً في خطاه، سددت زينب اليه نظرات قوية تبرق بريقاً مخيفاً، فأخذ جسده ينتفض من الرعب، قالت :

— « أراك مضطرباً ... اجلس عند قدمي هاتين ... ان ساقاي تؤلماني اريدك ان تدلكهما ... »

أقعى العبد، والعرق يتصبب منه، ويداه ترتجفان ...

— « أيها المسكين ... خذ هذا الماء البارد لعله يخفف من اضطرابك ... »

وشرب العبد الماء دفعة واحدة ...

— « حسن أيها التعس ... انك تكثر من الكلام الفارغ دون فائدة ... انت لا تفهم شيئاً عن الحياة ... ليكن ... فلتذهب الآن إلى الحديقة ولتحضر لي بعض الفواكه، ستجدها لدى البستاني ... »

وقف الرجل مبهور الأنفاس، فصرخت به في حدة :

— « اذهب ولا تبطىء ... »

وما ان انصرف حتى اطلقت ضحكة شيطانية عالية ...

وبعد لحظات جاء « فهد » شاحباً، وقال متلعثماً :

— « هل توعدته حتى لا يفتح فمه ؟ ؟ »

قالت وهي ترمقه بنظرات وله :

— « لسوف يغلق فمه إلى الأبد ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لقد أرسلته إلى البستاني ليحضر لي بعض الفواكه على عجل ... لكنه لن يعود... »

— « لن يعود ؟ ؟ »

— « أجل يا فهد الحبيب ... من أجلك أنت، لانك امتع رجل في الوجود، ولن تستطيع قوة أن تفرق بيني وبينك ... »

وتنهدت في ارتياح وقالت :

— « لقد سقيته السم ... وعندما يصل إلى البستان ستكون أعضاؤه قد تراخت... وسيستسلم لنوم طويل ... أبدي ... مسكين لسوف يموت دون أن يرى هزيمة محمد ... الغريب أنه سيموت بنفس السم الذي أعددته لمحمد ... انها منزلة لم يكن يحلم بها ذلك المغرور ... لكني دائماً أتصدق على هؤلاء الأغبياء ... حتى بالميتة الحسنة ... »

ثم التفتت إلى فهد المذهول، الذي دارت به الارض وصرخت :

— « وأنت ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « لسوف تنتظرني هذا المساء ... هناك في نفس المكان ... تصور حاول سلام

بالأمس ان ينال مني حقه كزوج لكني تعللت وأبيت ... أصبح مذاق سلام كالعلقم ... انه شيء مقيت ... لا أدري كيف ... هناك في نفس المكان، ولا تتأخر لحظة حتى لو اشتعلت الحرب فجأة ... وهناك ستحوم من حولنا روح ذلك العبد الآبق الأبله ... ولن يستطيع ان يخترق حاجز الموت ... سيشفى بالغيرة والحرمان حياً وميتاً ... والآن انصرف.»

قال وقد طأطأ رأسه :

— «ولكن سيدي هنا ...»

— «لا شأن لك ... إنني أعرف كيف أدبر شأني ... ومولاك غارق في الغزور حتى أذنيه ، إنه لا يتصور أن كائناً ما كان لا يجسر على العبث بشرفه ... إنه عظيم لا يهتم إلا بالعظماء أما أنت فاتفه من التفاهة ... العبيد والنساء هنا لا مكان لهم سوى الحضيض ... لكن ألست معي في انه حضيض رائع ...

انصرف ايها الاحمق ...»

قال وهو يقترب من الباب بظهره :

— «أمر مولاتي ...»

الفصل الحادي عشر

ألمّ بسلام شيء غير قليل من الحنق حينما علم بموت أحد عبيده، وأخذ يتصرف في ضيق وتوتر، بينما قالت زينب زوجه : — « ماذا جرى ؟ ؟ إن الأمر لا يعدو أن يكون شاة نفقت، فلا تشغل نفسك بذلك كثيراً ... »

قال سلام : « أعرف أنه لا قيمة له، والخسارة فيه تافهة، لكن ميتته عجيبة ومفاجئة، لقد سقط في الطريق دون مقدمات من مرض، وتقيأ ... »

قالت :

— « وماذا في ذلك ؟ ؟ الموت لا موعد له ... ربما تكون قد لدغته حية في الطريق، فلفظ أنفاسه في ثوان ... »

— « ولما لا يكون في الأمر سر غامض ؟ ؟ »

هتفت في خوف :

— « سر ؟ ؟ مثل هؤلاء المساكين ليس وراءهم أسرار ؟ ؟ »

— « أنا شخصياً لا أعرف شيئاً ذا قيمة عن هذا العبد، لكني أحاول أن أجمع بعض المعلومات ... »

قالت محتدة :

— « هون عليك، ولننشغل بكبريات الامور »

هز كتفيه في أسف وقال :

— « ألا يكون ذلك مقدمة وباء ؟ ؟ لكن ... ألا يخرج الوباء إلا من بيتي ؟ ؟ معنى ذلك — إن صح التخمين — أننا قد نموت في أية لحظة ... أليس هذا مزعجاً ؟ ؟

هزت رأسها قائلة :

— « آه فهمت، أنت لا تفكر فيه، بقدر ما تفكر في مستقبلنا نحن ... أؤكد لك أن مصرعه لا يعدو ان يكون صدفة من جراء لدغة سامة .... »

— « هذا هو الارجح ... لدغته حية سامة ... »

ابتسمت خفية، وتمتمت وهي تلتصق به :

— « وأي حية ! ! » فأردف سلام بن مشكم :

— « حسناً ... لسوف أنصرف إلى كنانة بن الربيع ... ان كابوساً غامضاً يضغط على قلبي أريد أن اتخفف من ذلك الوهم ... وسط الرجال والأحداث ينسى الإنسان أوهامه الصغيرة ... »

قالت في خبث :

— « وزوجتك ؟ ؟ ألا تخفف عنك شيئاً كهذا ؟ ؟

— « إن بك وبي من الفتور في هذه الأيام ما لا يمكن إنكاره ... »

— « التفكير في كبريات الأمور يا سلام يوجب القلق ... »

وما أن انصرف عنها، حتى انقلبت سحنتها، واكتست نظراتها ببريق حانق، كان جسدها ينتفض من الغيظ، ولا تكف عن الحركة القلقة، تعبث بأناملها، وتجذب خصلات من شعرها، وتلامس عنقها، ثم تضرب على فخذها، ولا تقف إلا لتجلس، ولا تكاد تجلس حتى تهم بالوقوف، حتى لكأن في حاشيتها أشواكا تدمي، وتمتمت في غيظ قاتل : — « ابن الدنيئة لم يأت بالأمس ... جلست انتظره في البستان، بين الصمت والظلام والخوف والرغبة المتقدة ... لكنه لم يأت ... ها ... ها ... ها ماذا جرى للدنيا ؟ ؟ أنا أنتظره، وأتحرق لرؤياه فلا يأتي ؟ ؟ كيف ؟ ؟ ألا يعرف من أنا ؟ ؟ إنني قادرة على أن أسوقه سوقاً بالسوط، وأترع من دمه القذر ... »

وصرخت كمجنونة :

— « فهد ... فهد ... الي فوراً ... »

ودارت بها الارض، أشعل الحقد وخيبة الأمل في جسدها ناراً من نوع غريب، أخذت يداها ترتجفان، وفتحت عينيها فجأة فوجدته أمامها ... هدرت :

— « لماذا لم تأت بالأمس ؟ ؟ »

— « لقد خفت ... »

— « يا ابن اللئيمة ... وكيف يخاف العبيد ؟ ؟ عندما آمرك لا يصح ان تفكر في شيء آخر غير الطاعة ... »

— « لكني أخاف سيدي ... لا أستطيع أن أرفع عيني إلى وجهه، يخيل إلي في بعض الأوقات أنه قادر على أن يقرأ كل ما يعتمل في نفسي ... بل يبدو لي أنه على مقدرة كبرى في قراءة الغيب ... أفزع من نومي على صوته القوي المخيف يهتف بي : أيها الخائن الجبان ... »

قهقهت في جنون، وهبت واقفة، واقتربت منه وهي تزمجر :

— « أنا أقوى من سيدك ... »

— « انك تزيدينني خوفاً ... »

— « اللعنة عليك وعلى أفكارك ... القوة ليست الشوارب واللحى والسيوف والأصوات الخشنة، أيها الغبي ... »

— « أمر مولاتي ... »

— « لو لم تحضر هذا المساء، فلن تطلع عليك شمس الغد ... »

قال وهو ينتفض :

— « أحبك بكل ما فيك من قسوة ورعود وجنون ... »

قهقهت في رضى :

— «أنت تجيد اختيار الكلمات... لا تظن أن وقاحتك تؤلمني ،انها تثيرني أكثر وأكثر... سنحتفل الليلة برحيلك غداً إلى محمد ... يجب أن أهبك كل ما تريده مني ... سيكون ذلك هو الزاد في رحلتك الطويلة إلى يثرب ... إنني اعرف كيف أشحن قلوب الرجال الأشداء بالكرامة والبأس ... لسوف تجد متعة عظيمة وانت تقضي على حياة أعظم وأخطر رجل في الجزيرة... في تاريخها الطويل ... وعظائم الأمور ليس لها إلا عظماء الرجال... أنت عظيم برغم سواد وجهك، ووضاعة مركزك ... وبعد أيام قليلة سيتغير كل هذا ... ستصبح الفارس المعلم الذي يشار إليه بالبنان في طول الجزيرة وعرضها ... »

واخذت تصب في أذنيه كلمات كثيرة متلاحقة، لم تكن تعطيه فرصة لاستيعاب الكلمات والتفكير فيها، أخذت تسقيه — على الرغم منه — كل ما تريد من أفكار وأوهام، أصبحت لها القدرة على تحريك جسده وفكره، وإثارة روحه، استسلم لها تمام الاستسلام، لم يعد في مقدوره سوى أن يصدق ويطيع، ملأت عالمه كله، يقظة ومنامة، أليست زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم ؟ ؟ أهو في حلم أم حقيقة ؟؟ واسترخت في جلستها وهي تقول :

— « لسوف يقول الناس ان زينب بنت الحارث قد انقذت اليهود من قدرهم المحتوم، وكتبت لهم المجد ، بل وحررت العرب من الرعب الذي بذره محمد في قلوبهم ... »

ثم التفتت إلى فهد قائلة :

— « اذهب وأعد نفسك لليلة نادرة المثال ... »

ثم هتفت به أن « قف » وأقبلت نحوه قائلة :

— « أحبارنا، ورجال الحرب في خيبر ... الجميع عجزوا ... أخذوا يعقدون الاجتماعات ويتصلون بكسرى وقيصر، وغطفان وقريش ... أتعبوا نفسهم ... لم يقتنعوا في يوم من الأيام أن امرأة مثلي قادرة على أن توفر عليهم هذا الجهد كله ... »

قال فهد فجأة وكأنه يصفعها :

— « يقولون أن محمداً قادر على أن يشم رائحة التآمر ... إن له فراسة في الرجال لا تخيب ... »

قهقهت في حنق :

— « لن تستطيع قتل محمد الا اذا قتلت الوهم الذي يعشش في رأسك ... »

وابتلعت ريقها، ثم عادت تقول :

— « هل رأيته ؟ ؟ »

— « لا ... »

— « الناس يصنعون الخرافات والاكاذيب ... ثم يصدقونها ... محمد رجل كسائر الناس، أوتي قدراً من الذكاء والحنكة ... لكن الذكاء والحنكة لم يعصما أحداً من القدر ... تلك هي القضية ببساطة ... أتفهمني ؟ ؟ »

— « أليس نبياً ؟ ؟ »

— « لو كان كذلك لما كان هناك ضرورة لهذا العناء ... النبي لا يولد إلا في بني إسرائيل ... أو على الأقل يؤمن بما يؤمن به بنو إسرائيل ... لكن محمداً سفّه أحلام اليهود والنصارى على السواء ... الحق الكامل عنده وحده ... انظر لو كان نبياً لما ظل هذه السنوات الطوال ينافح عن حياته وحياة من معه ... الله قادر على أن يهبه النصر والتفوق الكامل في لحظة ... هذه الأمور لا دخل لك فيها ... يكفي ما أقوله لك ... وسيزداد إيمانك بما أقول عندما تراه قد سقط بين يديك ... دع هذا التفكير ..! إنك مقدم على

عمل كبير ، وفي مثل هذه الامور لا يصح ان يخالجك ادنى شك ، او تعتورك الهواجس والظنون ... كثرة التفكير والشكوك مدعاة للفشل ... لن تأخذ بيدك إلى حقيقة بل ستجرك إلى الهزيمة والضياع ... كن حاسماً وانطلق ، واسحق كل نوازع التردد ... وحشي بن حرب فعل ذلك ... انه الآن سيد من سادات مكة ... اسمه يتردد في آفاق الجزيرة كلها ... أتفهمني ؟ ؟ والليلة سيكون لقاؤنا حافلا بكل متعة رائعة ... أيها المحروم طول حياتك ... إنني أفتح أمامك عالماً بهيجاً ما كنت لتجد الطريق إليه طول حياتك ... لم آنف منك لأنك عبد ... رأيت فيك إباء السادة وكبرياءهم ... فلا تحن إلى ما ضيك التعس. كن سيداً ... وسر في الطريق ، لا تنتظر أن أحداً يستطيع أن ينهض بك ... أنت وحدك القادر على صنع مستقبلك ومركزك ... وليلتنا هذه ستكون ليلة وداع ... لأنك مسافر غدا ... وسلام بن مشكم يعرف ذلك ... أنت الآن أعز لديه من كنانة بن الربيع ... هذه فرصة العمر ... وليلتنا هذه أروع ما في الزمان ... الشوق والوداع وأحضان امرأة متمرسة في فنون الحب والسياسة ... »

دارت رأسه ....

زاغت نظراته ...

شعر بضجيج هائل يشحن الوجود ...

— « يا الهي ... ان رأسي يكاد ينفجر يا مولاتي ... »

— « أيها المسكين انك في حاجة إلى بعض الراحة ... الآن تستطيع ان تذهب ... »

الفصل الثاني عشر

— « دعني اذهب اليه، واغرقه بالوصايا وأمنيه بالأمنيات ... »

هذا ما قالته زينب بنت الحارث لزوجها قبيل الفجر ، فرد عليها سلام بن مشكم دون اكتراث :

— « حسناً اذهبي إليه ... لا تكثري من النصائح ... إن كثرة الكلام ينسي بعضه بعضاً ... لو كان حقاً مؤمناً بما يفعل، فسيقضي ليله ونهاره يفكر ويدبر ، أما اذا كان غير جاد فلن تغني نصائحك شيئاً ... »

وخرجت، وما أن التقت بفهد منفردة حتى بادرته قائلة :

— « هل أعددت كل شي؟ ؟ »

قال في انفعال واقتضاب :

— « أجل ... »

— « أنت تعرف ... هذا بداية تاريخ مجيد، وحياة جديدة ... »

— « أدرك ذلك ... وأعرف أنها مهمة محفوفة بالمخاطر ... »

— « لن أخدعك ... إنها كذلك، لكن تحسن الطريق، والحذر الممزوج بالحزم والشجاعة، تجعل من الأمر بسيطاً غاية البساطة ... »

وسددت اليه نظرات ثاقبة وهي تقول :

— « ان قاتل محمد ستطبق شهرته الآفاق ... »

— « المهم أن أعود اليك سالماً ... »

— « اني أحرص عليك منك ... تعرف كم أحبك ... ما أحببت مخلوقاً قط مثلك ... قد تتساءل :

اذا كنت تحبينني فلما تقحمينني في هذه المخاطر ؟ ؟ السبب بسيط وهو أني أريدك

بطلا ... أريدك الصورة المثلى لرجل أحلامي ... وانا عربيدة الجسد والفكر والشعور ... تلك حقيقة ... لا أرض بغير قتل محمد ... ان ذلك صداق حبنا الكبير لسوف يكون حبنا قصيدة عصماء يترنم بها العرب في البوادي والحضر ... »

واقتربت منه، وتلاصق جسداهما ، وسرت بأناملها اللدنة على عنقه الطويل، وشعره وبروزات وجهه، ثم ضمته إلى صدرها في عنف ...

— « لو لم تعد اليّ سالماً لقذفت بنفسي من فوق الجبل ... لا يهمني قتل محمد وحده... بل لا بد ان تنجو من أي خطر ... كلا الامرين بنفس الدرجة من الاهمية ... »

قال في ارتجاف :

— « واذا فشلت وعدت بخفي حنين .. »

— « ان حبيب قلبي لن يفعل ذلك ... حبي لك سيحملك على اجنحة النصر الباهر ... إنني واثقة مما أقول ... لكن تأكد أن حبي لن يتأثر بأية أحداث طارئة، إنه فوق النزوات القدرية ... »

ثم عادت تقول :

— « فلتمض ... وسيصحبك خادم عجوز ... أنت منذ الآن سيد ... وحذار أن تكشف عن نواياك لأحد ... لا تسقط بلا ثمن ... الكتمان نصف النجاح ... والله يرعاك ... المجد يا فهد لا تصنعه الصدفة ... إنه جهد وعرق وتضحيات ... والذين يفكرون كثيراً ويترددون، أو يحاولون ان يقيسوا تصرفاتهم بالمقاييس الخلقية العتيقة لا ينجحون ... كن قوياً جسوراً فتنتصر، وتبعث الرعب في قلب الأعداء ... أريد رجلا حراً شجاعاً، لا أريد عبداً خنوعاً ذا نقائص ... لقد وهبتك اعز ما أملك، فلتهبني بعض ما تملك ... والحب عطاء ... »

جرى صوب راحلته، وهي ترمقه غبر العتمة بعينين تتألقان بانفعالات خبيثة ...

ومضى كالمنوم في الطريق الذي رسم له ...

●

في نفس الوقت ... كان كنانة بن الربيع في بيته ثائراً متوعداً، وزوجه صفية بنت حيي بن أخطب تقف قبالته صامتة شاحبة الوجه ...

وقال كنانة ووجهه محتقناً :

— « انني على استعداد لأن أدفع كل ما أملك كي أعرف ما يعتمل في نفسك ... »

— « انك يا كنانة تحمل الأمور فوق طبيعتها ... لا شيء هناك سوى ذلك الحزن الذي يعتصر فؤادي ... »

— « وكيف اصدقك ؟؟ انك زوجة وترفضين ان تمنحي زوجك بعض حقوقه ... لقد مللت الصبر ... »

ثم قال في ثورة :

— « هل هناك رجل آخر ؟؟ اقسم لو صرحت لي بحقيقة الأمر لارتاح قلبي ... » هي تعلم أنه يكذب، لو كان هناك رجل آخر ، وتأكد له ذلك لحطم جمجمتها، وعادت إلى خيالها تلك الرؤيا الغريبة ... ذلك القمر القادم من يثرب ... والذي شق السماء والسحب والظلام وأشرق في حجرها ...

قالت في شرود :

— « محمد ! ! »

وضج بالضحك المتوتر، وهدر :

— « محمد هو الذي يحول بيني وبينك ؟ ؟ »

— « كيف ؟ ؟ »

أفاقت لنفسها، وارتكبت ولم تدر ما تقول، لكنه عاجلها قائلا :

— « تقصدين انه تسبب في قتل أبيك، وجلب لك الأحزان ! ! حسنا ... اننا نعد أنفسنا لحربه في الأيام القليلة القادمة كما تعلمين ... وسيكون ثأر أبيك عنيفاً رهيباً ... وسألقي تحت قدميك برأسه ... »

ونظر إلى وجهها، لم يشرق بالفرحة كما توهم، ولم تومض في عينيها الحزينتين ومضات الشراسة وشهوة الانتقام، انها لم تزل جامدة شاردة تهيم في عالم غامض يزيد كنانه حنقاً وثورة ...

وعبر صمتها الممتد أخذت تقول :

— « لماذا لا تعجلون بالحرب ؟ ؟ الظلام يثقل على القلوب، والتوتر يرجف القلوب والعقول، هذه حياة لا تطاق ... أما الموت أو الحياة ... هذا العذاب ألعن من الموت، لقد رفضتم إبرام اتفاق سلام مع محمد فماذا بقي ؟ ؟ لقد فقدتم الحسم منذ زمن بعيد ... »
شعر كنانة بغير قليل من الارتياح، واخذ يقول :

— « ان كلماتك قد صورت الموقف أصدق تصوير ... لكن نحن لا نتعمد التأخير والتلكؤ ... كنا ننتظر نجدة من الروم او الفرس، وننتظر نجدة من غطفان ... إن الضربة القادمة تحتاج إلى إحكام ... إن خيبر هي آخر سهم في جعبة اليهود ... لكننا اضطررنا لسرعة الحركة عندما علمنا بالحشود التي يعدها محمد، ولن تمر أيام قلائل حتى يحتدم الصدام ستجدين راياتنا تخفق حول يثرب، ومحمد محصور لا يستطيع الإفلات، ومن يدري قد يخف الينا العرب من كل مكان ... وقد تنقض قريش « صلح الحديبية »...

شردت بنظراتها مرة أخرى إلى بعيد ...

— « اذن ستحسمون الأمر خلال أيام قليلة ... »

— « بكل تأكيد يا صفية ... »

— « هذا رائع ... عندئذ ينجاب الظلام، وتنطوي الاحزان ... وننظر إلى السماء في الليالي القمرية ... ويسود السلام، وتسكن النفوس ... هيهات إن الشقاء الذي أعانيه الآن ينوء به أقوى القلوب في خيبر ... »

هز رأسه في أسى وقال :

— «آه ... ان حقدك قد تحول إلى حزن صامت مقيت ... أما زينب بنت الحارث فلها شأن آخر ... حقدها قد تحول إلى طاقة مدمرة من العمل والتفكير ... تصوري أنها سوف ترسل اليوم عبداً من عبيدها لقتل محمد ! ! »

هتفت في دهشة :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « أجل ... ليت لك من الجرأة والعزيمة نصف ما لها، انها امرأة ذات شرف وكبرياء إنني أحسد سلام بن مشكم عليها ... »

عاد إليها شيء من السكون، وأخذت تردد :

— « هذا هراء ... لقد ثبت فشل مثل تلك المحاولات، ولم تجر على اليهود إلا الوبال لو كنت مكان زوجها لصفعتها على وجهها ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « إنها نصف مجنونة ... أنا لا أرتاح لأفكارها ونزواتها ... »

— « ماذا فيها ؟ ؟ انها تسعد زوجها ، بل وتقحم نفسها في اجتماعات الرجال، وتشارك بالرأي ... لقد اثبتت الأيام أنها أقوى من الضعف والحزن ... »

ثم استدركت قائلة :

— « حذار أن تظن أنني أغار منها ... ما تمنيت قط أن يكون لي ما لها من « فضائل » ما استطعت في يوم من الأيام أن أطرب لا فكارها او سلوكها ... انها خربة الرأس متسرعة. لاثبات لقيمها ... هذا شيء نعرفه نحن، وقد يخفى على الرجال ... »

•

وساد خيبر هرج ومرج شديدين ...

الشمس لم تشرق بعد، لكن مقدمات الضوء قد بددت الكثير من العتمة، وأبانت عن معالم الأشياء ... لكن عدد كبيراً من المزارعين ومعهم إبلهم وأغنامهم قد عادوا مذعورين صوب خيبر ... ووسط الضجيج الصاخب ... كانت هناك كلمتان تترددان « محمد ... وساد الرعب كل مكان ... وصعد الرجال والنساء فوق الحصون والأماكن العالية وأخذوا ينظرون صوب الجنوب عبر النخيل والزرع ...

ولم يعد هناك مجال للشك او التخمين ...

ان محمداً ورجاله يعسكرون حول خيبر، ويسدون منافذ ها ... وخرجت زينب بنت الحارث مربدة الوجه، عيناها تطرفان في قلق وتهتف في حقد بالغ :

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

وقبل ان يجيبها احد، لمحت « فهد » يقدم مهرولا تاركاً خلفه راحلته والخادم العجوز، وظلت زينب جامدة في مكانها، وعندما اقترب منها، صرخت :

— « أيها النذل الحقير ... »

— « ليس الذنب ذنبي يا مولاتي ... »

— « هل رأيتهم ؟ ؟ »

— « أجل ... محمد و ... »

صاحت :

— « كفى... لا أريد أن أسمع اسمه ... »

— « إن الأقدار هي التي أفسدت مخططاتنا ... »

— « لا دخل للأقدار في شيء من هذا ... نحن حمقى وكسالى ... »

— « المجد يأبى أن يمد يده لتعس مثلي ... أنا أعرف ذلك ... »

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة ثعبانية وتمتمت :

– « تستطيع ان تبحث عن المجد هنا ... ستدور على أرض خيبر رحى حرب ضروس لم يسمع محمد بمثلها قط ... والنصر لنا ... »

قال فهد في خنوع :

– « هل تغير قلبك نحوي ؟ ؟ »

دفعته في صدره دفعاً عنيفاً وهي تصيح :

– « أهذا وقت الغزل أيها الحقير الأبله ؟ ؟ »

طأطأ رأسه حزيناً، وهم بالانصراف ، لكنها أمسكت به، وأخذت تدقق النظر في وجهه وملامحه، ثم قالت :

– لو تفوهت بحرف واحد عما كان بيننا ل ... »

قاطعها في خضوع :

– « أعرف ... ولن أفتح فمي ... لانك أعز لدي من أي مخلوق ... وأنا ... أأحبك »

قالت وهي تضحك في جنون :

– « قسماً لئن هزمنا محمداً، لاغرقتك في متعة ما حامت بها قط ... هذا نذر عليّ ... اذهب وابحث لك عن سلاح ... »

وبقي فهد وحده يفكر ...

أيبحث له عن سلاح ؟ ؟ لماذا ؟ ؟ عن أي شيء يدافع ؟ ؟ »

لأول مرة تطن هذه التساؤلات في ذهنه ... لقد انتصب الخطر خارج الأسوار ، وبعد قليل تنهمر الدماء، وتتعانق السيوف، ويسقط الرجال، وخيبر تدافع عن زروعها ونخيلها ودينها، وتثأر لشقيقاتها ، ومحمد يحمي دينه، ويفتح الطريق لدعوته، ويضرب من هموا بضربه واغتياله ... وأنا فهد، من أكون ؟ ؟ انا شيء كالطفيليات في حديقة مولاي... انا أداه ... هل كنت سأذهب حقيقة لقتل محمد ؟ ؟

وسمع فهد مولاه « سلام بن مشكم » يصدر اوامره لمن حوله كقائد :

— « ادخلوا الأموال والعيال حصني « الوطيح » « والسلام » وادخلوا المحاربين حصن « نطاه » وضعوا بعض القوات لدى حصن « ناعم » و « القموص » و « الزبير » واستعدوا لحرب لم تر لها العرب مثيلا ... »

وتمتم فهد : « ترى في أي حصن اذهب ؟ ؟ »

فسمع من خلفه عبداً من عبيد مولاه، يقول بصوت رفيع مميز :

— « اذهب إلى حصن العيال ... هناك ستجد زينب ... »

وولى هارباً وهو يقهقه ...

الفصل الثالث عشر

استقبلت مكة « صلح الحديبية » بغير قليل من الارتياح، بل إن بعض بيوتاتها سعدت به أيما سعادة، فالذين لهم إخوة أو أبناء أو آباء تبعوا محمداً، نالوا قسطاً من الطمأنينة، فالحرب لن تنشب طوال مدة العهد، ولن يواجه الإبن أباه في معركة دامية من أجل العقيدة وحمايتها، وأولئك الذين تستروا واخفوا إسلامهم رضوا بما حدث انتظاراً لفرج الله حسبما وعدهم الرسول، ورجال المال والتجارة كانوا أكثر الناس رضى بهذا الاتفاق، فقد فتح أمامهم الطريق الآمن مرة أخرى إلى الشام، وبالتالي ستنشط الأسواق، وتنتعش حركة المال، وسينعكس ذلك كله على التاجر الكبير والحمّال الصغير سواء بسواء، أي أن الفائدة ستعم القاصي والداني، لكن بعض المتحمسين والحاقدين قد انتابهم غم شديد، فقد رأوا في هذا الاتفاق رفعاً لشأن محمد بين العرب اذ أنهم فاوضوه مفاوضة الند للند، كما انه سيجد الفرصة كي يرتب أموره، ويزيد من أتباعه، ويتفرغ لنشر دعوته، وتقوية صفوفه. والحاقدون أيضاً يكرهون الانتظار، إنهم لا يستشعرون الراحة والرضى إذا رأوا الصراع يحتدم، والدماء تسيل، وعدوهم ينزوي كي يلعق جراحه، لكن صوت العقل كان أقوى من صوت العواطف النافرة الحاقدة، فانصاعت مكة للوضع الجديد عموماً ورضيت به.

ولم يكد يمر على عقد الصلح شهر أو أقل من شهر، حتى تواترت الأنباء عن حرب وشيكة الوقوع بين محمد واليهود في خيبر، وقد حظيت هذه الأنباء باهتمام بالغ، وأخذ صداها يتردد في الأندية والمسامر، وأصبحت حديث الجميع في البيوت، وحول الكعبة، وفي الأسواق، لم يُقابَلْ صراع محمد وخيبر بمثل ما قوبل به صراعه في بني النضير أو قريظة، فالجميع يعرفون أن خيبر لها ميزات كبرى تجعل لها التفوق الكاسح، ففي خيبر المحاربون الأقوياء، والقادة الأذكياء، وفيها المال الوفير، والمؤن الكثيرة، وفيها الوعي الكامل بدورهم الخطير إزاء الاحداث، معقل اليهود الاخير في الجزيرة وعليهم تتركز الآمال، وفيهم من فروا من أرض قريظة وبني قينقاع وبني النضير، أولئك الذين اكتووا بنيران الذل والهزيمة وخيبة الأمل، فلم يتخذوا منها عبرة، بل اعتبروا الكارثة السابقة لهيباً يذكي أحقادهم، ويملأ قلوبهم بالعزم والإصرار على أخذ الثأر، وفي خيبر بقايا من أسرة حيي بن أخطب ذلك الذي قضت عليه سيوف المسلمين، بل ان بنت حيي بن أخطب صفية هي زوجة زعيم خيبر البارز كنانة بن الربيع ...

وفي مجلس من مجالس الطرب و الشراب ، مال عكرمة بن أبي جهل على خالد بن الوليد بعد أن كف الضجيج ، وفرغت الكؤوس وقال عكرمة :

— « يا ابن الوليد ... ألم أقل لك ؟ ؟ أن صلح الحديبية سيكون ضربة لنا في الصميم .. »

— « كيف ؟ ؟ »

— « هادننا محمد بالأمس ليميل على اليهود غدا ... والحرب تدور رحاها الآن في خيبر ، ومحمد آمن تماماً ، ولن يطعنه أحد من الخلف ... لو انتصر عليهم مد ، فسيكون ذلك هزيمة كبرى لنا ... »

قال خالد :

— « لسنا طرفاً في النزاع ... »

— « أعرف ... على الأقل حالياً ... عندما تنتهي الهدنة ... يكون محمد قد فرغ من كل أعدائه ولن يبقى سوانا ... الحق اننا طعنا اليهود اذ عقدنا صلح الحديبية ... لكن ... »

قال خالد وهو يستمع في اهتمام بالغ :

— « لكن ماذا ؟ ؟ »

— « ليس الأمر بالسهولة التي أتحدث بها ... أعني ان خيبر لن تهزم ... »

— « وما تفسيرك لذلك ؟ ؟ »

— « خيبر قلعة حصينة ، وبها امكانيات لا تنفذ ... »

— « أعرف ... »

— « ولذلك فاني أراهن على أن محمداً ورجاله سيهزمون ... »

— « يهزمون ؟ ؟ هذا ما أشك فيه ... »

— « أتعتقد ذلك كقائد ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « بل سيعجز المسلمون عن اقتحام أسوار خيبر وقلاعها ... سينبثق الموت فوقهم كلما هموا بالدخول ... ولا طاقة لمحمد ورجاله على حصار طويل قد لا يؤدي إلى نتيجة »

قال خالد في شيء من الشرود :

— « كل ما أعرفه ان محمداً يحسب كل شيء بدقة، ورجاله لا يعوزهم الإصرار واقتحام المخاطر ... »

— « ستكثر ضحايا المسلمين دون فائدة ... »

— « أحياناً يا عكرمة يلجأ محمد إلى الحرب الخاطفة، وأحياناً أخرى يتسم بالأناة على النضال الطويل ... إنه يلبس لكل حال لبوسها ولا ييأس او يتقاعس... ولنا في بني قريظة وبني النضير عبرة ... لم تقف القلاع والحصون والعدة والمخزون من الطعام والماء حجر عثرة في سبيله ... »

قال عكرمة بن أبي جهل في إصرار :

— « أقسم أن خيبر ستقهر المسلمين . أتراهن على ذلك ؟ ؟ »

— « ان تمحيصي للأمر يعطيني نتيجة غير التي تتصورنها ... »

— « أنا لا أجدف، ولكني أقيم تصوري على أسس عقلية متينة ... »

— « لندع هذا الامر حتى الصباح ... »

ولوح عكرمة بيده في حماس قائلا :

— « وغطفان ستساعد خيبر ... »

— « لن يغير ذلك من النتيجة المرتقبة ... »

— « ولدى اليهود دائماً حيل ومكائد لا تنفذ ... »

— « الامر أكبر من ذلك يا عكرمة ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— «آه ... لقد التحمت مع المسلمين كثيراً أنت تعرف، أتذكر يوم « أحد » ... آه ... ان للحرب عندهم مذاقاً خاصاً ... فهم يستشعرون متعة كبرى وهم يصارعون ويسقطون ... أما نحن فنتحرك في توتر، ونندفع في حقد، والذي يسقط يشعر بحزن عميق قاتل يرافقه في رحلة الموت المضنية ... هناك شيء غير القلاع والحصون والعدد والعدة، والمكائد والحيل ... اننا أمام ظاهرة من ظواهر الحياة فريدة ... في يثرب رجال أمرهم عجيب... ألم تفكر في الأمر من قبل ؟ ؟ »

قال عكرمة في شيء من الضيق :

— « بل كنت أفكر دائماً ... رأيت رجالا يهزمون وينتصرون، ويخافون أو لا يبالون..

شأنهم شأن باقي الناس ... وفي رجالنا رأيت صورة مشابهة لذلك ... الناس في يثرب أو في مكة بشر ... اما هذه الصورة المثالية التي تتوهمها لرجال محمد فهي صورة غير صادقة ... »

قال خالد في شيء من الملل :

— « أنك ترفض أن تفتح عينيك وعقلك جيداً ... »

— « ما معنى ذلك ؟ ؟ »

قالها عكرمة وابتلع ريقه ، ثم استطرد :

— « أنت معجب برجال محمد ومبادئه ... »

قال خالد دونما اكتراث :

— « لك أن تتصور ما شئت... لكن الذي يهمني في الأمر هو أن تفهم عدوك على حقيقته ... » كي تعرف كيف يفكر ، وكيف يحارب ، والأسس التي ينطلق عليها ، والغاية التي تحركه ... وعندما تفهم عدوك يا عكرمة ، تستطيع أن تستنبط الوسائل المناسبة لدحره ، أو افساد تخطيطاته ... أتفهمني ؟ ؟ »

قال عكرمة ، وهو يمسك بيد مرتجفة كأساً من شراب :

— « ستنتصر خيبر ... »

قال خالد باسماً :

— « سينهزم اليهود ... »

— « اليهود لن يستسلموا هكذا بسهولة في آخر معقل لهم ... »

— « ومحمد لن يترك مكمن الخطر الدائم يهدده ... لقد حشد اليهود له وكانوا على وشك الانقضاض على المدينة ... »

قال عكرمة مهتاجاً :

— « ستنتصر خيبر ... »

— « بل ستُهزم ... »

— « اتراهن ؟ ؟ »

— « أراهن يا عكرمة ... »

— « على خمسين ناقة ... »

— « موافق ... »

وهكذا كان شأن مكة، نقاش لا يهدأ، ورهانات في كل مكان، واهتمام شديد بما يجري في الشمال، وتحسس للأنباء في كل مظانها، وخروج ذوي الفضول من أهل مكة مساء وصباحاً إلى مشارف البلدة يستقبلون المسافرين، ويتنطسون الأخبار في لهفة عارمة، وقلق بالغ ...

قال ابو سفيان لزوجه هند وهو يأوي إلى فراشه :

— « يا للعجب! ! استطاع محمد ان يشغل اذهان العرب بحكاياته وأيامه وأفكاره ... ليس في مكة بيت إلا ويتحدث عن معركة خيبر ... »

قالت هند وهي تحدجه بنظراتها الحانقة :

— « ان حماقتنا هي التي مهدت له الطريق ... »

— « ليس الأمر كما تتوهمين ... لم ندخر وسعاً في مناوءته ... »

قالت ساخرة :

— « ولم تدخروا وسعاً في مراضاته، وطلب الصلح ... هل نسيتم صلح الحديبية ؟ ؟ يا للعار ! ! »

— « لم نسع إلى صلح الحديبية جبناً ... لكننا في الحقيقة كنا في حاجة إليه ... لو لم نفتح طريق التجارة إلى الشام لعم الفقر، وضج الناس بالشكوى، بل لربما ضاقوا ذرعاً بنا وبتصرفاتنا وهرولوا إلى محمد يعرضون إسلامهم ... إننا لا نسلم لمحمد بأية رغبة الا اذا تأكدنا من ضرورتها لنا، ونفعها لأهل بلدتنا ... إن السياسة شيء آخر غير التهور ... »

قالت في ضيق :

— « وصرخات الدم الذي أراقه محمد ؟ ؟ »

— « تتحدثين كامرأة فقدت أحبائها ... »

— « وأنت ؟ ؟ ألم تفقد أعزاء لديك ؟ ؟ »

— « أنا لا أنظر إلى الأمر يا هند من زاوية شخصية ... هنا جموع الناس ومسئوليتي عنهم ... قلت ذلك من قبل ... ما أشد ألمي على فقد حنظلة ... وفقد عتبة وشيبة وغيرهم. إن أمير القوم يعتبر الناس جميعاً أبناءه، وإلا امتلأت قلوبهم بالحقد عليه، وانصرفوا عنه .. »

قهقهت في غيظ :

— « تتكلم كنبي ... الجميع في هذا الزمان يحلمون بان يكونوا أنبياء ... »

— « أتسخرين مني ؟ ؟ »

— « آه ... ذلك الرجل الذي لعب بكم، وحطم كبرياءكم، وجعلكم مادة للهزء والسخرية في طول الجزيرة وعرضها ... وامصيبتاه ... لسوف يأكل اليهود، ثم يستدير نحوكم ... »

— « لن ينقض محمد صلحه ... »

— « ولن يعدكم الأسباب يا أبا حنظلة ... »

قال في شيء من الضيق :

— « ولم تسبقين الأحداث ؟ ؟ انتظري لعل أمراً ما يحدث في خيبر ... ان خيبر خصم عنيد ... »

اقتربت منه في لهفة وقالت :

— « أتعتقد أن اليهود سينتصرون، إن لك تنبوءاً بالأحداث كثيراً ما يصدق ... قال الحق ... »

— « ليس من السهل الحكم على امر كهذا ... »

— « انك تتعمد اغاظتي ... »

— « اليهود لن يُهزموا بسهولة ... »

— « ومحمد ؟؟ »

قال أبو سفيان :

— « لن ينتصر بسهولة ايضاً ... »

— « لا تراوغ ... أينتصر أم يخسر ؟ ؟ »

— « الحق انني عاجز عن التنبوء ... »

أخذت تدق الأرض بقدميها في حنق وتقول :

— « الجميع يتخبطون ... ليس هناك أحد في هذه الديار قادر على أن يجزم برأي... هذا هو الضياع بعينه ... آه لو ملكت زمام الأمور في هذا البلد ... »

قال أبو سفيان مداعباً :

— « تصوري انك صاحبة الأمر والنهي فماذا تفعلين ؟ ؟

قالت وعيناها تنظران إليه في حقد وحشي :

— « انقض على المدينة الآن وبدون إبطاء ... وأبدد شمل من فيها وادعو العر ب من كل الأطراف على وليمة دموية في أنحاء يثر ب ... »

هز رأسه في ابتسامة خافتة وقال :

— « النساء والشعراء ... لا يصلح اي فريق منهما لسياسة الامور »

ثم استدار نحوها وقال مؤنباً :

— « ألم تفكري فيما قد يحدث من هزيمة ؟ ؟ الاحتمال الوحيد عندك هو النصر ... ألم تتصوري القتلى وهم مطروحون على الرمال تنهشهم الطيور الجارحة ؟ ؟ والصلح؟ ؟ »

صاحت في حيرة :

— « الموت أهون من الرضى بالذل ... »

— « أي ذل يا امرأة ... نحن أحرار في بلدنا، ولقد أملينا شروطنا في صلح الحديبية... »

قالت ساخرة :

— « ولماذا نزل القرآن على محمد قائلا : انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ... »

انهم يعتبرون الصلح الذي تم انتصارا باهراً ... »

— « ونحن كذلك ... »

— « لست أدري من أصدق ؟ ؟ »

ثم تمتمت في هدوء عاصف :

— « لسوف تنتصر خيبر ... »

تنهد قائلا :

— « أرجو ان تتحقق آمالك ... »

— « أتراهن على ذلك ؟ ؟ مائه من الابل ... »

ابتسم ابو سفيان وقال :

— « خذي كل شيء ودعيني أنم يا هند ... »

همست :

— « تنام ملء جفنيك ... وانا استلقي على ظهري مفتوحة العينين... اخترق السقف بنظراتي وأجوب آفاقاً كثيرة نائية ... وأظل أحلم ... وأتصور أموراً كثيرة ... وأحاول أن أمارس في الأحلام ما أعجز عن تحقيقه في اليقظة ... حتى تهدأ أعصابي ثم أنام ... »

قال دون اكتراث :

— « لسوف تصابين بالجنون ... »

دفعته في صدره حانقة، ثم انصرفت عنه ...

الفصل الرابع عشر

تمتم كبير المنافقين عبد الله بن أبي قائلا لنفسه : « انه عذاب من نوع غريب لا يستشعره غيري ... فبيني وبين نفسي أمقت محمداً، وأحنق على دعوته وانتصاراته، وأمام ابني والناس ، أظهر الخوف على محمد، وأتظاهر بإسداء النصح له، وتبصير رجاله بما يجب أن يفعلوا، لكم تمنيت أن أجد المناخ المناسب الذي يبدو فيه ظاهري كباطني ، وان أعبر عما يجيش في صدري دون حرج، وأنا بين المقت الخفي، والحب الظاهري أقاسي العذاب ... لماذا لا أقف على ملأ من الناس وأطلق كلمة الحق التي اعتقدها صريحة مدوية وليكن ما يكون، وفي المدينة مسلمون وكفرة، ولكل واحد موقف ... لا أنكر انني أطرب وأسعد للدس والخديعة والتآمر ، ولا أنكر أيضاً أؤدي دوراً كبيراً في سبيل الغاية العظمى التي أعمل لها ... لكني مع ذلك حزين ، وليس مرد حزني إلى ما ينتابني وينتاب حلفائي من فشل ... لكن مرده إلى الحيرة بين الصراحة والجبن ... بين الانكشاف والانطواء ... بين الشك واليقين ... واعذاباه ! ! »

ونطق آخر كلمة بصوت مسموع ، وقد تصادف دخول زوجه في ذلك الوقت، وعندما سمعته يقول ذلك هتفت :

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

— « لا شأن لك بما أقول ... »

— « الست زوجك ؟ ؟ »

— « كلكم أعدائي ... »

أدركت ما يرمي اليه، فقالت في ضيق :

— « كلهم ذهبوا لحرب اليهود ... وقعدت أنت... لو رأيت الفرسان يتيهو ن فوق جيادهم والسيوف في أيديهم ... لطرت إليهم ... »

قال في صوت أجش :

— « أو عهدتني أخاف الحرب، أو أنكص عن التضحية ؟ ؟ »

— « وما قيمة الشجاعة اذا لم تـَصُلْ وتَجُلْ لأشرف غاية ؟ ؟ »

— « وهل تسمين الدم والحرب والخراب غاية شريفة ... »

قالت في حدة :

— « ماذا جرى لك يا رجل ؟ ؟ ألم تعلم أن اليهود كانوا على وشك الهجوم على المدينة، ومعهم رجال من غطفان، وكان الرومان والفرس على وشك الاتفاق معهم ؟ ؟ فاذا فكر محمد في حماية مدينته وجيشه ودعوته، وضرب المتآمرين قبل أن يبكروا إليه، وجهت إليه اللوم ؟ ؟ »

قال في شرود :

— « عيبك أيتها الحمقاء انك تصدقين اي شيء ... »

— « ان قصة اليهود مع الرسول حلقات متصلة من الغرور ... أنت تعرف ذلك ... »

— « دعي ما فات ... ماذا فعلت خيبر ؟ ؟ »

— « انت نفسك أخبرتني ذات مساء، ان تأديب المسلمين سيكون على يد خيبر ... وأنا أصدقك ... إن لك في خيبر صداقات وطيدة ... وأنت تزورهم ... »

قال وقد ارتجفت لحيته :

— « كنت أمزح ... »

— « لكن المخلصين الذين يحملون الأنباء للرسول لا يمزحون ... »

وعاد إلى شروده وأخذ يقول :

— « تتهمينني بالقعود والكسل ... وهل نسيت ان محمداً قال لن يخرج معي الا من شهد « صلح الحديبية » وبيعة الرضوان ؟ ؟ فكيف أخرج معه ؟ ؟ »

ابتسمت، وسددت إليه نظرات عاتبة وقالت :

لم لا تكمل كلامه ؟ ؟ انك تنتقي من الكلام ما يؤيد وجهة نظرك دائماً ... لقد فتح محمد الباب لمن يريد الخروج على ألا ينال شيئاً من الغنائم ... إن السابقين الأولين الذين خرجوا إلى الحديبية، وبايعوا محمداً على الموت أولى بالتكريم والإعزاز ... »

قال ساخراً :

— « أأخرج وأحارب بلا غنائم ؟ ؟ »

— «لم لا تخرج من أجل الله كما خرج غيرك؟؟»

— «لم يندبني الله لأمر كهذا ... إن ترك اليهود لن يؤدى لضرر بالغ ...»

— «ها نحن نعود إلى الجدل العقيم من جديد ...»

جذبها من كمها، وحدجها بنظرات مخيفة وهتف :

— «سيعود المسلمون مخذولين منهزمين ...»

صرخت : — «ماذا؟؟ انك تهذي ...»

قال في اهتمام :

— «لقد رتبوا أمرهم، وأعدوا لجيش محمد كميناً لن يعود منه سالماً، وهناك أبطال مغاوير ومال وسلاح وزروع ... وقوم لن يستسلموا ...»

همست في خوف وقد دق قلبها :

— «أي كمين؟؟ ولماذا لم تخبر الرسول به؟؟»

قهقه في سخرية :

— «وهل سألني رأي ... انه دائماً يطيع الصبية ويعصاني ... من أنا؟؟ أنا عبد الله ابن أبي، أصفى الخزرج فكراً، وأصوبهم رأياً، وأبعدهم نظراً ... لكن محمداً يزعم اني منافق، ان خيبر سوف تلقن المسلمين درساً لن ينسوه مدى الحياة إن بقيت لهم حياة ...»

وفكرت المرأة، وأخذت تتصور ما يمكن ان يحدث لو أن هناك كميناً منصوباً، ماذا تفعل أتهرول إلى الشارع، وتخبر الناس بما سمعت، لعل احدهم ينطلق بجواده محاولا اللحاق بجيش الرسول، كي يحمل اليهم التحذيرات؟؟ لكن يقيناً من نوع رائع انزله الله في قلبها، فقالت وقد هدأت نفسها :

— «في كل حرب كنت دائماً تقول أن محمداً وجنوده سينهزمون»

— «أنا؟؟»

— «أجل ... وكانت النتائج دائماً تأتي غير ما قلت ...»

— «متى؟؟»

— «في بدر ... وأحد ... والأحزاب ... وبني قريظة ... وبني النضير ... وغير ذلك ...»

قال في حدة :

— « يا حمقاء أنا لم أقل بالهزيمة ، كنت اتحدث عما يجب ان يكون بصرف النظر عن الهزيمة والنصر ... ان النصر لا يعني أنني كنت على خطأ ... قد ينتصر المخطئون لكن ذلك ليس معناه أنهم سلكوا أعقل السبل وأسلمها إلى النصر ... »

قالت في ملل :

— « ان لك طريقة غريبة في شرح الامور ، من يسمعك يظن أنك حكيم بعيد النظر .. »

— « وهل أنا غير ذلك ؟ ؟ »

— « ليس لدي أسباب قوية لتفنيد دعواك ، لكني عندما أنظر اليك ، وأستعيد تصرفاتك وحياتك ... أشك في أي كلام اسمعه منك ربما تكون قد اوتيت براعة في الحديث وقوة في الحجة ... لكني أشعر في أعماقي بأنك لست على حق ... »

ودوت صفعة على وجهها فجأة ....

— « ماذا تقولين يا خاسرة ؟ ؟ »

وضعت يدها مكان الصفعة ، وسددت إليه نظرات دامعة ، وأخذت تفكر فيما قالت ، لقد كانت كلماتها بالفعل جارحة قاسية ، وهي لم تكن لتجرؤ على قول مثلها في الزمن الغابر ، لكنه على أي حال زوجها ، والرجل والمرأة مختلفان ، لكل منهما مكانته مهما كان الأمر ...

— « اعترف بأني أسأت اليك يا عبد الله ... »

— « كما لم يسيء أحد من قبل ... »

— « انها سقطة لسان ... »

قال في انفعال :

— « ليس العيب عيبك ... لكنه عيب الدنيا ... كل شيء يتغير ... أسس كثيرة تنهار ، وتخلي مكانها لأفكار ما كان أحد يصدق أنها ستملي روحها على الناس ... العيب في المبادىء الجديدة ... »

جففت دموعها ، وانطلقت تقول :

— « اني اعترف بخطئي ، واعتذر اليك ... لكن ... »

— « لكن ماذا ؟ ؟ »

- « لا تعرّض بمحمد ... »

أنا لا أتكلم عن محمد النبي ... بل أتكلم عن محمد البشر ... »

أمسكت بيده في ضراعة، وقالت متوسلة :

- « بالله عليك يا عبد الله لا تقل مثل هذه الكلمات ... انك تنقد الرسول دونما تحفظ، وهذا يبعث القشعريرة في جسدي، ويسرع بدقات قلبي، إنك تعرض نفسك لغضب الله ... وأنا أريد لك الخير يا عبد الله ... أنت زوجي ... لا تحاول أن تلتمس المعاذير لتصرفاتك، إن هذه التبريرات إذا أقنعتك أو أقنعت أحداً من الناس، فلن تجدي عند الله فتيلا ... كن شجاعاً واسحق أساك وأهواءك ... لتكن حكيماً ... لكنك غير موفق ... لن تخسر شيئاً اذا وطدت عزمك على الإيمان بمحمد وبكل ما يفعل ... فان يك كاذباً فعليه كذبه، وان يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ... لقد تعبنا من طول الجدل ... »

قال في شراسة :

- « أما أنا فلن أتعب حتى يطبق جفني إلى الأبد ... حتى الموت ... »

قالت في حزن :

- « واعذاباه ! ! »

ضحك في مرارة :

- « واعذاباه ! ! أنت أيضاً تقولينها ... كلانا يقولها لكن بطريقة تختلف عن الآخر..

- « بل أقولها من أجلك يا عبد الله ... »

- « وانا اقولها من أجل المساكين من الناس الذين يذبحون الآن على أبواب خيبر ... »

وسادت فترة صمت قالت الزوجة بعدها :

- « دائماً نتجادل ولا ننتهي إلى شيء ... »

- « لانك امرأة عنيدة ... »

- « بل لأنك رجل عنيد ... »

ثم رفعت يديها إلى السماء، وقالت وقد تندت عيناها بالدموع :

— « اللهم اهد زوجي واشرح قلبه لنور الإيمان والاسلام ... واملأه بحب رسولك الكريم ... »

قال وقد تجهم وجهه، وانتفش شعر لحيته :

— « لا تضرعي من أجلي ... ان دعواتك كلمات في الهواء ... ان بيدي مصيري... أتفهمين ؟ ؟ »

طأطأت رأسها، ثم استدارت، وعادت من حيث أتت ...

الفصل الخامس عشر

في حصن « نطاه » احتشد أغلب المقاتلين من اليهود، وعلى رأسهم قائدهم « سلاّم بن مشكم »، كانوا عدداً كبيراً من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحرب طويلا، ونضجوا في نيرانها الحارقة، وعنفها البالغ، ووقف سلام بن مشكم بينهم خطيباً :

— « أيها الرجال الأبطال، لم يعد هنالك مجال للتفكير أو البحث عن مخرج ... انظروا العدو يحيط بكم من كل جانب ... ليس أمامنا سوى الحرب ... اقتلوا في أنفسكم كل نازعة أمل في حل سلمي... واضربوا بقبضاتكم الحديدية كل فم تخرج منه فلسفات عقيمة عن الندم او اليأس والصلح ... لا إلا بسواعدكم و بسيوفكم ... محمد ورجاله جاءوا مستقتلين ... اما النصر او الموت ... وليكن هذا شعاركم، بل أنتم أولى بهذا الشعار من المسلمين ... فلو انهزم المسلمون للموا شعثهم، واستنصروا بإخوان لهم في المدينة.. أما أنتم فليس لكم أحد الآن ينصركم إلا عزيمتكم ... الحرب حتى الموت ... فما قيمة الحياة في ظل الهزيمة ؟ ؟ أما أن يأخذونا عبيداً، او يضربوا أعناقنا كما فعلوا في بني قريظة... او يقذفوا بنا في قلب الصحراء حيارى اذلاء تائهين ... إن أعظم شيء ينقذكم وينقذ نساءكم وعيالكم هو التسابق إلى الموت ... »

هتف كنانة بن الربيع :

— « القول ما قلت يا سلام ... فوالله لن تكرر المأساة ... ولن ننزل من حصوننا مجردين من السلاح، مطأطئي الرؤس كما فعل تعساء بني قريظة ... »

وقف الحجاج بن علاط تاجر اليهود المعروف وقال شاحب الوجه، مضطرب الانفاس :

— « افسحوا صدوركم قليلا، الوقت عصيب، وخير الكلام ما قاله سلام بن مشكم، نعم الرجل هو، لكن ألا ترون أن نصالح محمداً على نصف مزروعاتنا، ونحيا في سلام.. » انطلقت كلمات الاحتجاج من كل مكان، وناشته ألسنة السوء، وحاصرته النظرات الحانقة، ولوحت الأيدي المتوترة بسيوفها، وشعر ببصقات لزجة تضرب صفحة وجهه من كل اتجاه، وتمتم في جزع :

— « انني أعذركم ... ما دام هذا هو رأيكم فسأتقدم الصفوف ... »

وصاح سلام بن مشكم : « الحرب .. الحرب ... »

وتبعه هدير صاخب : الحرب حتى الموت او النصر ... »

وصاح أحد الجنود اسفل الحصن :

— « إنهم قادمون ... »

وساد هرج ومرج، وتدافع يهود خيبر من حصن « نطاه » لملاقاة المسلمين ...

وفي حصن « الوطيح » جلس بعض النسوة يشوبهن الوجوم والقلق، وعيونهن ترمق المحاربين عبر النوافذ والكوات الصغيرة، لا يصرفهن عن ذلك صياح الأطفال وضجيجهم، ووقفت زينب بنت الحارث مشدودة القامة، ثم دارت بنظراتها هنا وهناك حتى رأت صفية ابنة حيى بن أخطب وزوجة « كنانة »، فمضت نحوها، كانت صفية تجلس شاحبة الوجه، شاردة النظرات، وقد اسندت خدها على قبضتها اليمنى، وبدت الكدمة بجوار عينيها زرقاء متورمة .

— « طاب صباحك يا صفية ... »

رفعت صفية إليها عينين محتقنتين وتمتمت :

— « طاب صباحك ... »

— « فيما تفكرين ؟ ؟ »

— « أنت تعرفين ... وهل هناك شيء نفكر فيه سوى ما يجري الآن ... »

— « رجالنا يضربون في شجاعة ... صيحاتهم تشق عنان السماء، لم يتقهقروا قيد شعره ... »

قالت صفية :

— « كان في الإمكان تجنب إراقة الدماء ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لو لم نعتزم السير إلى محمد ... »

— « هذه ترهات، كان لا بد من الحرب ... ولا مجال للنظر إلى الماضي الآن ... »

— « ومحمد يا زينب لا يرد طالب صلح ... »

هاجت زينب وماجت، وقالت محتدة :

— « أنحن الذين نتقدم بطلب الصلح... الأقوياء يملون شروطهم بسيوفهم، ليس هناك شيء اسمه الصلح بالنسبة لهم ... انهم يصدرون أوامرهم فقط ... »

قالت صفية في شرود :

— « القادمون من « يثرب » يعرفون الطريق جيداً، ويعرفون مشاقه ... »

— « وأبوك ؟ ؟ »

— « أبي ؟ ؟ ماذا ؟ ؟ لقد مات »

— « من قتله ؟ ؟ »

— « لقد اختار منيته بنفسه ... كان يعرف النهاية ... »

— « لكن محمداً أمر بضرب عنقه ... »

— « مات مصرّاً على رأيه، مرحباً بالتضحية في سبيله، أنا لا ألوم أبي ولا ألوم محمداً، كلاهما كان ينشد النصر ويعمل له، وكان لا بد أن ينتصر أحدهما ... »

قالت زينب في سخرية :

— « أعرف كل شيء ... أنت مطمئنة غاية الاطمئنان، فلو قدر لمحمد الفوز لاستطاع كنز بني النضير « الذي يستحوذ عليه زوجك إنقاذكم ... إنك مطمئنة إلى ما عندكم من ذهب، وتخافين عليه ... ولتذهب خيبر إلى الجحيم ... ولتذهب المبادىء والدين إلى أية داهية ... أيتها الطامعة ! ! »

— « احذري ان تخوضي في حقي ... »

— « ها ... ها ... من أنت ... »

— « أنا صفية ... »

— « وأنا زينب ... زوجة الرجل الذي يحمل اللواء وينافح عن شرفكم الضائع ... »

تغير وجه صفية، ورقصت عيناها في اضطراب، وصرخت كمجنونة :

— « اخرسي يا ساقطة ... »

وتندى جبينها بالعرق الغزير، واخذت تلهث من الانفعال، بينما جمدت زينب في مكانها وقد هرب الدم من وجهها، وهمت بان تنشب أظافرها في عنق صفية، اكن النسوة كن قد تكاثرن حولهن، وأمسكن بيدي زينب، التي انفجرت باكية، وأخذت تخمش وجهها بأظافرها، وتشد شعرها، وتصرخ في لوعة ...

وشعرت « صفية » بغير قليل من الندم، لقد طعنت المرأة في أعظم ما تعتز به، وعلى مشهد من النسوة، وهذا لا يليق بها وبأخلاقها، ومن ثم هبت واقفة ، ومضت صوب زينب، ووقفت أمامها وقد انغضت رأسها في أسف وقالت :

— «آسفة يا زينب ... انها سقطة لسان قبيحة ... كان ما حدث على الرغم مني ، اعذريني ... فأنا لم أنم دقيقة واحدة من الليل ... إني جد متعبة ... »

وتبللت عيناها بالدموع ، ثم أمسكت برأس زينب وقبلتها نادمة ...

وعادت صفية تقول :

— « الرجال يموتون ... ونحن هنا نتصرف بلا عقل ... »

وردت امرأة :

— « لماذا لا نقيم الصلوات حتى ينصر الله رجالنا بدلا من الجدل العقيم ؟ ؟ »

قالت زينب وهي تجفف دموعها :

— « وهل يقبل الله الصلوات من ساقطة ... »

ثم شهقت باكية مرة ثانية ...

بينما قالت صفية :

— « أكرر اعتذاري يا زينب ... إن زوجك بطل مغوار، وأشهد الله إنني لم أر بعيني ما يسيء إلى شرفك ... »

قالت زينب، وقد أثلج قلبها حديث صفية الأخير :

— « الحاقدات كثيرات ... إنهن يغرن مني ... يردن أن يهدمن بيتي ويُطْلِقْنَ من حولي الأقاويل والشائعات ... لكن الجميع يعرفون من أنا، وزوجي يعرف من أنا . . »

وأخذت النسوة يتهامسن، ماذا جرى ؟ ؟ أية أقاويل وأية شائعات ؟ ؟ لا بد وأن في الأمر سراً ... وأخذت العيون الفضولية تقيس زينب بنظراتها النهمة، بل أصبح سر زينب يشغلهن أكثر مما تشغلهن الحرب المحتدمة الأوار ... وتعالت صيحات الجند أكثر من ذي قبل، وانطلقت التكبيرات تصم الآذان، فجرت النسوة صوب النوافذ والكوات، لا بد وان حدثاً كبيراً قد جرى، ترى هل انكسر اليهود ؟ ؟

وأخذ البعض يهبطن السلم ويصعدن ثانية، ويتنسمن الأنباء، وأخيراً أتى أحد الحراس القريبين، واقترب من النافذة ، واعلن بصوت جريح :

— « لقد قتل القائد ... قتل سلام بن مشكم ... »

بقيت زينب مبهوتة لحظة، ثم صرخت وقد ران الصمت على الجميع :

— « مستحيل ... زوجي لن يموت ... مستحيل ... أنتم تكذبون ... »

ثم انتزعت نفسها من بين أيدي النسوة، وهبطت السلم مسرعة، وهي تقول :

— « لا بد أن أرى بنفسي ... زوجي لا يموت ... سلام أقوى من الموت .. لقد وعدني بالنصر ... وبأن يقدم لي زوجات الرسول هدايا . وعلى رأسهم بنت ابي بكر ... سيكون لي سبايا ... هذا ما قاله ... إنني أذكر ذلك جيداً ... وسلام لم يكذب علي ولم يخدعني ... انه يحبني على الرغم من سفالتي ... إن زوجي أعظم إنسان في الوجود ... كيف يموت؟ ؟ انتم تكذبون ... »

وشقت صفوف الجند، ومضت عبر السيوف والدماء والغبار وصيحات الحرب، لم يستطع احد ان يمنعها ... يا لمصيبتها ! ! ان الراية في يد رجل غيره ... و عادت بعد فترة .. و صعدت إلى حصن الوطيح ... والنسوة يستقبلنها صامتات باكيات ... ثم ألقت بجسدها المنهك على الأرض، وهتفت في وهن :

— « لقد مات ... »

ثم تمددت على الأرض، وقد تصلب جسدها، وجحظت عيناها، وأخذت تضرب بيديها المشنجتين وساقيها في الهواء، ومن فمها تنساب رغوة بيضاء، وتصدر عنها أنات طويلة عالية على الرغم من إغلاق فمها ...

واقتربت صفية منها، واخذت تدلك لها جسدها، وتسوي شعرها، وتمسح الزبد الذي يطفر من فمها ...

ولم تفق إلا بعد وقت طويل ...

كانت أشد إرهاقاً وشحوباً ...

وتمتمت وهي تستغرق في النوم :

— « اقسم برأسك ... بدمك ... لن أفرط في ثأرك يا سلام بن مشكم ... »

الفصل السادس عشر

كان القتال مريراً قاسياً، واستمات اليهود في الدفاع استماتة كبرى، وقلّت الأقوات لدى المسلمين، وطالت المعركة أكثر مما يجب، وأصدر الرسول أمره لجنوده بأن يأكلوا لحوم الخيل، ثم أمرهم بأن يهاجموا حصن « الصعب بن معاذ » حيث ان به كثيراً من الأقوات، وقد استطاع المسلمون الاستيلاء على هذا الحصن وما فيه من طعام، واستعر القتال حتى سقط القائد اليهودي الثاني بعد أن استطاع المسلمون العبور إلى داخل حصن « ناعم » بقيادة علي بن أبي طالب، بعد أن استعصى الاستيلاءعلى هذا الحصن فترة ليست بالقصيرة ... »

قال علي بن ابي طالب لعمر :

ـ « هؤلاء اليهود كلفونا وكلفوا أنفسهم الكثير من الجهد والعناء، ماذا لو التزموا بالإنصاف، ولم ينقضوا العهود، ونعموا بالحياة، وحرية العقيدة ؟ ؟

لو فعلوا ذلك لتجنبوا وايانا شقاءً طويلاً ... »

قال عمر بن الخطاب وهو يتنهد :

ـ « كنا نظن انهم سيكونون أقرب الينا من كفار مكة لأنهم أهل كتاب ، لكني تيقنت من غدرهم وجحودهم منذ البداية، لم يتركوا فرصة لنقض العهود الا انتهزوها، ولم يجدوا أعداء لنا الا وحرضوهم علينا، وانضموا إليهم في بعض الأحيان ... وثالثه الأثافي اعتزامهم الهجوم على المدينة والاستعانة بالفرس والرومان وغطفان ... أكان يمكن أن ننتظر اكثر من ذلك، ونعرض دعوتنا للخطر ؟ ؟ لقد جاء رجال من غطفان فعلا، لكنهم جبنوا عن الالتحام في المعركة بعد أن رأوا تفوقنا، وحصارنا العنيد لخيبر... الحق ان ثقتي باليهود ضعيفة منذ البداية، ولهذا كنت أرفض سياسة المهادنة معهم، لأن معناها المزيد من المؤامرات والتخريب ضدنا ... »

قال علي :

ـ «لم يكن هناك مفر من حمل السلاح ... »

— « وهذه هي آخر جولة بالنسبة لهم ... ولست أدري ماذا يفعل بهم الرسول إذا تم النصر لنا ... »

— « كل ما يفعله الرسول خير وحق يا عمر ... »

— « ان العفو عن أمثال هؤلاء يا علي يكلفني الكثير من الدماء والقلق ... »

— « تلك إرادة الله ... »

— « الحقيقة يا علي أنهم قاومونا بعنف بالغ ... إنهم ما زالوا يضربون في حنق وشراسة. »

— « اليهود ذوو أطماع وحقد، والتعاليم الزائفة قد أتلفت عقولهم ومشاعرهم يا عمر ... وإصلاحهم أمر ميئوس منه ... وإن قوماً هذا شأنهم ، سيجلبون على أنفسهم التعاسة في كل أرض يحلون بها ... »

•

وفي حصن « الوطيح » عضت « زينب بنت الحارث » على شفتها السفلى في غيظ حتى دميت ...

— « واكرباه ... رجالنا يناضلون ويسقطون ... لكن الاعداء يتقدمون، لقد استولوا على عدد كبير من الحصون ... أية كارثة تنتظرنا ؟ ؟ ما معنى ذلك ؟ ؟ اينتهي كل شيء؟؟ اين الله ؟ ؟ هل تركنا وانصرف إلى محمد ؟ ؟ »

وكم كانت دهشتها عندما سمعت صفية بنت حيي تقول :

— « أجل ... الحق ليس في جانبنا ... »

استدارت اليها زينب بعيون تطلق نظرات شرسة وقالت :

— « ان الهزيمة تكاد تقضي على إيمانك ومعتقداتك ... »

— « لا ... كان ذلك منذ زمن بعيد ... »

صرخت زينب :

— « هل محمد على حق ؟ ؟ »

— « محمد ليس على باطل يا زينب ... »

— « ونحن ؟ ؟ »

— « أنت تعرفين ... »

— « هذا هو المروق بعينه ... لو سمعك زوجك لفصل رأسك عن جسدك ... »

— « لن يكون لديه وقت لذلك ... »

— « يا للمصيبة ! ! وهل نسيت أباك ؟ ؟ »

— « هذا أمر آخر ... »

وكم كانت دهشة النسوة حينما وجدن « كنانة بن الربيع » زوج صفية، يأتي مهرولا تلطخ الدماء وجهه ويديه، ويهتف :

— « هيا يا صفية ... لقد سقطت جميع الحصون ... لم يعد هناك سوى جيوب صغيرة للمقاومة ... »

— « ماذا تعني يا كنانة ؟ ؟ »

— « لسوف نهرب ... »

وانطلقت قهقهة عالية ...

وتلفت الجميع إلى آخر الساحة ... كانت زينب تستمع لما يحدث،

وقالت زينب بصوت مرتفع :

— « ان صاحب الكنز المخبوء لا يمكن أن يضحي بحياته ... مات الرجال ... ماتوا أبطالاً ... أما أنت يا كنانة بن الربيع فلن تموت ... ان شعورك قد مات منذ زمن بعيد ... وامرأتك هي الأخرى تزعم أن محمداً على حق ... »

طأطأ كنانة رأسه لحظات، ثم أبدى عدم الاكتراث بما تقوله زينب ومال نحو صفية قائلا :

—لم لا تردين ؟ ؟ لم يعد هناك أمل ... ان من ينجو بنفسه هو الرابح فعلاً ... العودة إلى الحرب حماقة ... لقد انتهى كل شيء ... البقاء هنا معناه الموت أو العبودية ... أتدركين الحقيقة ؟ ؟ »

وصاحت زينب :

— « الرجال الابطال لا يفكرون الا في الموت شرفاء ... اما الحثالة فلا يسيطر على أذهانهم إلا الحياة والكنوز ... »

فلم يعرها كنانة التفاتاً، وصرخ بصفية :

— « لم لا تتكلمين ؟ ؟ لم يعد هناك وقت للتفكير ... »

قالت صفية في هدوء غريب :

— « لن أرحل ... »

صفقت زينب بيديها قائلة :

— « امرأتك أشرف منك يا كنانة ... »

استدار اليها كنانة في حقد :

— « اصمتي يا فاجرة ... »

— « رمته زينب بنظرات شزراء وقالت :

— « لو كان سلام بن مشكم حيا لما جرؤت على التلفظ بهذه الكلمات الفاجرة ... »

جذب كنانة صفية من كتفها وقال :

— « كيف تفكرين ؟ ؟ لو فقدنا الفرصة الآن، فلن تعود إلى الأبد ... »

— « لن أرحل ... »

— « هل أصابك جنون ؟ ؟ »

— « بل في كامل وعيي ... »

— « انك تربطين نفسك بذل أبدي ... »

— « بل بعز الدهر ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « هذا شأني ... »

— « أتخالفين أمري ؟ ؟ »

— « مرة واحدة ... لقد التزمنا بآرائكم طول العمر. ماذا كانت النتيجة ؟ ؟ فقد اليهود كل شيء ... »

وصاح صوت أسفل الحصن :

— « يا كنانة بن الربيع ... انتهت المعركة واستسلم الرجال ... المسلمون دخلوا المدينة ... لم يعد هناك أمل في الهرب ... لا شيء سوى الاستسلام ... »

تمتمت صفية :

— « الحمد لله ... »

وارتمى كنانة على الأرض شاحباً ساهماً لا ينطق بكلمة ...

وأخذت زينب بنت الحارث تقهقه كمن اصيب بلوثة مفاجئة

— « انتظر يا كنانة ... ستهبطون السلم أذلاء ... وسيوف محمد تهوى على رقابكم ... كما حدث يوم بني قريظة ... وكنزك الدفين سيظل مخبوء إلى الأبد ... أنا أعرفك ستقدم عنقك للسياف ولا تفرط في ذهبك ... »

ثم هبت زينب واقفة، واطلت من احدى النوافذ وصاحت :

— « إليّ بفهد ... أريده على عجل ... »

أتى فهد غارقاً في الرعب والعرق والحيرة :

— « مولاتي ... »

— « فهد أنت حر منذ الآن ... »

— « آه ... لقد فات الاوان ... ليس هنا أحد يملك شيئاً اسمه الحرية ... كلنا أصبحنا أسارى في يد المسلمين ... »

صرخت بحدة :

— « أنت عبدي، وقد جدت عليك بالعتق ... أنت حر ... »

— « الشكر لمولاتي ... »

— « لم أعد مولاتك أيها الغبي ... »

ثم قالت :

— « اذهب... وعد في المساء ... ليس هذا أمراً، ولكنه رجاء ... »

— « سأتي إن بقيت حياً حتى المساء ... »

وساد الجدل واللغط، نفس المأساة القديمة، نسوة يعولون، وأطفال يصرخون، ورجال يرتمون مهدودي القوى، وكلمات ندم واعتراف بالخطأ والخيانة، واستسلام كامل للمصير، ورجال يذهبون إلى محمد يتفاوضون، ويذرفون الدموع، ويرددون عبارات الندم والاسترحام، هل من الضروري ان يتعرضوا دائماً لمأساة ؟ ؟ هل من الضروري أن يخوضوا في طريق الشوك والغدر والمكيدة ؟ ؟ »

ودخل عليهم الحجاج بن علاط تاجر اليهود ونادى بأعلى صوته :

— « يا معشر اليهود ... لقد عقدنا اتفاقاً مع محمد على أن يحقن دماءنا، ويحفظ علينا حياتنا، وأن نبقى على أرضنا على أن يكون له نصف الثمر في كل عام ... »

وساد فرح غامر، واشرقت بعض الوجوه بابتسامات عريضة ...

هتفت زينب :

— « يا للكارثة ! ! أتبتسمون للذل والهزيمة ؟ ؟ »

قال الحجاج لها في ضيق :

— « هل هناك ما يمكن عمله أحسن من ذلك ؟ ؟ »

قالت : « أجل ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « الموت يا حجاج ... »

قال في سخرية :

— « هذه قضية يحكم فيها كل فرد حكماً ذاتياً ... من أراد ان يموت فليحمل سيفه، ولينزل إلى الميدان ... »

— « ولم لا تفعل ذلك ؟ ؟ »

— « ظللت أناضل حتى آخر رمق، برغم إيماني بعدم جدوى المعركة منذ البداية، أنتم تعرفون ... وأنا الآن أعلنت إسلامي ... »

فران على الجميع صمت عميق وقالت زينب وهي تقهقه في جنون :

— « الآن فهمت ... لقد لاحت منيتك قبل أن تأتي إلى هنا ... اذهب يا حجاج بن علاط ... رافقتك اللعنة حياً وميتاً ... »

ودار الحجاج بنظراته عبر الساحة الفسيحة وقال :

— « كنانة بن الربيع ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « محمد يريدك ... »

— « أنا ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « انه الموت يا حجاج ... أعرف أنني أحمل اوزاراً من بني النضير وبني قريظة وخيبر... لكن الاتفاق لم يستثن احداً ... »

قال الحجاج :

— « اما أن تسلم الكنز أو الموت... أنسيت انك كنت تهدد المسلمين بهذا الكنز، وأنك استغللته في التحريض وإعداد السلاح، وحشد الجند؟؟ أنت لم تخف ذلك، بل كنت تعلنه صراحة أمام المسلمين وانت راحل عن أرض بني النضير ... »

قال كنانة في مسكنة :

— « أقسم لم يعد لدي كنز ... »

— « هذا أمر بينك وبين محمد ... »

وخرج كنانة بن الربيع بين قهقهات زينب وسخريتها، كان يمضي مطأطىء الرأس مرتاع الفؤاد، وعلى الرغم من اضطراب صفية، واشفاقها عليه، إلا أنها لم تستطع أن تبعد ذلك الخاطر الذي ورد على ذهنها ... آه ... تلك الرؤيا الغريبة ... ذلك القمر الوافد من يثرب ... القمر الذي يشق الظلام ... ويميل نحوها ... حتى يستقر في حجرها ... وتمتمت في شرود دون ان تدري :

— « جاء القمر ... »

قال زينب في سخرية :

— « أي قمر يا أختاه؟؟ »

— « ذلك الذي يشق الظلام ... »

— « ها ... ها ... أنت الأخرى يا صفية ستصابين بلوثة جنون ... انه بداية الحزن على زوجك التعس ... لماذا لم تسرعي معه بالهرب؟؟ سنقضي باقي حياتنا بلا قمر ... سنبقى في ظلام دامس ... »

— « لكني أراه يا زينب ... »

امسكت زينب بكتفي صفية واخذت تهزها في عنف :

— « افيقي ... ليس زوجك هو اخر الضحايا ولا أولهم ... مات سلام ... ومات ابوك ... ومات كعب بن الاشرف ... وابن ابي الحقيق ... وكعب بن اسد ... ودفعنا

ثمن حماقاتنا غالياً ... كلهن ثكالى ... أنا وانت والنسوة كلهن ... ومع ذلك فقد يعود اليك زوجك سالماً ... »

تمتمت صفية في اصرار : القمر... القمر ... »

ثم انفجرت باكية ...

•

أنكر كنانة حيازته لاي كنز ، وأبدى استعداده للموت إن ثبت كذبه، وشهد عدد من جنود المسلمين بانهم رأوا كنانة منعزلاً في مكان مهجور يحاول تسوية أرضه، فذهبوا وبحثوا هناك، فوجدوا جزءاً من الكنز ...

— « يا كنانة ... لقد حكمت على نفسك بالموت ... أججت عدة حروب، وشاركت في عديد من المؤامرات ... وموّلت المعتدين بمالك ... وما زلت مصرّاً على اخفاء ذهبك لتهدد السلام، وتفتح الثغرات لفتن جديدة ... لقد استعصى أمرك يا كنانة على كل علاج ... أنت محكوم عليك بالموت ... »

وقتل كنانة بن الربيع جزاء بغيه وعدوانه وإصراره على العناد ...

وبكت صفية بكاء مرّاً ... »

الفصل السّابع عشر

« ويحي ... ويحي ... جلل العار حياتي، والذل يهوم على رأسي، وفي عيني، وأنا بالأمس زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم ... لكني الآن إحدى السبايا ... حلمت بأن تركع عائشة تحت قدمي، ويأتي السبايا من نساء الرسول يدلكن أقدامي بالطيب ويمشطن شعري، ويحركن المراوح أمام وجهي، ويتلقفن من ورائي فتات الموائد ... كيف انعكست الآية ؟؟ زينب بنت الحارث ستذهب إلى بيت محمد لتخدم نساءه، وتمرغ شرفها العريق في الذل والوحل ! ! وامصيبتاه ! ! والخسيس بن الخسيسة « فهد » ما أن وهبته الحرية، ومنحته قلبي وجسدي حتى تمرد ... واندفع في نذالة ليعلن إسلامه، وينخرط في سلك المسلمين ... واكرباه ! ! تشبثت بأذيال ثوبه القذر ... ذرفت الدموع .. قلت له أعطيتك الحرية لتكون لي وحدي لتخفف من أسى الزمان وغدره ... فلنهرب... ولنعش بعيداً عن العيون، سأجعل من خدي لك وطاء ... وأنت العبد الحقير ... لكنه زمجر ... قائلا : لن أبيع آخرتي بدنياي ... سوف أركض إلى الله « فلتركض يا ابن اللئيمة حتى تكسر رجلك، ويدمي الشوك قدميك ... اليأس يطوق عنقي، ويغلل فكري، ويحرقني بسياط الندم ... ما قيمة الحياة بعد ذلك ؟؟ مات الرجال ... استراحوا ... لا عناء ولا ندم ولا شقاء ... ما أروع الموت من علاج! ! لكن ... أأموت بلا ثمن ... والقسم ؟؟ ثأرك يا سلام بن مشكم ... رب امرأة ضعيفة مثلي تحقق ما عجز عنه الجبابرة... أحياناً تكون الخديعة أقوى من بطولة الأبطال ... أحداث صغيرة قد تغير مجرى التاريخ والحياة ... أنا آخر وأضعف سهم في كنانة خيبر ... يا لثارات خيبر ... »

وتلفتت صفية حولها، النساء يقومون سبايا خاشعات، وفي العيون دموع، والرجال قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وينتظرون.

وصاحت زينب بأعلى صوتها :

— « يا محمد ... آمنت بك نبياً ... وبالله رباً، وبالإسلام ديناً ... »

كيف حدث ذلك ؟؟ نساء خيبر ينظرن في دهشة، والرجال ترتسم الحيرة في وجوههن، والمسلمون يطربون لكل من يفتح الله قلبه لنور الايمان، وليس غريباً أن تهتدي امرأة إلى الطريق القويم، ولو كانت زوجة سلام بن مشكم ... بل ان المتطرفين

في عدائهم، قد يتطرفون في صداقتهم اذا مالوا إلى جانب الحق ... ألم يذهب عمر بن الخطاب ذات يومٍ لقتل محمد، فاذا به ينشرح صدره للحق، ويؤمن بدعوة الله ؟ ؟

وهمست في أذنها امرأة يهودية عنيدة :

— « وزوجك وأهلك الذين قتلهم المسلمون ... »

قالت في ثقة :

— « لهم مني الوفاء والدموع ، وليس لهم الحق في إخضاعي لضلالهم وفكرهم ... »

— « لشد ما تغيرت يا زينب ! ! »

— « الاحداث الكبرى تهدم وتبنى »

— « لا تفلسفي الضعف والهوان ... »

— « أنت متسرعة ... قصيرة النظر ... »

— « لكن أؤمن بالوفاء ... »

— « وأنا ايضاً ... »

— « هذا زيف ... »

— « لكل طريقه يا أختاه ... »

وأخذت زينب تروح وتجيء في حماس، كانت تتصرف في قوة وتحد، وتعلن امام بني قومها أن الإسلام هو طريق الحق، وأن خطأ السابقين لا يلزمها بالزيغ والانحراف، كل إنسان له حق التفكير الحر والاختيار ، وقد اختارت . ألم يعف محمد عن مجرمي الحرب ؟ ؟ ألم يشفق بهم، ويجنبهم شقاء الطرد والتيه في أعماق الصحراء حيث الفقر والجدب والجوع والظمأ ؟ ؟

— « الحق أقول يا بني خيبر ، ان لنا رصيد من الخطايا والمخازي لا ينسى... وزوجي كنانة أول الخاطئين ... إن دمه لم يجف بعد، لكن الحقيقة تفرض نفسها، يجب أن نحمي ما بقي من تراث وارواح ... ألم يرد اليكم محمد صحائف التوراة التي استولى عليها ؟ ؟ لو قطع رقابنا لما لامه أحد ... ومحمد يدعو إلى وحدانية الله، والايمان بجميع الرسل والانبياء، والكتب المنزلة ... لا يعرف عصبية ولا حقداً ... ما وجدت في قرآنه طيشاً ولا زيفاً ولا اختراعاً ... »

تهامست النسوة في خيبر وتغامزن، وهم يرون زينب تعد وليمة لمحمد، سبحان مغير

الأحوال، تلك التي كانت تعقد المؤامرات في بيتها، وتحرض على القتال، وتبيع نفسها للشيطان ... أصبحت من المؤمنات بمحمد ...

وكان الرسول حريصاً على التخفيف من أثر النكبة على اليهود، يريد الاحسان اليهم، ونزع ما في صدورهم من غل، التزاماً بمبدأ الرحمة، وفتح طريق الهداية أمامهم، وعندما أولمت له زينب لم يمانع، فأحضرت شاة حسن طهيها، وتحلق حولها الرسول، وبعض صحابته ... قال احد الصحابة وهو «بشر بن البراء» في مرح :

— «لا أستطيع كبح جماح نفسي ... الجوع شديد، والجسد مرهق، والمعدة خاوية ... ما كل مرة نجد وليمة دسمة كهذه ... وأنا لا أطيق الصبر ...»

أمسك بشر ذراع الشاة بيديه، وانقض عليها بأسنانه، فاستطعمها، وازدردها في لمح البصر، وهو يتمتم :

— «يا له من طعام رائع لذيذ ! !»

أما الرسول فقد سمى باسم الله، وأمسك بالذراع الثانية للشاة. ولاك منها مضغة، فبدا الاشمئزاز والضيق على وجهه الكريم، وسرعان ما لفظ المضغة، وتلفت نحو أصحابه قائلا :

— «ان هذا العظم ليخبرني أنه مسموم ...»

فكف الجميع أيديهم عن الطعام، وهرول أحدهم لإحضار زينب. وقدمت زينب وهي ترتجف، وقد شحب وجهها، واضطربت خطواتها، وزاغت نظراتها ... قال قائل :

— «لقد دسست السم في الطعام يا زينب ...»

وقال آخر :

— «تريدين قتل رسول الله ؟ ؟»

قالت والدموع تغرق خديها :

— «حاشا وكلا ...»

وفجأة، نهض «بشر بن البراء» من مكانه، وقد تندى وجهه الشاحب بالعرق، واخذ يتقيأ كل ما في جوفه ...

قال صحابي :

— «يا بنت الجريمة ! ! انظري بشرا ...»

طأطأت رأسها، ولم يكن هناك جدوى من الانكار، وما دام أمرها قد انكشف، فلتفسر الأمور بطريقتها الماكرة، فاتجهت صوب الرسول وقالت له :

— « لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه، وان كان نبياً فسيخبره الله ... »

وصاح صائح :

— « مات بشر بن البراء مسموماً يا رسول الله .... »

تجمع الصحابة ومعهم رسول الله — حول بشر، وأخذوا ينضحون جبينه بالماء، ويدعون الله من أعماقهم ان يكتب له النجاة ...

وتمتم احد الرجال :

— « مات بشر يا رسول الله ... »

تدحرجت دمعة من عين الرسول، ونظر إلى الجسد المسجى في ألم، وتمتم ببضع دعوات،

وجاء صوت عمر بن الخطاب يقول :

— « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » ... صدق الله العظيم ... ان العدل يقتضي أن تقتل زينب جزاء صنيعها ...

واضطرب اليهود لهول الحادث، وبدا السخط في أعينهم وفي همساتهم، وأخذت التعليقات، تنطلق هنا وهناك « لو مات محمد لقتلنا عن آخرنا » ... « دائماً نقابل الاحسان بالإساءة، فكيف يثق بنا المسلمون ؟ ؟ » « إلى الجحيم ... كانت زينب بقيه الخطيئة في وكر الخيانة ... ماذا جنينا غير العار والهوان ... »

وصاح الحجاج بن علاط التاجر اليهودي :

— « يا معشر اليهود ... أثبتوا ولو مرة واحدة في حياتكم أنكم أهل للعفو والإحسان ... من أراد أن يسلم فليسلم، ومن أراد ان يبقى على دينه، فليبق معززاً مكرماً ... أما حماقاتكم فلن تجر عليكم سوى الفناء والوبال ... »

وسيقت زينب إلى الموت...

وكم كانت دهشتها حينما سمعت صوتاً يهتف من خلفها :

— « إلى الجحيم يا داعرة ... »

التفتت إلى صاحب الصوت، والذهول يخيم على نظراتها وملامح وجهها وقالت :

— « أنت يا فهد ؟ ؟ انه أبشع وداع ... »

— « ليس في قلبك الأسود ثغرة تطلين منها على النور ... »

— « لشد ما أنا نادمة ... »

— « لم يعد يصدقك أحد ... »

— « والذكريات يا فهد ... »

— « ملعونة أيامك السوداء ... »

— « كانت جميلة ... »

— « تبشين للعهد وأنت على أبواب الجحيم ... »

— « فقدت كل أمل... فليصرخ الشيطان في أعماقي ... »

— « كنت دائماً تبحثين عن الفناء ... »

— « بل الحياة ... »

— « اية حياة ؟ ؟ »

— « المجد والماضي وصحائف الخلود ... والثأر ... »

— « تحاولين ان تجعلي من نفسك شهيدة ... »

وضعت أصابعها في أذنيها، ومضت مسرعة في الطريق وهي تقول :

— « لا أريد أن أسمع شيئاً او أرى شيئاً ... ما أروع الاختباء والنسيان في احضان الموت اللعين ... »

•

وبعد فترة قصيرة هتف الحجاج بن علاط بأعلى صوته :

— « هذا جزاء الخيانة ... »

وتمتم أحد اليهود الطاعنين في السن :

— « قالها يهودي ... وهي حق ... »

الفصل الثامن عشر

موكب السبايا يسير... إنه موكب خاشع حزين، وعلى رأس الموكب صفية بنت حيى بن أخطب ، أبوها عدو لدود للإسلام والمسلمين، ومات بسيف القصاص يوم « بني قريظة »، ومحمد يذكر عداءه، ويذكر أن مؤامراته كادت تفتك بالمسلمين يوم « الأحزاب »، إن صفية تذكر ذلك جيداً وهي تسير في الموكب الحزين، لو حقد عليها المسلمون لكانوا على حق ، إنه لشيء رهيب أن تصبح صفية سبية من السبايا... يالتصرفات الأقدار ! ! امرأة تناسلت من نسل « هارون » النبي... سليلة الأنبياء... تصبح ضمن السبايا ؟ ؟ وهي ذات فضل وجمال، يحبها أهل خيبر حباً ملك عليهم شغاف قلوبهم، بل إن مصائرهم التعسة قد تضاءلت إلى جانب مصيرها...

وتمتمت احد السبايا :

– « ما كان لصفية أن تنزل هذا المنزل الذليل » وردت جارتها :

– « قضاء وقدر ... وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ... »

– « لماذا لا يتقدم أحد اليهود الذين أسلموا إلى محمد بطلب الصفح عنها ؟ ؟ »

– « هذا أمر عسير ... فهي بنت « حيى » وزوجة « كنانة » ... ثم إن الثقة بها تكون ضعيفة ... وهل يوثق فيمن قتل المسلمون أباها وزوجها ؟ ؟ »

ونظر المسلمون وعلى رأسهم النبي إلى موكب السبايا، قال عمر : من هذه التي تسير في المقدمة ؟ ؟ »

قال صحابي :

– « تلك صفية ابنة حيى بن أخطب ... »

وتهامس المسلمون فيما بينهم، إنها حسنة السمعة، أصيلة المنبت برغم ضراوة أبيها وحقد زوجها، طيبة المعشر، جميلة السمت ...، وعيون اليهود تحيطها بالرعاية والحب والتقدير، لكأنما هم مشفقون على مصيرها ...

ومال أحد المسلمين على أذن الرسول قائلا :

— « يا رسول الله ... إن صفية لا تصلح إلا لك ... »

وفكر الرسول، أيمكن أن يصفو قلب صفية، وينسى الأحقاد القديمة، والدماء التي أريقت أم أنها ستفكر في الثأر لأبيها وزوجها ؟؟ ثم ماذا يكون أثر هذا التصرف على اليهود أنفسهم في خيبر ؟؟ هل سيشعرون أن هذا التصرف قد داوى جراحهم، وخفف من آلامهم، ومحا الكثير مما ترسب في أذهانهم ؟؟

واقترب منها الرسول وقال :

— « لم يزل أبوك من أشد الناس عداوة لي حتى قتله الله ... »

رفعت عينين صافيتين إلى الرسول وقالت :

— « يا رسول الله ... ان الله يقول في كتابه « ولا تزر وازرة وزر أخرى ... »

وابتسم الرسول، لكأنما وقع هذا الكلام من نفسه موقعاً حسناً، إن صفية تحاول ان تعلن عن تبرئها من وزر أبيها، بل واعترافها بإثمه، وتبدي أمام الرسول علمها بالقانون الإلهي الذي نزل على يديه « ولا تزر وازرة وزر أخرى ... »

وقال الرسول في قوة يقين، ورجاحة عقل، وفساحة صدر :

— « اختاري ... »

فان اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي ، وإن اخترت اليهودية فعسى أن اعتقك فتلحقي بقومك ... »

قالت صفية وقد أشرقت ملامحها بالحب والإيمان :

— « يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل ان تدعوني حيث صرت إلى رحلك، ومالي في اليهودية أرب... وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني بين الكفر والاسلام، والله ورسوله أحب إليّ من العتق والرجوع إلى قومي ... »
وسرعان ما اعتقها الرسول وتزوجها ...

وعلت البسمة أفواه الرجال والنساء في خيبر، وهتف المسلمون مكبرين، ونزل النبأ برداً وسلاماً على قلوب المحاربين الذين أنهكتهم الجراح، وأمضّهم الصراع الطويل، ونامت حمأة الثأر الأعمى ...

وسار موكب العروس من خيبر إلى « دومة الجندل » — قرب المدينة — حيث سيتم اللقاء ... بين محمد وصفية ... والناقة تسير، وصفية بالهودج ... تحلم بلقاء النبي العظيم... أهي في حلم أم في يقظة ؟؟ إنها لا تكاد تصدق ما يجري. الأحداث سريعة متلاحقة ...

مات « كنانة بن الربيع » ذلك الذي لم تشعر بالحب نحوه في يوم من الأيام، والتي كانت تستمع إلى آرائه الحاقدة الغريبة بمزيد من الضيق والحنق . ويزداد بها الضيق كلما تكلم عن الذهب ... لقد وعدها ذات يوم بأن يأتيها برأس محمد هدية ... وهي اليوم تتلقى محمد هدية من السماء، والبسمة على شفتيه، ونور الأيمان يتلألأ على جبينه، وأريج النبوة يفوح من أردانه، مات كنانة ملعوناً ... لقد بكت عليه لا بدافع الحب ... لكنه الواجب ... او لعله العطف على رجل يموت... أي رجل ... لو رأت صفية غريباً مسجى على قارعة الطريق لانهمرت الدموع من عينيها، مات كنانة ... ومات معه الحقد، والحماقة والغدر، والظل الثقيل، آه ... وبالأمس البعيد مات أبوها ... لقد سعى إلى حتفه بنفسه ... اختار ... وحتى في لحظات الفراق الأبدي لم يتنازل عن رأي ارتآه ... فليتحمل نتيجة عمله ... لشد ما تألمت وبكت على الرغم من ذلك ... كانت تحبه حقيقة ... وما زالت... لكن هذا لا يعني أنها كانت تقره على تصرفاته وأفكاره ...

وبعد وقت قصير ستزف إلى أعظم انسان في الوجود ... تلك هي الحقيقة ... قال لها :

— «اختاري...» يا لها من كلمة رائعة ! ! وكان من امكان محمد ان يأمرني فأطيع ، فأنا غنيمة من الغنائم، وله الحق أن يفعل بي ما يشاء ... لكنه ابى ان يسوقني سوقاً إلى حريمه ... انه لا يقتنص الحب، لا يجعل منه مهمة تؤدى، وواجباً مفروضاً على المنهزمين.. قال لي « اختاري يا صفية » وخرجت من بين شفتيه أعزب ما تكون ... وأقوى ما تكون ... وأنبل ما تكون ... وأنا اخترتك يا قمري المنير ... عشت ليالي وأياماً طويلة أحلم بموكبك الباهر ، وانت تشق الظلمات وتهتك استار الحجب... وتفد إلى خيبر كانت رؤياي باليقين اشبه ... أكانت أحلام يقظة ، فتجسدت في المنام ... ثم تحولت إلى حقيقة ؟ ؟ يا قلبي الطموح، لم تستسلم لليأس في يوم من الأيام ... كنتُ كل مساء ... أجلس في الظلام الدامس، أناجي النجوم، وأهرب ممن حولي، وأبحث عن نورك ... كل ما حولي كان يوحي بالشك، والمقت والحيرة ... وكلما اشتد حقدهم عليك، وثارت ثائرتهم، ازددت بك إيمانا .. وأيقنت أنك صادق أمين... ودق قلبي لأفراح النبوة حينما سمعت بمقدمك... كنت أجلس في الحصن المنيع ، منطوية على نفسي ، مغمضة العينين، أتخيلك قادماً يكلل محياك شرف الدنيا ومجد الآخرة ، وصدق الحقيقة ... وانا ممن يبحثون عن الحقيقة... وازداد بحثي عنها عندما مات أبي... وتخفيت وراء ملابس الاحزان والحداد كي انفرد بنفسي ، وابحث عنها ... انت ينبوع الحقيقة يا محمد ...

— آه ... لكم تقلبت في فراش النعيم والأبهة، ودرجت بين آباء ملوك ... حولي الخدم والحشم، وتحت أقدامي الذهب ... آمُرُ فأطاع ... ولم استشعر السعادة والسلام والرضى الا عندما رأيتك يا نور القلوب وربيعها... آه ... أحببتك وأنت وحدك في مكة تدعو إلى الله، وتتحمل العناء والعذاب، وترفض المساومات ... وأحببتك وأنت تهاجر واثقاً بنصر

الله ... واحببتك وأنت تخوض المعارك القاسية ... يا أشرف محارب ... وأنت تقاوم الجموع وعلى رأسهم أبي، وتحطم كبرياء المغرورين والموتورين ... وتخرج من كل ملحمة، قوي البأس، مشرق الوجه، تنفض عن جبينك الطاهر التراب والدم الغالي ... ثم تكبر للصلاة ... أنت لم تقتل بني قريظة ... هم قتلوا أنفسهم ... قتلهم ابي، أنت لم تقتل اليهود ... بل قضيت على رذائل الإنسانية ... ودمرت الحقد والدس والمكيدة ... فالثعابين لا تترك البشر ينعمون إذا ما انطلقت من جحورها ... يا واهب الأفراح لقلبي التعس ومشعل فكري بنور الحقيقة ... يا نبع الحب والنظام والأمل ... يا فَجْرَ حياتنا الجديدة.

وافاقت صفية من أحلامها على صوت الرجل الذي يأخذ بعنان الناقة وهو يقول :

— « هنا دومة الجندل ... »

وتمتمت صفية وقد دق قلبها، وتوردت وجنتاها :

— « وأين القمر ؟ ؟ »

ومضت ليلة من العمر لا تنسى، وهي من روعة تحقيق الحلم، كأنها في حلم ... وافتر ثغر السماء عن شمس مضيئة دافئة، ونظر الرسول إلى الكدمة الزرقاء اسفل عينها وقال :

— « ما هذا ؟ ؟ »

— « انه حادث قديم يا رسول الله ... أثر باق يذكرني بحلم رأيته ذات ليلة .. رأيت في المنام أن قمراً أقبل من يثرب، ودخل في حجري، ولما استيقظت من نومي تولتني من أمر رؤياي دهشة، ولم أجد إلا أن أصارح بها زوجي «كنانة بن الربيع» الذي ما أن قصصت عليه الرؤيا حتى اربدّ وجهه وعبست ملامحه، وضرب وجهي وهو يقول : كأنك تحبين أن تكوني تحت هذا « الملك » الذي يأتي من المدينة ... ولقد صدقت الرؤيا يا رسول الله، وأني لأحمل منها هذا الأثر الذي رأيت... »

وتحرك ركب المنتصرين إلى المدينة ...

وحظى أمر صفية باهتمام بالغ، بين نسوة المهاجرين والأنصار، ونسوة الرسول، وتقاطرن صوب بيت الرسول، محجبات مسدلات النقاب على وجوههن... ومن غير صفية ذات الجمال والفضل والتاريخ العريض يمكن أن تحظى بهذا الاهتمام البالغ؟ ؟ أبوها شغل العرب بحيله ودهائه، ومصرعه كان حكاية تروى في المجالس، وزوجها صاحب الكنز والتهديدات المعروفة ... وقومها في خيبر كانوا يشكلون خطراً دائماً ضد الاسلام والمسلمين ... إن صفية رمز لقصة مثيرة، ونهاية لمأساة كبرى، ومال الرسول على عائشة، وقد اختفت وراء نقابها متوهمة أن الرسول لن يعرفها، وقال :

— « كيف رأيتها يا عائشة ؟ ؟ »

لم تستطع عائشة — كامرأة — ان تخفي معالم غيرتها، أمام ما رأته من جمال جذاب، وشخصية قوية أخاذة، وعراقة تبدو على ملامحها وكلماتها وتحركاتها، وأمام انشغال الناس بأمرها، وهزت عائشة كتفيها وقالت :

— « رأيت يهودية ... »

قال الرسول في رفق : « لا تقولي هذا يا عائشة، فانها قد أسلمت فحسن إسلامها ... »

وهل بعد الاسلام شيء يستطيع ان يمحو أدران الماضي، ويلغي فوارق الجنس واللون والحسب ؟ ؟

الفصل التاسع عشر

ساور « الحجاج » بن علاط – التاجر اليهودي بخيبر – القلق والتوجس، بعد انتصار المسلمين وإعلانه اسلامه ، وكيف لا ينتابه القلق، وهو صاحب تجارات واسعة، وله أموال كثيرة في مكة، لو علم أهل مكة بإسلامه، فلسوف يحقدون عليه، ويمنعون عنه ماله انتقاماً منه، ولم يغب هذا الموضوع عن ذهن « الحجاج » منذ البداية، فقد فكر فيه طويلا وعرض الأمر على الرسول، واستأذن الرسول في أن يلجأ لبعض الحيل التي قد تكلفه نوعاً من الكذب حتى ينال حقه. وأسرع « بن علاط » إلى مكة، فوجدها تنتظر على أحر من الجمر، متلهفة لأنباء حرب محمد مع يهود خيبر وحينما وقعت أعينهم عليه هرولوا نحوه ، وأخذت أسئلتهم تنصب في أذنيه كثيرة مختلفة، وابتسم الحجاج وقال :

– « أريد مالي أولا ... لسوف أزف اليكم بشرى ما حلمتم بها قط ... »

قال أحده :

– « لئن كانت بشرى كما تزعم فأنا ضمين برد كل مالك ... »

– « اذن فاسمعوا » ... افتحوا آذانكم جيداً ... انها أخبار سوف تهزكم هزاً شديداً ...

هدرت أصواتهم مختلطة متعطشة :

– « قل ولا تخف شيئاً ... »

تنهد بن علاط وقال :

تنهد بن علا وقال :

– « يا لها من حرب... مات فيها خلق كثير... وسالت الدماء أنهاراً ... محمد لم يكن يصدق ما يجري أمامه، كان يظن أنها يوم أو بعض يوم ثم يعود منتصراً إلى يثرب، يجر خلفه الغنائم والسبايا ... الحق أقول ... فقدنا عدداً كبيراً من خيرة رجالنا ... ملحمة لا تنسى أبد الدهر... وأخيراً ...

صاحوا بصوت واحد :

— « ماذا ؟ ؟ »

— « انهزم المسلمون وولوا الأدبار... وأسلموا سيقانهم للريح... لكننا كنا لهم بالمرصاد... ولحقنا بهم وأشبعناهم تقتيلا وجراحاً ... وفتن أصحاب محمد، وتبرؤا من دينهم ... لقد جردت الهزيمة ما كانوا فيه من وهم وخداع ، أيها الرجال ... لم نعد من مطاردتهم الا بعد ان أخذنا منهم عدداً كبيراً من الاسرى ... ومن بين هؤلاء الاسرى محمد ... »

صاحوا وهم لا يكادون يصدقون :

— « محمد ؟ ؟ »

— « أجل ... محمد بن عبد الله ... انه سجين في خيبر الآن ...

ويثرب لم تحرك ساكناً، لقد انطوت على جراحها، واخذت تبكي على قتلاها ... ولن تقوم لها قومة بعد الآن، ولو فكرت في غزونا ثانية فلسوف نقتل محمداً ... ومن معه من الأسرى ... وهذا ما اخطرناهم به ... »

تصايح الرجال واخذوا يهتفون فرحاً وشماتة، لكن بعضهم أطرق كسيف البال، دامع القلب، إن الحدث كبير لا يصدق، وسرعان ما انتقل من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت، وتوافد الرجال من كل صوب يشنفون آذانهم باستعادة القصة من الحجاج بن علاط ، وصاح فيهم الحجاج آخر الامر :

— « لقد مللت تكرار السرد ... أريد مالي ... »

وسرعان ما احضروا له ماله، بل اضافوا له بعض الهدايا للبشرى السعيدة... ووقفت هند ترقص في بيتها، وكأنها فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، وقالت ووجهاً يتطلق بشراً :

— « الرهان يا أبا سفيان ... »

ضرب أبو سفيان كفا بكف وقال :

— « هذا أمر عجيب، انني لا أكاد أصدق، أنا معك في أن رجال خيبر شديدو المراس، أقوياء الشكيمة، لكن ليس من السهولة أن يسقط محمد هذه السقطة، إنه يعرف جيداً مواقع خطوه ويعرف متى يهاجم ومتى ينسحب، ولكلماته سحر عجيب. وتفكيره في المعارك من أبرع عا عرفت العرب في قديمها وحديثها ... »

ثارت في غيظ :

— « أو عندك شك في مقالة بن علاط؟ ؟ انه قادم من المعركة وعلى كاهله جراحه ... دائماً تحاول يا أبا سفيان أن تفسد عليّ متعتي ، وأنا في أوج سروري وهنائي... ما أعظمك

يا يوم خيبر ... فشلت مكة، وانتصرت خيبر ... لسوف يُعْزى الفضل كل الفضل لليهود أبد الدهر ... قلت لك انطلق لتشارك في اجتناء النصر العظيم قبل فوات الأوان، لكنك تقاعست... خفت بأس محمد، وقلت بيننا وبينه عهد، انك لا تعرف متى تثب ومتى تقر ... »

وصمتت برهة ثم عادت تقول :

— « الرهان يا أبا حنظلة ... »

وهرول عكرمة بن أبي جهل إلى بيت خالد بن الوليد، وقال :

— « جئتك بما لم يجئك به بشر قبلي ... »

— « خيراً ... »

— « هزم محمد في خيبر، ووقع في يد اليهود أسيراً ... »

شحب وجه خالد، وهب واقفاً وقال .

— « ماذا ؟ ؟ »

— « مقالة قالها الحجاج بن علاط تاجر خيبر اليهودي ... شارك في المعركة، وروى لنا تفاصيلها ... »

— « لقد سمعنا بموت سلام بن مشكم، والحارث بن أبي زينب وغيرهم من رجالات اليهود في أيام المعركة الأولى ... »

— « أجل يا خالد... مات خلق كثير ... لكن النصر كان لخيبر ... »

وران الصمت على خالد، بينما استطرد عكرمة يروي التفاصيل نقلا عن ابن علاط، واخيراً قال خالد :

— « يبدو أن في الأمر خدعة ... »

— « انك تهول في الأمر، ولماذا الخدعة ؟ ؟ »

— « ألا يجوز ان يكون محمد قد انتصر، وان ابن علاط أصبح من اتباعه، وأن محمداً قد أرسله لكي يخدعنا، وننصرف إلى اللهو والأفراح وقصائد الشعر، ثم نلتفت فنجد محمداً قد حاصر « مكة » فجأة، وأخذها على حين غرة ؟ ؟ »

وأخذ عكرمة يقهقه حتى كاد يستلقي على قفاه :

— « ليس محمد من السذاجة بحيث يتصور الآن أنه قادر على غزو مكة إن صح ظنك..
ثم أخذ عكرمة يلوح بيده قائلا :

— « الرهان ... أولا... »

— « لا بد أن أتأكد من ذلك بنفسي ... »

— « لسوف يخرج من مكة جمع غفير، وسيشدون الرحال إلى خيبر ليروا محمد السجين... انها فرصة العمر ... انني لا أكاد أتصوره حبيساً وحيداً ... وجموعنا تدور حوله والكلمات الجارحة، والسخريات المرة تنهال عليه ... بل وما هو أكثر من ذلك ... آه ... انتهى محمد ... وانتهت اكبر خدعة عاشها العرب في تاريخهم الطويل ... »

وتمتم خالد :

— « وسيعود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير... وسترضخ الجزيرة لسلطان اليهود المنتصرين ، وسيفرضون علينا الذل والعار أبد الآبدين ... ألم تفكر في ذلك يا عكرمة ؟؟ »

قال عكرمة ، والفرحة الغامرة تلمع في عينيه :

— « لم أكن افكر في غير شيء واحد ... »

— « ما هو يا عكرمة ؟ ؟ »

— « القضاء على محمد بأية وسيلة ... أية وسيلة ... »

— « أيها الأبله المسكين... لقد كنت أفضل ان ينتصر علينا محمد أو ننتصر عليه، أما أن يكون النصر لليهود، فهذه كارثة لن تبدو آثارها إلا في قابل الأيام ... لسوف نلغ في بحار من الدماء، وستزداد الفتن والاضطرابات، وسيفرض اليهود على العرب الخراب والدمار والصراع الدموي الدائم، حتى لا يخرج لهم من جديد رجل كمحمد ... »

وقهقه عكرمة ثانية وقال مازحاً :

— « أتعتقد أن جبريل يستطيع الآن أن يخترق أسوار السجن، ويغافل الحراس، ويفتح الأبواب الموصدة ، كي يذهب بوحي جديد لمحمد ؟ ؟ »

لم يشاركه خالد الضحك والمزاح، ولكنه قال :

— « ليس لقدرة الله حدود ... »

— « خالد ... أو تشك ؟ ؟ »

— « كل الشك ... »

— « لكن محمداً أسير ... »

— « ان كان كذلك، فلسوف يصحون ذات يوم ولن يجدوه ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « انه قادر على اقناع أعتى السجانين بمنطقه ... »

— « لكنهم من وقحاء اليهود ... »

— « إن الأمر كله يبدو غريباً غاية الغرابة ... »

وبلغت الأنباء الخطيرة مسامع « العباس » عم الرسول في مكة، ولم يكن مسلماً ومع ذلك فقد توترت أعصابه، وارتعشت عضلات جسده، واجتاحه غم شديد ، وتمتم : « لو كان لي قوة أزحف بها صوب خيبر لتحرير محمد، وتأديب اليهود، لما تقاعست لحظة ... آه .. أأنادي في قريش لعلهم يستجيبون لداعي النجدة والمروءة لينقذوا ابن أخي من أيدي الماكرين ؟ ؟ ما الحيلة ؟ ؟ انني أكاد أجن ... ليس في استطاعتي أن أخرج إلى الناس، ان العار سيلاحقني أينما ذهبت ... محمد شريف وابن أشراف ، ومحمد صادق أمين، ولو وضع قرآنه مقابل توراة اليهود لظهر لكل ذي عينين، أنه أجدر منهم بالتصديق والاتباع ، كيف تخلى عنه إلهه ؟ ؟ أن الأمر جد غريب لا يصدق ... »

وزحف المساء ... فتستّر العباس بالظلمة، وانفلت إلى حيث يأوي « الحجاج بن علاط » وتلفت يمنة ويسرة قبل أن يدخل عليه، وعندما لقيه، قال وقلبه يخفق :

— « يا حجاج بن علاط ، أيها الرجل الطيب ... أخبرني الخبر ... لا تخفي شيئاً ولو كان محزناً ... أنت تعلم أن محمداً ابن أخي... »

ابتسم الحجاج بن علاط وقال :

— « أنت في الذؤابة من الشرف ... أتعدني أن تخفي أمري اذا صدقتك الحديث ؟ ؟

— « أقسم على ذلك، ولو ضحيت بحياتي ... إلى أن ترحل عن ديارنا »

قال الحجاج :

— « ابن أخيك بخير ... وقد دانت له خيبر ، وانتهى سلطان اليهود إلى الأبد ... وانا تابعته على دينه، ولقد لجأت لهذه الحيلة حتى أجمع مالي من رجال مكة ... »

وثب العباس إلى الحجاج، وأمطر رأسه ووجهه وكتفه بالقبلات...

وتمتم بن علاط :

— « أتحبه لهذه الدرجة ؟ ؟ »

ولما لم يجب قال :

— « ولماذا لا تؤمن بدعوته اذن ؟ ؟ »

— « هذا أمر آخر يا ابن علاط ... »

وأخذ الحجاج يضرب كفاً بكف ويقول :

— « ان أمركم لجد عجيب... أنا لا أعرف هل مكة تحب محمداً أم تكرهه، كنت أرى الدموع تمتزج بالابتسامات، وأنا أروي مقالاتي، والفرحة متوشحة بالحزن، هل تحبونه أم تكرهونه ؟ ؟ أريد أن أعرف ... »

وانصرف العباس سعيداً، لا تكاد الدنيا أن تسع فرحته ...

وفي الصباح لبس العباس أفخر ثيابه وذهب إلى البيت الحرام يطوف به، وقال له أحد الرجال :

— « انك تتجمل بالصبر ، وتلقى الكارثة في ابن اخيك بالتجمل والهدوء، وهذا شأن الرجال الشرفاء الاقوياء ... ان المصاب فادح، لكن كان لا بد أن تكون هذه هي هذه هي نهايته ... »

ابتسم العباس وقال :

— « انني أطوف البيت شكراً لرب البيت ... »

— « ولم الشكر يا عباس ؟ ؟ »

— « دانت خيبر لابن أخي ... وأسلمت قيادها له، وعاد بالغنائم وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب ... لقد انتصر محمد ... خدعكم بن علاط ليأخذ ماله ... وهو الآن في الطريق إلى يثرب ... وابن علاط قد أسلم وحسن اسلامه ... »

وسرى النبأ في كل الارجاء، واهتزت مكة من جديد، واحتد الجدل والنقاش، وتكومت هند على فراشها محتقنة العينين، ثائرة النفس، ومال عليها ابو سفيان وقال مداعباً : « الرهان ... » فدفعته في صدره دفعة قوية، كاد يسقط على أثرها، وذهب خالد بن الوليد إلى عكرمة، وهمس في أذنه « الرهان ... »

وأخذ عكرمة يصر على أسنانه في غيظ ويقول :

— « لقد خدعنا هذا اليهودي الماكر ليأخذ أمواله، لو كنت واثقاً من اللحاق به، لطاردته، ومزقته إرباً إرباً، وجعلته طعاماً لوحوش البرية ... »

وتمتم خالد في شرود :

— « آه ... انني اكاد اقرأ سطور المستقبل ... انني اراه يسير برجاله المؤمنين ، وينشر دعوته ، فتدين له القبائل ، وتعلو رايته، وأراه وهو قادم ذات يوم إلى مكة ، وكل واحد من أعدائه يتقدم نحوه يعلن قبول دعوته ... والبعض يولي الادبار فاراً بحياته إلى عالم المجهول ... انني أراه وهو... »

قاطعه عكرمة قائلا :

— « ماذا ؟ ؟ هل جننت يا خالد ؟ ؟ ان الوهم قد بدأ يسيطر على ذهنك أنت الآخر...

ان خيبر لم تكن بالصورة التي توهمناها، لو أعطيتموني ألفين من الرجال لفتحت خيبر في ليلتين ... »

قال خالد مقهقهاً :

— « والرهان ... »

— « اننا كنا نمزح ... مجرد أمنيات لم تتحقق ... »

تنهد خالد وقال :

— « سنظل نمزح ونتوهم حتى نفقد كل شيء ... »

ثم استدار إلى عكرمة وقال في جد :

— « لماذا لا نصرف جهودنا منذ الآن في البحث عن الحق، فإن كان في جانب محمد اتبعناه، وان كان في جانب اليهود اتبعناهم وإن كان في جانبنا متنا دونه ؟ ؟ ؟

هتف عكرمة في شيء من الضيق :

— « هذه قضية لا تشغلني الآن ... لقد عرفت الحق منذ زمن بعيد ... »

— « واين هو ؟ ؟ »

أشار عكرمة وقال :

— « هنا ... في قلبي ... »

— « يا للكارثة ... الحق ليس أمراً ذاتياً ... انه شيء يخص الجميع ... ان مجاله الفكر وليس النزوات ... »

— « انك تعقد الأمور بطريقة غريبة ... »

رماه خالد بنظرة ذات معنى ... وسكت ...

الفصل العشرون

هز أبو بصير رأسه الكبير في تحد وقال :

ـ « ان أية قوة في الوجود لن تستطيع ان تستلب مني حقي المقدس في أن افكر وأن اعتنق ما أريد من مبادىء ، هذا الحق لا سيطرة للاتفاقات عليه، الحرية شيء نتنفسه كالهواء ... »

قال له صديقه :

ـ « يا أبا بصير ... لا تتعجل الامور، واعلم ان اتفاقية « صلح الحديبية » قد اعطت قريشاً الحق في أن تسترد رجالها الهاربين إلى محمد ودينه، اذا ما فروا دون موافقة ساداتهم.. »

حملق بعينين واسعتين محتقنتين وهدر :

« ان محمد لا يملك الحق في حرماني من اعتناق الاسلام ... »

ـ « أجل ... تلك قضية أخرى ... لكنه سيردك إلى مكة ... »

ـ « أرض الفجور والحقد الأعمى ... »

ـ « ألم يعد محمد بأن الله سيجعل لنا مخرجاً ؟ ؟ »

ـ « ولماذا لا نبحث بأنفسنا عن هذا المخرج... ان الله لا يقدمه هدية للكسالى ... يجب ان نكدح ونشارك في النضال ... ولن تزحزحني قوة في الأرض عن فعل ما أريد... »
ولوح أبو بصير بذراعه القوية في غيظ، وجلس ساهما يفكر، كان قوي البنية، صلب الارادة، ثائر العواطف، انه يعاني مشكلة عجيبة، والطريق يبدو مسدوداً ضيقاً ومحفوفاً بالمخاطر أيضاً، لقد مال إلى الاسلام، ويحلم ليل نهار باليوم الذي يصبح فيه واحد من ذلك المجتمع الفاضل الكبير ... يحيى حياته، ويمارس شعائره، ويحمل سيفه، ويفكر مثلما يفكرون، ويجلو الصدأ عن نفسه المرهقة التي طال عليها الحرمان والرسوف في قيود العبودية والجهل والهوان ... وعشرات مثله في مكة بل مئات إن لم يكن ألوفاً يريدون ان ينطلقوا من إسار الذل والمعتقدات التافهة، لكن صلح الحديبية يعطي مكة الحق في استرداد أبنائها « المارقين » ... ومحمد لن يغدر بعهده ... ماذا يفعل؟؟ أيذهب إلى

سيده ومولاه ليعلن امامه صراحة كلمة الحق، وليدفع الثمن مهما كان غالياً ؟ ؟ قد يكون في ذلك شيء من الحماقة، بل إن مولاه قد يجرد سيفه ويطيح برأسه، لسوف يموت ابو بصير شهيداً، لكن كثيرين غيره في مكة، قد يلجمهم الروع عن ارتياد طريق الحقيقة، سينتصب شبح الخوف مارداً جباراً، يرد الإيمان عن قلوب الظامئين إلى نور الله ... لا... ليس هناك سوى وسيلة أخرى ... فليذهب ابو بصير تحت جنح الظلام إلى المدينة ... إلى محمد ... وليثر المشكلة بطريقة عملية، وليجعل منها موضوع الساعة، أما الرضى بالذل والخوف، والاستسلام للضعف فهو أمر لا يرضاه الله ولا رسوله ولا المؤمنون ...

وأفاقت مكة ذات صباح ... وانتشر النبأ مع الصباح الوليد في كل مكان ... لقد اختفى أبو بصير ... ولى هارباً إلى المدينة ... وقال بعض المتصلين به انه كان يخفي إسلامه، وانه بالتأكيد هرع إلى محمد ... وابتسم مولاه في غيظ بالغ :

— « لسوف نسترده على الرغم منه ... سيعود وأنفه في الرغام، وسأجعل منه أمثولة وأضحوكة لصبيان مكة ومجتمعاتها ... وسنبعث في طلبه على الفور... » وأيا كان الأمر فان أئمة الشرك في مكة قد أغاظتهم فعلة أبي بصير ... وتمنوا ان يقع في أيديهم — وسيحدث ذلك بالتأكيد لان محمداً لا ينقض اتفاقه — حتى يذيقوه العذاب والنكال، ولم يكن عكرمة بن أبي جهل يعبر عن المشكلة تعبيراً صادقاً حينما قال :

— « ان أبا بصير رجل تافه حقير، لا وزن له ولا قيمة، لست أدري لماذا تقيمون الدنيا وتقعدونها من أجله ؟ ؟ »

رماه أبو سفيان بنظرة فاحصة وقال :

— « ان ذهاب سيد من السادة إلى محمد لا يعدو امرا ذا بال في نظري، أما تمرد الموالي والعبيد وعامة الناس فهو مشكلة المشاكل يا عكرمة، انه يغير هذه الطبقات الدنيا، لن يكون لنا مجد أو دين، ولن نخوض معركة ... انهم عماد الحياة ... تلك حقيقة لا مراء فيها ... »

هتف عكرمة في امتعاض :

— « اذن فلتقيموا المآتم من أجل فرار مولى من الموالي ... »

— « لا... ولكن لن نتهاون في استرجاعه، والا فر من مكة كل يوم احد المارقين... »

والتفت أبو سفيان إلى خالد بن الوليد قائلا :

— « ما رأيك يا خالد ؟ ؟ ؟ »

— « ان رأيي قد لا يعجبك ... »

— « قل ... »

— « أوه ... اننا يا ابا سفيان بتصرفاتنا تلك، نمتهن كرامة الانسان وكرامتنا ايضاً ... »

— « كيف ؟ ؟ »

وانتبهوا جميعاً لكلام خالد ...

— « حسناً ... من العار ان نرغم الناس على اعتناق مبادئنا بالإكراه، إذا عاد أبو بصير فلن يحمل لنا ذرة من الإخلاص والاحترام ... ثم إن ذهابنا إلى محمد فيه معنى التوسل والصغار ... يجب أن نفتح الأبواب على مصارعها، فمن أرادنا فليأت الينا، ومن أراد محمداً فليذهب إليه ... ولن يبقى معنا إلا المخلصون الأوفياء ...

ولن يذهب إلى يثرب الا الضعاف والمترددون ... ونحن لسنا بحاجة إلى هؤلاء ... ان وجودهم بيننا عبء علينا ... فلم تصرون على التشبث بأمور لا خير فيها ... انسيتم ان محمداً رفض ان يسترد اليه مسلماً هرب الينا ؟ ؟ لماذا ؟ ؟ لان مثل هذا الآبق وقد خرج من دينه لا يستحق شرف الانتماء إلى قوم شرفاء، ولن يناضل عن عقيدة ... »

وساد الصمت، وتأرجحت العيون في المحاجر، ودلفت عند ذلك زوجة أبي سفيان فجأة وقالت :

— « أي امتهان لكرامة الإنسان تقصد يا خالد ؟ ؟ هل لأبي بصير كرامة ؟ ؟ انه مولى خائن، ومعروف أن هؤلاء ليس لهم كرامة، السياط وحدها كفيلة بردعه واستقامته، لقد أصبح العصيان والتمرد آفة هذه الأيام، الموالي والعبيد يتسترون وراء المبادىء لينفثوا عن أحقادهم وضآلتهم ... هم ليسوا شيئاً على الاطلاق ... وعندما يريدون أن يكونوا شيئاً فلا بد أن نحطم رؤوسهم، والا فسد نظام الكون، واضطربت أمورنا في مكة.. »

قال وحشي بن حرب قاتل حمزة، والذي نال حريته ثمناً لجريمته :

— « نعم الرأي رأي هند ... »

وتمتم عكرمة بن أبي جهل :

— « ان فلسفة الضعف والخور تتسرب إلينا، وتلوث فكرنا كلما مرت الأيام ... الصرامة والعنف هما القادران على كبح جماح العامة، أترى اذا تمسكنا بحقوقنا، وببنود الاتفاقية المعقودة بيننا وبين محمد نكون قد امتهنا كرامتنا وكرامة الانسان ؟ ؟ اي قول هذا يا خالد ؟ ؟ التزم خالد جانب الصمت، ولم يعلق بكلمة واحدة ...

وفي مكة خلق كثير يؤمنون بالله الواحد القهار، ويحلمون بالانطلاقة الرائعة إلى يثرب أرض النور، يظلون الليالي الطويلة يتخيلون الجياد تنهب بهم الأرض نهباً، يحدوها الشوق العارم، ويدفعها الحنين الجارف إلى رجال الله الأتقياء، حيث الأخوة الصادقة الصادقة والعدل والرحمة والتواضع... والنظام...

حيث ينمو الامل ويتعاظم ويورق بالخير والعطاء والسعادة...

كانوا يتحسسون أنباء أبي بصير في لهفة، فقد يكون نجاحه بداية عهد جديد لهم، وهم لا شك تمزقهم الحيرة والخوف، فأما أن يقبله محمد ويرفض ذلك البند الجائر في نصوص الاتفاق الحديبية، ويطالب قريشاً بإلغائه، وإما أن يعيد أبا بصير إلى موطن الكفر والقسوة والانتقام، وذلك كارثة ما بعدها كارثة... »

الفصل الحادي والعشرون

وانطلق أبو بصير عبر الصحراء المترامية الأطراف، يغالب الإرهاق والظمأ والحر الشديد، ونوازع الخوف في نفسه، يستطيع الآن أن يقول أنه قد قهر وساوس الضعف والخوف، كان لا بد أن يبدأ حياته الجديدة ... والخطوة الأولى تحتاج إلى جرعة مضاعفة من الشجاعة والإرادة، وفي كلمات محمد وسيرته وحياة رجاله ومعاركهم ... فيها ألف ألف جرعة لمن يريد، وابتسم ابو بصير في رضى على الرغم مما يعانيه من وحدة وتهديد وظمأ وجوع، كان في الإمكان أن يمضي في دروب الحياة المملة السقيمة كما يمضي آلاف غيره في مكة وأن يجنب نفسه الكثير من العناء والمخاطر، ولم يكن الرجل يقاسي من بوس كثير على أية حال، لكن كيف ؟؟ أية حماقة يرتكبها وهو يتجنب النور، ويخوض في أشواك الظلام وأوحاله ؟؟ والفرق جد رهيب بين ما يحدث في يثرب وما يجري في مكة، والهوة سحيقة بين حقائق محمد المجلوة المقنعة، وسخافات أبي سفيان وصحبه ... هل أصبت بالعمى حتى أركن إلى حياة العفن والفوضى والكبرياء الفارغة . واسد أذني عن دعوة الله؟؟

وأبو بصير يشعر براحة كبرى، راحة الرجل الذي يفكر في اطمئنان وأمان، ثم يختار عن طيب خاطر، ان تمارس ما تشاء، وتعتنق ما تؤمن به ... شيء رائع ... رائع للغاية ... تلك هي الحياة الحقة، على الرغم مما يشوب ذلك من أخطار... أية أخطار؟؟ أبو بصير سيفه في غماده وحياته ملك يمينه، ولن تستطيع قوة في الوجود أن ترغمه على شيء ... الموت ولا ذلك ... ثم ما هو الموت ؟؟ الموت هي أن تحيى مسلوب الفكر والإرادة والحرية والاختيار بين قوم قساة حاقدين، وقد اغلقوا مسامعهم ونوافذ عقولهم عن أي كلام ...

وفي نهاية المطاف بدت له يثرب بنخيلها وهدوئها وجلالها كالجنة ... قد لا يرى فيها إنسان آخر ما يراه أبو بصير ... وأبو بصير قد يجد السعادة القصوى في خيمة صغيرة على الطريق، ويرى مساحتها الضيقة، وبضعة تمرات فيها، أبهى من قصر كبير يغص بالمتع والنعيم ... إن خياله يضفي على الأشياء المادية والمعنوية صورة جديدة تماماً نابعة من فكره وأشواقه ...

يثرب هي الجنة، ومن فيها هم ملائكة أطهار، ومحمد هو الأمل والرجال، ومعقد

الكرامة والحب والخير والفضيلة، والجحيم هو الماضي بكل ما يحمل من هموم وحيرة وفوضى وعبث ...

— « السلام على أهل الحي... »

— « عليك سلام الله ورحمته وبركاته ... »

— « أبو بصير جاءكم ينشد النور، ويهرع إلى ظلال الإلهية ... »

اشرقت الوجوه بالنور :

— « حسناً فعلت ... »

— « جئت أشد الرحال إلى أرض الأطهار ... »

— « لأنت أخ كريم حباك الله بفضله ... »

تلفت يمنة ويسرة، ثم قال في سعادة :

— « دلوني على محمد ... »

— « لكن يبدو عليك الظمأ والجوع والارهاق ... انتظر لحظة ... لسوف نأتي لك الماء والزاد ... »

شرد وعيناه تفصحان عن مشاعر لا يمكن وصفها .

— « أين الطريق إلى الحبيب ... »

وأفاق من شروده على كأس من الماء البارد، وسطل من اللبن الحليب، وطبق به تمرات شهية ... وتمتم بعد أن سرت الحيوية في جسده، وتندى جبينه ببضع قطرات من عرق :

— « عندما أراه، سألقي تحت قدميه بالماضي وأحزانه، وأسلمه روحي وحياتي، وأقول له ابو بصير قد وهب الله حياته وكل ما يملك ... وما أملكه قليل ...

— « بشراك يا أبا بصير ، والرسول يسعد بعبد أتاه مسلماً أكثر من سعادته بملء الأرض ذهباً وفضة ... »

— « لا تتحدثوا عن الذهب والفضة، بل تحدثوا عن المعدن الغالي الاصيل الذي غطاه التراب... »

— « أي معدن يا أبا بصير ... »

— « معدن الإنسان ... ذلك الذي جلاه محمد، وأزاح عنه التراب والجحود والعذاب... »

— « صدقت ... »

وقال أبو بصير في انفعال :

— « دلوني عليه ... »

وقدم إليه رجل وقال :

— « اليك فخذ شاة ورغيفاً ... »

أشاح بوجهه عن الطعام وقال :

— « يا صحاب... دعوني أمض ... فما بي حاجة إلى دليل ... سأجده هناك ... انه ينتظر... وما بحث عنه إنسان إلا ووجده ... فهو مملء السمع والبصر والمكان انه حقيقة كبرى فاضت بها رحمة الله ... »

وامتطى ناقته ومضى في هرولة، وصاح من خلفه رجل :

— « ستجده بالمسجد يعبد الله أو يحدث الناس ... »

وتهامس الجالسون : « هذا رجل صالح... فيه خير كثير ... »

لا يستطيع أبو بصير أن يصور لحظات اللقاء الحلوة، انها فيض من أشواق وحب وذوبان، ومشاعر لا حصر لها ... تطلع إلى وجه محمد، وعلى الرغم من إحاطته به إلا انه خيل اليه انه يملأ المكان، ويعبر عن كل المعاني النبيلة التي طالما حلم بها ...

— « أبطأت المسير إليك يا رسول الله، وخذلتني ارادتي فترة طويلة ... وأخيراً أتيت إليك أقدم ندمي على ما فات ، وأنشد المغفرة وأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله ... »

وابتسم الرسول، وفي ابتسامته تنسكب فيوض الرضا والغفران والترحيب ...

— « ولن أعود إلى موطن الكفر مهما كان ... »

وأبدى الرسول ارتياحه وسروره البالغ لما أصابه أبو بصير من هداية، وما أظهره من حسن ايمان وجلس ابو بصير يروي قصته، وكم كانت دهشته حينما وجد ظلا من حيرة يطوف بوجه الرسول الكريم ...

لحظة حاسمة، وعلى الفور وثب إلى ذهن ابي بصير « صلح الحديبية » وما فيه من شروط ، وتصور نفسه عائداً إلى مكة، وحشود تنصب عليه من كل مكان، أيمكن أن يحدث ذلك ؟ ؟ مستحيل وقال ابو بصير :

— « ماذا ترى يا رسول الله ؟ ؟ »

وأرجأه الرسول بعض الوقت، وبعد أيام قليلة، وفد إلى يثرب رجل من بني عامر يحمل كتاباً إلى الرسول، يطالبه فيه برد أبي بصير الذي هرب من مكة، دون موافقة مولاه، حسبما تقرر بنود اتفاقية « صلح الحديبية ».

لم يستطع عمر بن الخطاب ان يخفي غضبه، ويكرر ما قاله من قبل وهو ان ذلك الشرط شرط مجحف، وما كان يصح ان يوافق عليه الرسول، وأخذ الصحابة يتهامسون في حيرة، وأبو بصير جالس وهو لاهث الانفاس، مضطرب الأعصاب، لا يكاد يتصور ما سيحدث، واخيراً قال الرسول :

— « يا أبا بصير، انا أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصح لنا في ديننا الغدر، وان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك ... »

هب أبو بصير واقفاً وقد شحب وجهه، وارتجفت اوصاله وقال :

— « يا رسول الله، أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ ؟ ... انهم لن يرحموا مولى هارباً من كفرهم وفسادهم ... »

ودارت الأرض بأبي بصير، لسوف يعود إلى مكة... سيسير موكبه في شوارعها مجللا بالذل والاحتقار، تواكبه اللعنات الحارة، سيكون مشهداً مخزياً، وسيحرص المجرمون على إحاطته بكل ألوان الأذى والهوان حتى يكون عبرة لغيره ... مستحيل أن يحدث ذلك، الموت أهون من هذا الذل، وأبو بصير قد آمن بالله ورسوله، ولا يمكن أن تفتنه عن دينه أية قوة كائنة ما كانت... وأفاق أبو بصير من شروده على صوت الرسول، وهو يكرر ما قاله آنفاً ... فلم يجد بدا من أن ينصاع لأمر الرسول، ويمضي خافض الرأس مع رجل بني عامر رسول مكة إلى محمد، ومعه مولى آخر يرافقه في الطريق ...

لشد ما حزن الناس وهم يرون أبا بصير يشد الرحال عائداً إلى مكة ! ! ولم يستطيعوا ان يعلقوا بشيء سوى : « هذا أمر الله ورسوله، ولسوف يجود الله على أبي بصير وأمثاله بالفرج العاجل ... »

كان يمضي متثاقل الخطى، واهن الجسد، كسير النظرات، وقلبه يضج بالثورة والألم العتيد، أليس من حقه أن يفكر، وأن يؤمن بما يشاء ؟ ؟ ان الله لا يرضى أن يعترض الطريق إليه شيء ... حتى ولو كان صلح الحديبية ... استغفر الله ... لعل وراء ما يحدث حكمة عليا تجل عن الأفهام ...

لكن لماذا لا يبحث ابو بصير بنفسه عن مخرج ؟ ؟ ؟

الفصل الثاني والعشرون

ها هو من جديد يشعر بالقهر، ويضطر للإذعان، أكان واهماً حينما تخيل أن له حق الاختيار كمخلوق يميز الخبيث من الطيب، والحق من الباطل، والنافع من الضار؟ ؟ أيخرج عن أمر الرسول، لكن الرسول نفسه لا يرغم أحداً على فعل شيء يكرهه، لكن لماذا فعل الرسول مع أبي بصير ذلك ؟ ؟ ان أبا بصير كان يقرأ في عيني الرسول النابضتين معاني كثيرة لا يستطيع فهم ما وراءها ...

أفاق ابو بصير على صوت العامري المرافق له يقول :

– « لم نسيء اليك يا أبا بصير »

– « وهل هناك إساءة أبشع من أن تسوقوا الناس سوقاً إلى عقيدتكم ... »

– « هذا أمر لا قيمة له ، أو تظن أن تشبث سيدك بحقه فيك يعتبر إساءة ؟ ؟ إن ذلك الدين الجديد قد بدل الكثير من البديهيات... »

– « وما البديهيات يا عامري ؟ ؟

– « تراث الآباء والأجداد، وقيم ارتضاها الجميع... »

– « لكن فيها كثير من الزيف... »

– « ليكن يا أبا بصير ... لا أنا ولا أنت نملك حق التغيير ... إن في ذلك إهانة لتراثنا، وتنكر لنظامنا ... »

وبدا الاشمئزاز على وجه العامري وهو يقول :

– « لست أدري لماذا تفر إلى ذلك النبي ؟ ؟ ان بالمدينة قيوداً لا تقرها نفس حر ... »

– « أية قيود ؟ ؟ »

– « هم لا يشربون الخمر، ولا يأتون النساء كيفما يشاءون، ولا يستمتعون باللعب والقمار، انهم يحرمون المتع بلا معنى ... »

قال أبو بصير ساخراً :

— « وفي إمكانك ان تضيف أنهم يساوون بين السادة والعبيد، ويضعون نظاماً — أعني قيوداً — لكل شيء حتى الطعام والنوم والصلاة والزواج والطلاق ... »

تجهم العامري قائلاً :

— « أتسخر مني ؟ ؟ أجل ... ان كل ما يعلمه محمد لأصحابه لا أكاد أطيقه، انه سجن مقيت لا أستطيع أن أعيش بين جدرانه لحظة ... »

وصمت ابو بصير، إن لكلّ منطقه، وله الحجج التي يوهم نفسه بصحتها، فالدعارة حق، واحتقار العبيد حق، وسوقُ الناس إلى الكفر والفوضى حفاظ على تراث الآباء ... فليصمت ابو بصير فإن ما بينه وبين العامري بعد ما بين السماء والأرض، وضحك أبو بصير ، وانقلبت ضحكاته إلى قهقهات عالية، فالتفت إليه العامري قائلا :

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

— « أضحك على نفسي »

رماه العامري بنظرة استغراب، بينما ابتسم المولى المرافق لهما دون ان يعلق، وقال ابو بصير :

— « لست أدري لماذا أدس أنفي فيما لا يعنيني ؟ ؟ إن هذا الزمان عجيب ... جد عجيب ... كل صاحب عقيدة يعتقد أنه على صواب ... فليصطرعوا ولترق الدماء، أو تنعقد اتفاقيات الصلح ... ما شأني بهذا كله ؟ ؟ ما أنا إلا مولى ضعيف، لن أرجح كفة من الكفات ... الحقيقة اني اخطأت خطأ كبيراً بفراري إلى محمد ... ومحمد قبل إسلامي، لكنه رفضني ... وهذا يعني ان هناك تواطوءا من نوع ما بين رجال الأديان، برغم ما يشتعل بينهم من حروب ... »

بدا الارتياح على وجه العامري وقال :

— « لقد ابتدأت تدرك الحقيقة يا أبا بصير ... »

— « نزوة عابرة أوردتني موارد التهلكة ... »

— « أجل ... »

— « أو تعتقد يا عامري ان قريشاً سوف تعفو عني ... »

فكر العامري برهة ثم قال :

— « لقد ساءنا ما فعلت حقيقة، ولا بد أن النية معقودة للقضاء عليك، لكن رضوخك

للحق، واعترافك بأن ما ارتكبته كان حماقة كبرى قد يخفف الكثير من غلواء القوم في مكة ... »

قال أبو بصير في هدوء :

— « ليس لقريش الحق في عدوانها عليّ ... »

— « هذا أمر غير قابل للنقاش ... من أنت ؟ ؟ »

— « انسان ... »

— « أعرف ... لكن هل كل الناس متساوون ؟ ؟ »

— « أجل ... »

احتقن وجه العامري وقال :

— « أأنت مثلي ؟ ؟ »

— « لا فرق يا عامري بيننا ... كلنا لآدم وآدم من تراب ... »

— « هذه نبرة البلهاء من رجال محمد ... »

دارت الأرض بأبي بصير، لكنه أفاق على ضربة قوية، وجهها اليه العامري بقبضة سيفه، فاصابت أنفه وأسالت دمه، وجن جنون أبي بصير، وكاد يثب على العامري كنمر مفترس، إلا أن الأخير قد اعتصم بسيفه ووقف مستعداً أمام الجريح الذي لا يملك سلاحاً.. وجفف ابو بصير دمه، ثم ابتسم، وقال في مسكنه :

— « ما كان يصح أن تفعل ذلك يا أخا العرب ... »

— « ان التمرد والخيانة يمرحان في دمك النجس ... »

طأطأ أبو بصير رأسه في أسى وقال في صوت خفيض :

— « اني اعتذر ... أحياناً تنتابني بعض الحماقات، فأعبر عما أريد تعبيراً خاطئاً، فأنا لا أؤمن أن السادة والعبيد على قدم المساواة، وإنما أردت أن أقول أنني جد مخلص لمولاي، وإخلاصي يفوق إخلاص اي سيد كبير... رغم أني مولى من الموالي ... »

تراخت يد العامري، وقل خفقان قلبه، وابتسم :

— « انكم لا تفيقون من غيكم الا اذا عوقبتم ... »

وفي لمح البصر، انقض ابو بصير عليه، وجرده من سيفه، وتراجع خطوات والسيف

في يده، وتحسس ابو بصير الدم الذي ما زال يتقاطر من أنفه ورمى العامري الخائف بنظرة حارقة :

— « الآن أستطيع أن ألقنك درس الحياة ... كي تعلم أن الموالي والعبيد بشر مثلك، وانهم قد يفوقونك إنسانية ونبلا وقوة ... »

قال العامري وهو يرتجف :

— « تريد أن تقتلني ؟؟ »

— « أستطيع ذلك بكل بساطة ... »

— « انني أطلب الرحمة ... »

— « أيها الثعبان ... الموالي والعبيد لا يملكون فضيلة ... »

— « لكن في إمكانهم أن ينبذوا الخيانة ... »

— « ان بقاء مثلك على قيد الحياة انتكاس للإنسانية ... »

— « أبا بصير ... »

— « ماذا تريد ان تقول ؟؟ »

— « انت لا تجروء على فعلها، إن مكة كلها ستخرج عن بكرة ابيها طلباً للثأر... وسيمثلون بك اشنع تمثيل، لن يقبلك محمد، ولن تفلت من قصاص مكة ... تعقل ... »

وفكر العامري، ان الاستجداء والاستعطاف لن يؤثرا في هذا المولى المتمرد، بل ان التهديد والتخويف قد يكونان أنفع وأجدى ... »

— « يا أبا بصير ... أنت أحقر من أن تفعلها ... »

واخذ ابو بصير يصر على اسنانه غيظاً، ويقول:

— « قل ما شئت، فلن أسلم رقبتي لسيف الجلاد في مكة ... »

— « أتهرب ثانية، أيها السافل الجبان ... »

غلا الدم في عروق ابي بصير، وطافت سحابة حمراء بعينية، ورفع سيفه، وأهوى به على عنق العامري الذي تهاوى إلى الأرض ينزف دما، والرعب القاتل يمتزج بنظراته الغاربة وصاح المولى الآخر المرافق لهما، واخذ يبكي في رعب، ويجري صوب المدينة .. »

لفظ العامري آخر انفاسه، ورقد بلا حراك، وجلس إلى جواره أبو بصير متكئاً على

السيف و العرق يتقاطر على جبينه الأسمر ، وجسده كله يرتجف... لم أكن اريد قتلك أيها الأحمق كنت أنوي الذهاب بعيداً لا غير ، كلماتك كانت أقسى من الحراب على قلبي... حقرت إنسانيتي ... حاولتُ إرضاءك جاهداً، ونطقت بما لا أؤمن به، لكنك كنت وغداً جاهلا، كنت ألعن أداة في أيدي شياطين مكة أيها المغرور ... أنا ما قتلتك ... ولكني قتلت الظلم والانحراف والقيم المتعفنة ... »

وصلت انباء ابي بصير إلى « يثرب » وتحدث بها الناس في كل مكان، بين مؤيد لفعله، وموجس من ذلك خيفة، فالمؤيدون يرون أن الرسول قد أبرأ ذمته، وأن ما حدث أمر يخص أبا بصير وحده، والموجسون يؤمنون بحرفية الاتفاقية، ويرون أن مكة لن تسكت عن هذا التصرف، وسيظن المشركون أن وراء ابي بصير قوة محرضة ... »

وعلق عمر بن الخطاب قائلا :

— « كنت واثقاً أن ذلك البند من اتفاق الحديبية والخاص برد كل من أتى مسلماً دون موافقة مولاه بنداً مجحفاً، وسيجر العديد من المشاكل ... »

فابتسم الرسول دون أن يقول كلمة واحدة .

وقدم أبي بصير إلى رسول الله قائلا :

— « يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي ... »

واقتنع الرسول بمنطق ابي بصير ، وتحمس له كبار الصحابة، وحظي بالتأييد الكامل من عامة المسلمين بالمدينة، بل إن الرسول قد أبدى إعجابه بابي بصير ، وتمنى ان يكون معه رجال آخرون يستخلصون حريتهم بأيديهم ، وينافحون عن حقهم في الحياة الشريفة. »

ومال احد المسلمين على أبي بصير قائلا :

— « إلى أين تذهب ؟ ؟ »

— « أرض الله واسعة يا أخا الإسلام ... ولكني سوف اذهب إلى « العيص »... »

— « العيص ؟ ؟ »

— « أجل ... على ساحل البحر ... هناك الطريق بين مكة والشام ... انا اعرف ان « اتفاقية الحديبية » تلزم الرسول بفتح الطريق أمام تجارة قريش ... ولكني الآن «وحدي..» سوف اذهب إلى هناك ... وسيتبعني خلق كثير من مكة ... وهناك سنقطع الطريق على المشركين... ونريهم الانتقام الرهيب ... عندئذ يعلمون أنه لا حق لأحد في أن يصادر حريات الآخرين، أو يلوي اعناقهم كي يعتنقوا ديناً لا يريدونه ... »

— « انك تخوض معركة شاقة يا ابا بصير ... »

هز ابي بصير رأسه قائلا في ثقة :

— « هذا هو المخرج ... هذا هو المخرج ... والرسول عنه راض ... بل تمنى ان يتبعني رجال آخرون ... او كنت تظن ان الرسول يرتاح إذ يُرَدّ المؤمن الذي جاءه إلى إلى أرض الكفر والاضطهاد مرة أخرى بعد أن منّ الله عليه بنور الاسلام ... »

وتمتم الرجل في اعجاب ... نعم الرجل ابو بصير ! ! »

الفصل الثالث والعشرون

شعر أهل مكة بغير قليل من الغيظ ، إن رجلا تافهاً كأبي بصير قد استطاع ان ينفذ إلى ما يريد وأكثر مما يريد، أراق دماً حراً، هكذا قالوا، واعتنق ما شاء من مبادىء، وأفلت من أيديهم، وأرغوا كثيراً وأزبدوا، وزعموا أن محمد يسخر منهم حينما يعلن رضاه عن صعلوك كأبي بصير ، والأدهى من ذلك أن الغرور قد ركب رأس أبي بصير ، فظن أنه قادر وحده على أن يعترض طريق التجارة من مكة للشام، فيفسد على قريش تجارتها، ويهدد أمنها .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد اخذت مكة تعيد التفكير في سياستها نحو مواليها وعبيدها، هل تزيد من قسوتها على هؤلاء، وتفتح عينيها جيداً على تحركاتهم وأفكارهم ، أم تحاول استرضاءهم والإحسان إليهم حتى ينصرفوا عن تلك الدعوة الخطرة التي يحمل محمد لواءها ؟ ؟ والغالبية العظمى من رجالات مكة لم تفكر كثيراً في الأمر ، فطريقة معاملة الموالي والعبيد معروفة منذ قديم الزمان، وليس هناك ما يدعو إلى تغيير هذه الطريقة، العناد في مكة سليقه في قلوب الكبار ، وخلق يرتبط بكرامتهم وفخارهم، وأخطاء العبيد والموالي لن تكون مدعاة للتخفيف عليهم، أو الشفقة بهم ...

وقال خالد بن الوليد :

ــ « أرى أن الكلمة الطيبة قد تكون أفعل من ألف سوط على ظهر عبد ... »

ورد أبو سفيان :

ــ « انك عميق النظرة، عاقل الفكرة ... »

وزمجر عكرمة :

ــ « لا تقيموا وزناً لهؤلاء العبيد والموالي، فهم أحقر من أن يغيروا مجريات الأمور أو يوثروا في الأحداث ... »

وهزت هند رأسها في ضيق قائلة :

ــ « ان أمر محمد عجيب... إنه ينفذ بنود الاتفاقية ولا ينفذها في نفس الوقت ... »

قال خالد :

— « محمد لا لوم عليه، رفض الرجل الهارب، ورده الينا، ماذا نريد منه بعد ذلك ؟ ؟ أكان من الضروري أن يضعه في القيود والأغلال ويسوقه إلينا سوقاً ؟ ؟ من العار أن نطلب منه ذلك ... »

وتسامع الناس في مكة بما جرى لابي بصير ، وهزتهم سعادة خفية، فكثيراً ما يطرب الضعفاء المقهورون، وهم يستمعون إلى سيرة رجل منهم وهو يمرغ شرف الكبار في الرغام، ويتحداهم، ويسخر من سلطانهم، ولا يكاد يمر يوم حتى ترهف مكة أسماعها كي تستمع لقصة جديدة، عن رجل من الضعفاء او الموالي والعبيد يفر إلى ساحل البحر نحو « العيص » كي يلحق بأبي بصير ... »

وفي يوم من الأيام وقف اهل مكة مشدوهين أمام أنباء لا تكاد تصدق ...

فقد جاء رجل فوق ناقته، يجري ويصيح :

— « يا أهم مكة ... ضاعت تجارتكم ... يا أهل مكة قتل رجالكم، وسلبت اموالكم. يا أهل مكة ابو بصير ورجاله يقطعون الطريق إلى الشام ... »

وقف الناس مذهولين ، وأصحاب الأموال احتقنت وجوههم، وسادهم غيظ قاتل، وصرخ احدهم بصوت أجش :

— « فلنجرد له جيشاً ... »

وقهقه خالد بن الوليد قائلا :

— « مهلا يا عكرمة ! ! هل نسيت ؟ ؟ أتجرد جيشاً لحرب ابي بصير ... إنه تافه لا يستحق ذلك كله ... »

وأدرك عكرمة خالداً يقرعه ويسخر منه، ويشير إلى حديثه السابق عنه، فتمتم :

— « اتهزأ مني يا خالد ؟ ؟ »

— « أي عكرمة إن الجيش لن يجدي في مثل هذه الأمور ... لن تجد صفوفاً تقف قبالك ... ولا حشوداً منظمة تواجهها ... إن أبا بصير ورجاله مبعثرون فوق قمم الجبال وفي المغارات ... ينقضون فرادي أو اثنين اثنين كالصقور ... انهم يربكون اي جيش، ولن يطولهم ... »

ودق عكرمة الأرض بقدميه وقال :

— « انستسلم لمولى آبق تافة ؟ ؟ ماذا نفعل اذن ؟ ؟ »

— « انك ترفض وجهة نظري ... »

— « أتريد يا خالد ان نحمل الهدايا والقرابين ، ونتقدم خاشعين راكعين لابن اللئيمة ؟ ؟

قال خالد وهو يبتسم :

— « ليس هناك سوى حل واحد ... »

— « ما هو ؟ ؟ »

— « افتحوا الطريق أمام الناس ، فمن شاء فليبق معنا ، ومن شاء فليذهب إلى محمد ... دعوا الناس يختارون ... إنه حقهم المقدس ... »

— « هذا كلام لا يقبله عاقل ، إنه علامة ضعف واستسلام لا تخفى عليك ... لو نفذنا كلامك لهرول الألوف صوب يثرب ... »

قهقه خالد وقال :

— « اذن كيف تطمئن إلى رجال يتحرقون شوقاً ليثرب ؟ ؟ ألا تعتقد أن هؤلاء قد يخذلونك إذا حمي الوطيس ، وجد الجد ؟ ؟ ...

ضرب عكرمة كفاً بكف ، وقال :

— « انني في حيرة لا أدري ماذا أفعل ؟ ؟ »

— « الطريق واضح لكن كبرياءك يمنعك ... »

— « وهل بقي لنا غير الكبرياء ... »

— « بل بقي العقل يا عكرمة ، ندبر به أمورنا لو أردنا ، أنا لا أدير المعارك بكبريائي وعاطفتي ... لو فعلت ذلك لحاقت بي الهزائم ، والعقل عصمة يا عكرمة ... وأؤكد لك أنك لو فتحت الطريق أمام الذين يرغبون في اللحاق بمحمد لما ذهب إليه غير عدد قليل ، إن الأسوار التي نقيمها حول الفكر ، والسيوف التي نشهرها في وجه الراغبين في التصرف بحرية ، تزيد من عدد الهاربين والمتمردين ... صدقني يا عكرمة ، فأنا قد أكون أدرى بخبايا النفوس منك ... ليس في الأمر ضعف وهزيمة كما تتصور ، إنك تتصرف بحكمة كي تبلغ اقصى ما تتمنى من نجاح ... »

هز عكرمة رأسه في أسى وقال :

— « ان رأيك يا خالد جدير بالنظر والتمحيص ... فلنذهب إلى أبي سفيان ... »

●

الناس ينظرون ما يجري في حيرة، أية قوة وهبت لهذا المولى المسكين الذي دوخ قريش، ووقف لها « بالعيص » يهدد أرزاقها، ويدمر أحلام تجارها وأثريائها ؟ ؟ إن أبا بصير ليس نبياً، لكنه يثير ضجة كبرى، ويعجز الكبار عن التصدي له، أو تلقينه درساً في الأدب، اصبح هو ورجاله سبعين فرداً، لكنهم بعثوا في نفوس القادة المكيين من الغيظ أكثر مما يبعثه جيش لجب، إن محمداً هو المسؤول عن هذا كله، إن تربته تنبت المتمردين والعصاة، وتصنع الذعر الذي يؤرق نوم السادة وأمنهم ...

وعندما التقى عكرمة وخالد مع ابي سفيان، قال خالد :

— « الحل ليس لدى أبي بصير أو محمد ... »

قال عكرمة :

— « اين يكون ؟ ؟ »

— « عندنا »

— « كيف ؟ ؟ »

— « بالشجاعة ... »

— « لا أفهمك ... انك رفضت خروج جيش لتأديب المارقين ... »

تنحنح خالد وقال :

— « اتوافقون على التنازل عن شرط من شروط الاتفاقية المعقودة بيننا وبين محمد في الحديبية ؟ ؟

— « أي شرط ؟ ؟ »

— « نقول لمحمد اننا لا نريد منه أن يرد إلينا الهاربين دون موافقة سادتهم ... فليقبلهم وليقبل أبا بصير ورجاله ... عندئذ يظل طريق التجارة إلى الشام مفتوحاً ... وعندئذ نستطيع أن نحاسب محمداً إذا اعتدى أحد رجاله على الطريق ... »

قال ابو سفيان وهو يهز رأسه في تفكير :

— « الرأي ما رأيت يا خالد ... »

زمجرت هند زوجة ابي سفيان وصرخت محتدة :

— « ارى أن محمداً بدهائه يبتز منكم حقوقكم واحداً تلو الآخر ... كنت واثقة أن صلح الحديبية لن يجني ثمرته سوى محمد ... ماذا جنيتم من هذه الاتفاقية ؟ ؟ لقد استطاع

محمد في ظلها أن يقضي على حلفائكم اليهود قضاء مبرماً، وأن يستميل إليه بعض القبائل ويخضد شوكة البعض الآخر، تارة بالتهديد وتارة بالقتال، ثم إنه الآن ينتزع منكم الموافقة على قبوله أي لاجىء إليه، وفي هذا تشجيع كبير للمتمردين والعصاة ... فلا تستغربوا إذا اصبحتم يوماً ووجدتم أغلب الموالي والعبيد قد فروا إليه، ولن يبقى لكم غير الندم والحسرة.» والأدهى من ذلك أنه قريباً سوف يستدير العام ... ويأتي محمد ورجاله ليزوروا البيت الحرام ... ويدخلوا مكة تحت سمعكم وبصركم ... وستخرجون أنتم إلى قمم التلال والجبال المجاورة ... وتتركونه يؤدي شعائره وصلواته ... آه ... لقد كان صلح الحديبية كارثة كبرى بالنسبة لنا ونصراً مؤزراً لمحمد ... »

قال أبو سفيان في ضيق :

— « وماذا كنا فاعلين غير ذلك ؟ ؟ »

— « كنت تميلون عليه بسيوفكم وتبيدونه هو ورجاله عن آخرهم ... « السيف وحده العويصة ... ولا شيء غير السيف ... »

قال خالد في برود :

— « لن يجدي البكاء على ما فات ... هيا لنكتب لمحمد ... »

نزعت هند نفسها من الحجرة غاضبة وهي تنصرف قائلة :

— « افعلوا ما شئتم ... لقد أضعتم كل شيء ... »

عندما تلقى الرسول رسالة قريش بموافقتها على إيوائه من يأتي إليه هارباً، ابتسم الرسول والتفت إلى عمر بن الخطاب، إن عمر كان من أشد المعارضين للاتفاقية، وكان يظن أن المسلمين قد قبلوا الدنيّة حينما وافقوا على إرجاع من أتى مسلماً دون موافقة وليه ... وها هي الأيام تثبت صدق الرسول، وصواب تصرفاته، وتصدق آيات القرآن حينما اعتبرت صلح الحديبية « فتحا مبينا ... »

وعلى الفور أرسل الرسول بعض المسلمين كي يستدعوا أبا بصير ورجاله إلى المدينة، وتمتم ابو بصير، وقد بلغته رسالة النبي — قائلا :

— « السمع والطاعة يا رسول الله، هذا هو المخرج ... صدق الله ورسوله ... »

الفصل الرابع والعشرون

— « استدار العام يا أبتاه ... » هذا ما قالته حفصة لأبيها عمر بن الخطاب ليلة السفر الكبير ، ثم استطردت قائلة : « إنني أختزن في قلبي شوقاً عارماً لمكة ورؤيتها ، وأحن إلى الشوارع والبيوت ، إلى مهد الصبى والذكريات ... ليتني كنت معكم يا أبتي ... غداً في ألفين من الرجال ، والرسول في المقدمة على ناقته القصواء ... قاصدين مكة الحبيبة ، ستطوفون بالبيت الحرام ، وتنحرون الإبل والشاة ، وتهتفون لبيك ... لبيك ... انها لحظات حلوة ... ليتني كنت معكم ... لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق ... لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين ، لا تخافون ... »

وأشرق وجه عمر بن الخطاب بالفرحة ، وشرد إلى بعيد ..: إلى أيام العناد والقسوة حينما كان يتصدى لدعوة الله ، ويرفع في وجهها السيف ، ويشارك الجبابرة في تعذيب المسلمين الأوائل ، إنها حقبة من العمر يكرهها عمر ، ويتمنى أن تنمحي تماماً من سجل حياته ... لكن هيهات ... ثم يتذكر عمر لحظة النور الذي تدفق فغمر قلبه وروحه ، حينما استقبل عقله الحقيقة الكبرى بما تحتويه من صدق وإقناع وقوة ... ومنذ ذلك التاريخ لا يحيى الا لله ، ولا يقصد في عمل يعمله إلا وجه الله ، وهاجر ... وحارب ... وانتصر وهزم ... لا لم يهزم ، ان لحظات التراجع بما فيها من تضحيات ودماء غالية كانت تحمل في ثناياها انتصاراً من نوع ما ، ونموا مطردا لقوة الفكر والروح والجسد ... وها هو يتجه إلى مكة بعد سنوات في ظل اتفاقية « صلح الحديبية » الاتفاقية التي رفضها في البداية ، وهاجمها بشدة ... والتي أثبتت الأيام أن الرسول كان على حق ، « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ... »

وعمر يشعر بانتعاشه مفاجئة ، وهزة شجية لهذا السفر ، إنه سيطوف بالبيت العتيق ، ويؤدي الشعائر ، وأئمة الكفر يقتعدون رؤوس الجبال ، وأسطح المنازل يشهدون قافلة النور تهلل وتكبر ، وعمر يذكر جيداً ما فعله مشركو مكة ، وما سببوا للمسلمين من كوارث وتضحيات ... لكم يحلو له ان يطوف بالبيت ، وان يرفع عقيرته بالتكبير والتلبية والتسبيح ، بحمد الله ، وهو يعلم أن ذلك سوف يبعث الغيظ في قلوبهم الصدئة ، وسيجعل منهم صغاراً تفهاء أمام عامة الناس في مكة ، إن المشهد كله سيوحي للجميع بأن محمداً انتصر ، وأن مكة تتخبط كمخمور ، أي نصر قد حققه الله للمسلمين ! ! »

والحقيقة ان عمر يتشوق لمكة، لأهلها وشوارعها ومبانيها ... ربما لا يفكر عمر في الارض بقدر ما يفكر في المبدأ أو العقيدة، أجل ... الفكر هو عالمه ومناخه ... وما الأرض إلا وعاء فان كانت يثرب قد فتحت ذراعيها لاستقبال الداعية الجديد والمضطهدين من رجاله، اذن فهي الوطن، وهي المكان الغالي، وكان عمر يردد ذلك ويعلنه، غير أنه شعر ان شوقاً يشده إلى مكة حيث بيت الله الحرام، وحيث الذكريات بحلوها ومرها، إنها أيام حياته الأولى، مكة هي المكان والزمان في الماضي، وشيء عجيب أن يمتزج الزمان والمكان، فيخلق وحدة من المشاعر صعبة التفسير ... هو يحب مكة، ويتمنى أن ينطلق إليها على عجل ... ما أعجب قلب الإنسان ! ! وأفاق عمر من شروده على قولة قالتها حفصة ابنته :

— « ابتي ... الا تخافون أن يفاجئكم الغدر. وانتم بين ظهرانيهم ؟ ؟

ابتسم عمر قائلا :

— « ان توكلنا على الله لا يعني الاستهتار والتواكل، الله معنا يا حفصة، والسيوف في القرب، وعلى مشارف مكة عدد من فرساننا خارج نطاق الحرم ... ثم ... »

— « ثم ماذا يا أبتاه ؟ ؟ »

— « ان خبرة أبيك بالناس والسفارات قد علمته الكثير ... »

— « ماذا تعني ؟ ؟ »

— « لو كان أهل مكة على قلب رجل واحد لما عقدت اتفاقية الصلح... ان لي رأياً غريباً بعض الشيء، إن أبا سفيان وبطانته يخافون أهل مكة، وهذا ضمان رائع... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « إن ما تجمع لدي من أنباء واستقراءات يؤكد لي ميل عدد كبير من أهل مكة للإسلام، فاذا ما قامت معركة فقد يكون عدد المنحازين إلينا من أهل مكة أكثر من المنحازين لابي سفيان ... لسنا من السذاجة يا حفصة بحيث نقامر بحياتنا ومستقبلنا في مأزق حرج ... نحن نعرف اين ومتى نخطو... والله معنا ... »

هزت حفصة رأسها موافقة وأضافت :

— « لشد ما أرتاح بالي للقضاء على اليهود ... إن قوتهم — قبل يوم خيبر — كانت تشكل خطراً دائماً ... أما الآن فقد انعزلت مكة، ووقفت وحدها مترددة في مواجهة المسلمين ...

وابتسم عمر وقال مداعباً :

— « اعرفُ انك لست راضية تماماً عن كل ما جرى في خيبر ... »

قالت في دهشة :

— « كيف يا أبت ؟ ؟ »

— « عندما عاد الرسول منتصراً وفي يده زوجه الجديدة صفية، اصابتكن يا زوجات الرسول غضبة ظاهرة ... »

قالت حفصة وقد بدا الضيق على وجهها :

— « أنا لا أغار منها، عائشة هي التي لا تطيق رؤيتها ... »

قال عمر وهو يسدد نظرات فاحصة إلى ابنته :

— « وأنت ؟ ؟ »

— « إنها يهودية قلباً وقالباً ... »

— « لكنها أسلمت وحسن إسلامها ... »

— « أبتي ... دع هذا الحديث فإنه يثيرني ... الناس كلهم يتحدثون عنها وعن قصتها، حتى لكأنه ليس للرسول زوجات سواها ... هل نسوا أن أباها حيي بن أخطب أعدى أعداء الإسلام، وأن زوجها كنانة بن الربيع الذي امر الرسول بسفك دمه، وان قومها في بني النضير وقريظة وخيبر قد أساءوا للأسلام أبلغ الإساءات ؟ ؟ »

ابتسم عمر ثانية وقال :

— « كان رد صفية بسيطاً مفحماً حينما ردت قائلة : « ولا تزر وازرة وزر اخرى »

حاولت حفصة أن تكتم انفعالاتها، لكنها وشت بكلماتها عما يعتمل في صدرها حين قالت :

— « بعض النسوة يخفين وراء حسنهن، وبراءة مظهرهن، وحلو أحاديثهن السموم الناقعات ... »

— « تلك هي الغيرة بعينها ... »

— « من العار أن أغار من امرأة كهذه ... »

صاح عمر في حدة :

— « أصمتي يا بنت عمر ... انكن تشغلن وقت الرسول بتفاهات وترهات لا معنى لها ... والله لو أمرني الرسول بضرب عنقك لما ترددت، انتن لا تدركن فداحة التبعة الملقاة على عاتق الرجال ... »

واطرقت حفصة دامعة دون ان تجيب

وصمت عمر برهة ثم قال :

— « ان الرسول لا يقدم على أي عمل من الاعمال لدنيا يريدها، ووراء تصرفاته وأعماله حكمة عالية قد لا تدركها عقولكن القاصرة ... »

ردت حفصة قائلة :

— « انا لا أنكر ذلك، لكنكم تنسون أننا نساء ... »

— « لستن مجرد نساء عاديات، بل زوجات الرسول ... انكن تؤدين دوراً ضخماً لو تتعمقن النظر والتفكير ، ولقد جلبتم على الرسول في الأيام الاخيرة متاعب لا حصر لها، يجب أن تعلمن أنه صلوات الله وسلامه عليه، يقضي أياما عصيبة شائكة، برغم ما يجود به الله علينا من توفيق وانتصارات ... يجب أن تكن القدوة الحسنة لنساء المسلمين .. »

اطرقت برأسها قائلة :

— « حق ما تقول ... »

الفصل الخامس والعشرون

لم يزل «عبد الله بن أبي» طريح الفراش منذ ذلك الحادث الذي لن ينساه، وهو سقوط «خيبر»، يومها أظلمت الدنيا في وجهه، واربدت ملامحه، وكاد عقله يذهب من هول الفجيعة، وعبد الله يعرف كيف يميز الأحداث الكبار في معناها، ويدرك مراميها وأبعادها، وسقوط خيبر لم يكن حادثاً صغيراً بالنسبة له، فقد كان يحمل أكثر من معنى، فمثلا سقوط اليهود نهائياً وهم حلفاؤه واذكى واخبث قوة مناوئة لمحمد، أمر بالغ الخطورة وانكماش الجبهة المعادية للنبي أمر يقرب آماله، ويحقق من اهدافه، وسقوط اليهود إنذار لقريش ومن يحالفهم ... إن ما حدث كارثة كبرى لم تحتملها أعصاب عبد الله المتوترة، ولا صحته المتهاوية، لقد جلس ينتظر الأنباء على أحر من الجمر، وفي كل يوم يذهب خارج المدينة يتنسم الاخبار، يمد خطاه بعوده النحيل، ونظراته القلقة، والعيون ترمقه ساخرة ... ما أشبهه بملك ضليل لا تكاد الحسرة تفارقه على ملكه الضائع، وأحلام مجده المنهار، وكلمات قاسية تصفح مسامعه، «لم يزل يحلم بالتاج والخرز» — «شيخ المنافقين يتمنى كارثة تحط على رأس المسنمين»، وأحياناً يصمت فلا يعلن بكلمة واحدة، ويبدو وكأنه لم يسمع شيئاً، واحياناً اخرى يثور، ويرميهم بالجهل والحماقة والتجني... «ايها الاغبياء، انتم كالببغاوات، ترددون ما تسمعون دون أن تفقهوا حرفاً، انني لا أفكر إلا في أمنكم وسلامتكم مصيركم يقلقني دائماً، لكن قصور عقولكم يجعلكم ترمون التهم جزافاً ...»

ولم يطل تنطسه للاخبار، فقد عاد ذات مساء كابياً حزيناً، وجسده يرتجف، ثم دلف إلى البيت شاحب الوجه، لاهث الانفاس، ولمحته زوجه من بعيد فهرولت اليه وهي تقول:

— «لقد انتصرنا على خيبر ...»

القى بجسده المنهك وسط باحة البيت، ووضع يمناه على صدره، وقال في اجهاد ظاهر:

— «اني اختنق ... قبضة في صدري ... اني لأظنها النهاية ....»

اقتربت منه في حزن ووضعت يدها على جبينه البارد الذي ينديه العرق، ونظرت إلى عينيه المحملقتين، ووجهه الشاحب، وفمه المفتوح وقالت:

— « وامصيبتي ! ! ماذا جرى لك يا عبد الله ؟ ؟ »

— « إن يداً خفية تعتصر روحي خلف الضلوع ... »

— « كيف ؟؟ »

— « لا أدري ... حدث الأمر هكذا فجأة ... »

— « لكل شيء سبب ... »

— « إلا شقائي وعذابي فأنا لم أجد لهما سبباً ... الي بجرعة ماء ... »

واسرعت لتحضر له ما يريد، واخذ عبد الله يتمتم : « آه ... قتلني محمد ... لم يشرع في وجهي شيئاً، ولم يسدد إلى قلبي سهماً ... وليته فعل ذلك .. لو فعل لأراحنا منذ زمن بعيد ... أجل قتلني بسخرياته وعطفه وعفوه ... آه ... كان عفوه أقسى من السيوف والنار ... تسفيهه لآرائي عذاب ما بعده عذاب... احتقاره لنصائحي هو الموت بعينه ... المصيبة أن الأيام أثبتت صوابه وخطئي ... لماذا اعيش ؟ ؟ ألأراه يغزو وينتصر... وتتسابق نحوه الجموع ، ويتساقط أعداؤه كما يتساقط الذباب ؟ ؟ واكرباه ! ! لو مت قبل ذلك لاسترحت ولكانت ميتة شريفة ... آه ... لقد سقطت دولة الشوامخ... انتهى عصر الرجال الكبار ذوي الحسب والنسب والرأي والمكيدة، وجاء محمد بأمور عجيبة، وأخلاق أعجب، ورجال مبهورين بحكمته ومبادئه ... ألعن ما في هؤلاء الرجال انهم أسقطوا القداسات القديمة، وجعلوا من أنفسهم أشراف الارض ونبلاءها، والانكى من ذلك أنهم يثقون في تصوراتهم ثقة لا حد لها ... ويح قلبي ! ! سقطت خيبر، وانهار سلطان أذكى قوة في بلاد العرب، وغنم محمد حصونهم وأموالهم وسيوفهم ... وحتى نساءهم ... لئن بقيت مكة نائمة، هانئة باتفاقية « صلح الحديبية »، سعيدة بأن تجارتها تروح وتجيء بين الشام والحرم ... فستكون النهاية لقريش، وستكون بداية لملك الصعاليك والمفتونين بالنبوات... »

— « الماء يا عبد الله ... »

جرع الماء، وتنهد في حزن، وألقى برأسه على جذع نخلة قديم، وأخذ يجوب السماء الداكنة بنظرات شاردة، وقال :

— « أيموت الناس هكذا فجأة ؟ ؟ »

— « لِمَ تفكر في الموت ؟ ؟ »

قالتها زوجه في ضيق ممتزج بالخوف ...

— « الموت قضاء لا فكاك منه ... »

— « أعرف أنه حق، لكنه مر ... »

— « أصبحت أشك في كل حق في هذه الدنيا ... »

— « لن يزيدك هذا إلا ألما ... »

— « انني يا امرأة لا أجد مبرراً لكل ما يحدث، أي منطق يسيّر أمور الحياة، لماذا يموت هذا ؟ ؟ ويطول عمر ذاك ؟ ؟ ولماذا عمرو ينتصر وينهزم زيد ؟ ؟

لماذا ... لماذا ... ؟ ؟ إن آلاف علامات الاستفهام تطحن رأسي ، وتثقل على قلبي... »

قالت زوجه في رضا :

« لله في خلقه شئون، لا يسئل عما يفعل وهم يسألون ... »

— « هذا تفسير السذج والبلهاء ... »

ثم جذبها من كمها وقال بصوت جريح :

— « لماذا انتصر محمد على خيبر ؟ ؟ »

قالت بسرعة :

— « لأنه على حق ... »

صرخ في حدة :

— « أيتها الحمقاء، ولماذا هزم يوم أحد ؟ ؟ »

— « لأنه ... لأنه ... »

قاطعها قائلا في سخرية :

— « لأنه ليس على الحق ؟ ؟ »

— « ماذا جرى يا عبد الله ؟ ؟ هذا كفر ؟ ؟ »

— « انني أتساءل ... أريد أن أعرف الحقيقة ... »

— « محمد على حق دائماً ... »

— « في حالة النصر أو الهزيمة ؟ ؟ »

— « أجل يا عبد الله ... يجب ألا يكون هذا موضع نقاش لمن آمن بالله واعتنق الاسلام

دينا ... وأنت مسلم برغم ما تبديه من عدم رضا عن بعض ما يحدث، يجب الا يجرك ذلك إلى الكفر ... »

تنهد يائساً وتمتم :

— « لو كان لي ايمان كإيمانك ! ! »

— « انك ترفض ... أقمت حياتك الجديدة دون أن تخلي انقاضك القديمة، وتحسن من وضع الأساسي ... »

زمجر في عناد :

— « ليس لي حياة جديدة ... أنا كما كنت لم أتغير ... الايمان بالله ليس أمراً جديداً تماماً ... »

وابتلع ريقه ثم عاد يقول :

— « لو وجدت إجابات واضحة مقنعة على تساؤلاتي لاستراح بالي ... »

— « لن تجدها ... »

— « ألا أجدها عند محمد ... »

— « لن تجدها ... »

— « لماذا ؟ ؟ أهو العجز عن اقناعي ؟ ؟ »

— « كلا ... »

— « ماذا يا امرأة ؟ ؟ »

— « الاجابات الصحيحة لن تقنعك ... لن يقنعك شيء ... المشكلة ليست أسئلة واجابات عند محمد ... »

ثم أشارت إلى قلبه مستطردة :

— « المشكلة هنا، في قلبك أنت ... انه يأنف من أن يؤمن ... »

ابتسم عبد الله وقاس زوجته بنظرات فاحصة، وقال :

— « انك لا تقلين كفاءة وذكاء وإخلاصاً عن أي داعية كبير من دعاة محمد ... »

— « انني أتكلم بما ينبثق في خاطري ... »

— « أعلم ذلك ... ايمانك يوحي اليك بما تقولين... هذا أمر بالغ الخطورة ... هناك

دعاة يرددون فقط ما يلقنهم إياه معلمهم ... أما أنت فتبدعين إبداعاً لا مثيل له ... أنت وولدي عبد الله ... ما أشقاني ! ! انه لون من سخرية الأقدار لا أكاد أطيقه، أليس نكبة كبرى أن أفشل في إقناع زوجتي وولدي بما اعتقده ؟ ؟ »

قالت زوجه في فرحة طارئة :

— « لا قيمة للقربى أو صلة الرحم في أمر كهذا ... »

— « كيف يا فيلسوفة ... »

— « آمن بمحمد البعداء، وكفر به الأقرباء ... الأمر أمر قلوب وعقول ... »

تململ عبد الله في مكانه وقال :

— « اشعر أن اليد الخفية تتسلل خلف الضلوع ، وتخنق روحي ... لا أستطيع التنفس إنني جائع إلى مزيد من الهواء ... »

قالت في ارتباك وهي تجلس وتقوم دون هدف :

— « انك تتكلم كثيراً وهذا يزيد من متاعبك ... »

●

وظل عبد الله في فراشه لا يغادره، وازداد وجهه شحوباً ونحولاً، وملأ الضيق نفسه، إن العجز البدني مضافاً إلى عجزه النفسي يزيده كرباً وأسى، وفي عزلته لم يكف عن التفكير، يذهب بفكره بعيداً إلى مكة، هل سيتحركون ؟ ؟ هل سيستسلمون لتلك الاتفاقية الملعونة ؟ ؟ هل نامت المعارك ؟ ؟ وانطفأت شعلة الحرب، وساد السلام ؟ ؟ ومحمد ينتصر في ظلال السلام انتصارات متلاحقة ... لا ... لا بد ان تشتعل الحرب، لو لم تشعلها قريش لأشعلها محمد ... لكن الموت قريب يا عبد الله بن أبي ! ! ترى هل ستموت قبل أن ترى اليوم المشهود ؟ ؟ أصابني الداء يوم ان بلغتني أنباء خيبر، وازداد بي الأسى حينما سمعت ان محمداً عاد وفي يده « صفية » زوجة كنانة بن الربيع، وابنة حيي بن أخطب الصديق الصدوق ... يا هول ما أرى ! !

وانطوى عبد الله على أحزانه، حاول مراراً ان يهرب من فراشه، ويستأنف نشاطه العادي، ويمشي في الشوارع والأسواق، ويذهب إلى المسجد كعادته، لكنه لم يستطع، فما يكاد يبلغ عتبة بابه حتى تشتد ضربات قلبه، وتتلاحق أنفاسه، ويصبح فريسة للاختناق الحاد الذي يكاد يزهق روحه ...

وعندما علم بمسيرة المسلمين إلى زيارة بيت الله الحرام حسب نصوص « صلح

الحديبية » استبد به الفضول، وثارت برأسه الأفكار العديدة، واخذ يتصور احتمالات الموقف المختلفة، إن الأمل لم يخب في قلبه العليل بعد ... وفي اليوم الموعود سمع ضجة عالية وصخباً، فتحامل على نفسه، وذهب إلى كوة صغيرة في جدار منزله تطل على الطريق العام ... ورأى حشود المسلمين تحث الخطى يتبعها عدد كبير من المودعين من الشباب والأطفال والكهول ... وفي مقدمة الركب محمد فوق ناقته القصواء . . والوجه الشاحب النحيل يرقب الموكب ...

« آه ... أخيراً سيدخل مكة زائراً ... هكذا البلهاء من كبار رجالات قريش يتصورون ليس زائراً بل غازياً ... سيراه الناس هناك بابتسامته الآسره، وكلماته الساحرة، ووجهه الذي لا يبدو عليه أثارة من تعب أو خوف أو تردد، سيرونه على هذه الصورة فيتسابقون إلى التمسح به، والإعجاب بأسلوبه، والسير في ركابه ...

لئن لم يخرج من صفوف المكيين رجل قدير، ويحرضهم على القتال، ليقضوا القضاء الاخير على محمد، فستفوت الفرصة إلى الأبد ... إلى الأبد ... أين أنت يا خالد بن الوليد أين أنت يا عكرمة بن أبي جهل ؟ ؟ أين ؟ ؟ أين ؟ ؟ هل تعجز مكة عن أن تدفع برجل مغوار يشعل النار، ويغير مجرى الأحداث ؟ ؟

وافاق عبد الله من شروده على صوت يهتف في شوق ظاهر :

— « ليتني كنت معهم ... »

والتفت خلفه ليرى زوجه تمشي كالمسحورة، ودموع السعادة عالقة بأهدابها ...

صاح بها :

— « أي لذة في ذلك ؟ ؟ ألم تزوري البيت مرات قبل ذلك ؟ ؟ »

— « كان ذلك أيام الجاهلية يا عبد الله ... اما اليوم فان له معنى آخر، وعقيدة اخرى. لو رأيت الحبيب فوق ناقته القصواء، ووجوه المهاجرين والأنصار تشرق بالسعادة ... لبيك ... لبيك ... لا شريك لك لبيك ... كلما تخيلت المشهد شعرت بانفعالات لا يمكن التعبير عنها ... إنه لشيء رائع مثير ... ومكة صامتة تنظر ... وأهلوها فوق قمم الجبال وهامات الشجر ... بعد سنوات من القطيعة ... آه يا عبد الله ... انني لا أعرف ماذا أقول ... لا شك أنه حديث كبير ... »

وارتسمت على ثغره الابتسامة الساخرة الصفراء وتمتم :

— « فَلْنَدْعُ الله ألا تغدر بهم مكة ... »

« وهل يجرؤ احد على أن ينتهك حرمه البيت الحرام ؟ ؟ »

تنهد قائلا :

— « لا تستبعدني شيئاً ... نحن في زمن الأعاجيب ... »

الفصل السادس والعشرون

« أهدر الرسول دمك يا « حويرث... »

هذا ما قاله عكرمة بن أبي جهل، وعندما سمع الحويرث ذلك رفع إلى عكرمة وجها شاحباً، وعينين قلقتين، وقال في توتر :

— « أعرف ذلك، لكن ليس لتهديد محمد أي أثر حقيقي عليّ »

— « كيف يا حويرث ؟ ؟ »

— « انه تهديد لا قيمة له إلا اذا كان محمد قادراً على تنفيذه، نحن لنا القوة والمنعة، ومن ثم فإن قراره قرار موقوف ... إن محمداً إذا قدر على الحويرث فمعنى ذلك أنه قد دانت له العرب... وهيهات أن يحدث ذلك ! ! »

ضحك عكرمة في خبث وقال :

— « ألم تساورك الوساوس على حياتك ؟ ؟ »

— « ان الامر واضح كل الوضوح ... »

— « أعرف، لكن ألا تخاف ؟ ؟ »

هاج الحويرث وماج وقال في ضيق :

— « ان محمداً يغزوكم بالرعب، ولست أنا ممن تنطلي عليّ حيله ... وأنت يا عكرمة ألا تظن انه سوف يهدر دمك ؟ ؟ »

ابتسم عكرمة في استهتار وقال :

— « سيفي في يدي، وصلابتي في رأسي، وحقدي وكراهيتي لدينه لا تتزحزح من من قلبي، وسأبقى حاملا على محمد حتى النصر او الموت. لقد حددت موقفي ومستقبلي بالنسبة لهذا الأمر... ولم تعد تساورني أية هواجس ... »

قال الحويرث :

— « ولم لا تعتقد أني قد أكون مثلك ؟ ؟ »

— « يسعدني أن تكون كذلك ... »

صمت الحويرث برهة، ثم قال :

— « أنا لم أرتكب جرماً يذكر ، لقد شاركنا جميعاً في إيذاء المسلمين... »

لوح عكرمة بيده وقال :

— « حنانيك ... أن أمرك جد مختلف ، أنت الذي تسببت في ايذاء زينب بنت الرسول، وزوجة العاصي بن الربيع... وتسببت في اجهاضها ... انها لم تزل مريضة حتى الآن، ولم تزل تنزف دماً حتى اعتلت صحتها وأشرفت على الموت... »

قال الحويرث وقد استبد به مزيد من الضيق :

— « ان كنت قد آذيت زينبا »، فأنتم آذيتم أباها ... محمدا نفسه ... فلا غرابة في الأمر ... » ولعل عكرمة أراد استثارته، أو بث مزيد من المخاوف في قلبه لمجرد التسلي حين قال :

— « لكنها امرأة يا حويرث ... »

هب الحويرث واقفاً وقال في غضب :

— « لم نكن نفرق بين رجل وامرأة آنذاك ... »

وترك الحويرث مجلسه ومضى ثائراً، ان ما فعله الحويرث بزينب كان حماقة لا شك فيها، فعلى الرغم من طرب أعداء محمد لما حدث، إلا أن أغلبية أهل مكة سخطوا على التصرف وحملوا عليه حملة شعواء، كان الجويرث يدرك ذلك، بل كانت أذناه تلتقطان بعض التعليقات الهامسة أحياناً والصاخبة أحياناً اخرى، فقد كان احترام المكيين لزينب احتراماً كبيراً، فهم يعلمون دماثة أخلاقها، وتقديسها البالغ لحياتها الزوجية، وانحيازها لجانب زوجها برغم كفره وإسلامها، كانوا يقولون « نعم الزوجة زينب »، وكانوا يقولون أيضاً « نعم الرجل ابو العاصي » الذي رفض أن يطلق زينب تحت ضغط والحاح أئمة الكفر في مكة ... كانت قصة حب نبيلة بين زوج وزوجة فرقت بينهما العقيدة، بل إن الزوجة كان ابوها الذي يحمل لواء العقيدة الكبرى ويحمل لواء اكبر تغيير شهدته الحياة في تلك الأرض المقفرة ... »

— تمتم الحويرث وهو في طريقه إلى منزله : « كان عملا قبيحاً لا شك ... وأنا أقدمت عليه على بيّنة ... كنت وما زلت اكره محمداً ... ولا أحمل في قلبي عاطفة تذكر من

الحقد على أحد سواه ... كنت أتمثله وأنا اغري السفهاء بابنته زينب ... وشعرت بالسعادة القصوى حينما جاءتني الانباء تروي عن حزن محمد وغضبه ... انه لشيء عظيم أن أغيظ رجلا كمحمد ... لكنه لن يقتاني ... لن يستطيع ذلك ... ولو اتيحت لي فرصة أخرى لإيذائه أو ايذاء أحد من أقربائه لما ترددت ... »

وتذكر الحويرث ان محمداً قادم بعد يوم وليلة لزيارة البيت الحرام حسب شروط اتفاقية « الحديبية » فثار في نفسه غم قاتل، كيف يدخل هذا الرجل مكة ؟ وكيف يصبر الحويرث على رؤية الرجل الذي أهدر دمه ؟ ؟ ولماذا لا يفكر في تسديد طعنة إلى قلب محمد ؟ ؟ لا شك أنه لو فعل ذلك لحدث اضطراب هائل، ولغرقت مكة في بحر من الدماء ... وماذا في ذلك ؟ ؟ فلتغرق مكة في بحر من الدماء، فلن يناله أكثر مما سيناله على يد محمد اذا ما تم الأمر للمسلمين في يوم من الأيام ... »

وراقت له هذه الفكرة، وشعر بقلبه يخفق في لذة مجنونة، سيكون ذلك حدثاً ضخماً لا شك، وسيغير مجرى الأمور، وسيكون اسم الحويرث على كل لسان، إذا كان إغراؤه السفهاء بزينب قد أقام الدنيا وأقعدها، فماذا يحدث إذا قضى على حياة محمد ؟ ؟

لكن خاطراً طارئاً أزعجه، وأثار الضيق في نفسه مرة أخرى، أيمكن أن يكون محمد نبياً حقاً ؟ ؟ » ان صح ما زعموا فقد تحرسه الملائكة ، أو يطيش الله سهم أعدائه، أو لعل السهم يصيبه دون أن يقضي على حياته ... أسئلة واعتراضات يثيرها الحويرث أمام نفسه لأول مرة ... وعندما بلغ الحويرث بيته، دلف إلى مخدعه صامتاً شارداً، جاءت زوجه وقالت له :

— « ما بك ؟ ؟ »

تحول نحوها ببطء، وشمل وجهها بنظراته القلقة، ثم قال بصوت خفيض :

— « أو تعتقدين ان محمداً نبي ؟ ؟ »

لم تكن تتوقع السؤال، فهزت كتفيها في حيرة وقالت :

— « أنت تعرف ... »

صرخ محتداً :

— « أنا لا أعرف شيئاً ... »

— « غير معقول ... انت تحاربه ، وتفند دعواه، وتحمل عليه في عنف ، وتسببت في ايذاء ابنته ... »

دفعها في عنف قائلا :

— « لا تذكري هذا الحادث الملعون ... »

ثم تحول عنها وهو يقول :

— « انه لشيء تافه أن أؤذي امرأة ... لو كان هذا الايذاء موجهاً لمحمد نفسه او لرجل من رجاله لما ضايقني أمره ... »

وصمت برهة، ثم قال :

— « أجيبي على سؤالي ... أيمكن أن يكون نبياً ؟ ؟ »

قالت دون أن تزايلها حيرتها :

— « وما قيمة ذلك يا حويرث ؟ ؟ لم تكن تفكر كثيراً في هذا الأمر من قبل ... »

— « أليس لديك فكرة ما عن الأمر ... »

— « لم يكن يعنيني كثيراً ... لقد حبستني في دائرتك، ولم أكن أفكر أو أؤمن إلا حسبما تراه أنت ... »

كان يريدها ان تقول شيئاً، وتخفف من أساه وحيرته، ماذا لو كذبت عليه، وأكدت له أن محمداً ليس نبياً، إنها لن تخسر شيئاً، لكنها سترد إلى زوجها قدراً من الثقة واليقين ... »

وافاق من هواجسه على صوت زوجه تقول :

— « الأمر جد غريب يا حويرث، ان الرجل يقول كلاماً حلواً أشبه ما يكون بالسحر، وحياته كلها ليس فيها ما يشين ... »

قال وقد احتقنت عيناه :

— « ليس في هذا شيء خارق للعادة ... إن بعض البشر من الشعراء والحكماء تنطبق عليهم مثل هذه الصفات ... وهل هذه الصفات كافية لان تعطي مواصفات نبي من من الانبياء ؟ ؟ »

همست في ارتباك :

— « لا أعرف ... »

— « ولم لا تعرفين ... اصبح هذا الأمر شغل حياتنا الشاغل ...

من اجله خضنا الحروب، وسفكنا الدماء، وضحينا بالكثير ... وأمام رجالنا طريق طويل من المشاق والعناء والدماء ... »

قالت في خوف :

- « لو كان الامر أمري لانصرفت عن هذا الموضوع كلية ... »

- « لماذا يا امرأة ؟ ؟ »

- « لأريح نفسي من عنائه ... »

قال وهو يصر على أسنانه في غيظ :

- « كلامك ليس فيه غناء، ومنطقك منحط بارد مثلك ... اغربي عن وجهي يا امرأة ... »

قالت وهي تخرج :

- « ماذا دهاك ؟ ؟ دائماً تقحم نفسك فيما هو اكبر منك ... »

بصق نحوها ، ثم لم شعثه، عازماً على الخروج ...

- « إلى أين يا حويرث ؟ ؟ »

قال دون أن يلتفت إلى زوجه :

- « إلى الجحيم ... »

قالت في غضب :

- « أعرف... انك ذاهب إلى عاهرتك يا من تتساءل عن الله والنبوات ... والحق ... »
ومضى في طريقه، هناك في أطراف مكة سيجد تلك العرافة، إنها تجيب دائماً على أي سؤال، ما قصدها في شيء إلا وعبرت عن رأيها، كان يسألها عن الحب والقلوب والخروج في الغزوات والتجارات، وكانت دائماً توجهه، لا يهمه إن كانت تصدق أو لا تصدق، بل كثيراً ما كان ينسى نبوأتها في خضم الحدث الذي يغرق فيه ... لكنه هذه المرة يريد ان يوجه إليها سؤالا واحداً محدداً، ويريد اجابة محددة، ولدى هذه العرافة قد يسكن اضطرابه، وينال قطرات من يقين... وعندما بلغ العرافة العجوز أسقط في يدها بعض القطع الذهبية وقال :

- « سؤال واحد لا غير ... »

قالت العجوز بصوت راعش واهن :

- « خذ ذهبك ... »

- « سؤالك أولا ... »

جمع ذهبه وقال :

– « باختصار ... أريد أن أعرف ، هل هو نبي أم لا ؟ ؟ »

قالت : – « محمد ؟ ؟ »

قال : – « أجل ... »

أطرقت العجوز وقالت :

– « حسبتك أتيت تسأل هل تخلص لك أو تخونك ؟ ؟ »

– « من ؟ ؟ »

– « زوجتك ... »

قال وقد ارتجفت اوصاله :

– « أهناك شيء مزعج حقاً ؟ ؟ »

– « بالطبع لا ... لكنك أول رجل يأتي ليسأل عن نبوة نبي ؟ ؟ »

– « هذا هو كل ما أريده ... »

رفعت وجهها المغضن ، وقد برزت شعيرات بيضاء أعلى جبينها الشاحب الضامر وقالت :

– « أتؤمن به لو كان نبياً ؟ ؟ »

هتف في حنق ظاهر :

– « مستحيل ... لا يمكن أن يكون نبياً مهما قال ... »

قالت وهي تبتسم في سخرية :

– « ولم أتيت تسأل إذن ؟ ؟ »

– « لمجرد المعرفة ... »

هزت رأسها قائلة :

– « وما قيمه المعرفة اذا لم تكن أساساً لموقف جديد ... »

– « الموقف هو هو يا قارئة الغيب ... لا تغيير ... لكني أريد أن أعرف ... »

– « انك تتخبط يا حويرث... أمثالك دائماً يهربون من مواجهة الحقائق ، ولا تزيده المعرفة الا خبالا وتخبطاً ... »

نظر اليها في رعب وقال :

– « وكيف عرفت ذلك ؟ ؟ »

– « أنا عرافة ... »

— « ومحمد ؟ ؟ »

سعلت وقالت بعد لهاث :

— « لا شأن لي بأمر كهذا، ولو أبرزت لي ألف ألف قطعة من الذهب... »

قال وقد انتابه دهشة كبرى :

— « ولماذا ؟ ؟ »

— « العرافة الصادقة، ان صح التعبير لا تتخطى مجال كونها ... إنني أرى رجالا وسيوفاً ودماء، وعالماً مائجاً بأحداث كبرى، وأنا أضعف من أن أحشر نفسي في هذه المعمعة ... أنا عجوز واهنة القوى ... »

صرخ محتداً :

— « هل هو نبي ؟ ؟ »

— « علمنا محدود ... »

— « تكلمي وإلا ... »

— « النبوات لا تعرف عن طريقنا يا حويرث ... »

— « دليني على الطريق اذن ... »

— « اذهب وسل محمداً ... »

وثب كنمر مفترس، ثم انقض عليها، وأمسك عنقها بيد متشنجة، حتى كاد يزهق أنفاسها، لولا أنه أفاق إلى نفسه، وارتعدت مفاصله، وتصبب العرق على جبينه، ثم سحب يده في ذهول، بينما شهقت المرأة شهقة طويلة، ثم زفرت، وقالت في هدوء :

— « لقد نجوت بنفسك ... إن قتل عرافة معناه لعنة أبدية ... »

قال وهو يلهث :

— « وقتل نبي ؟ ؟ »

قالت وهي تهب واقفة في ضعف :

— « أخرج من بيتي يا حويرث ... »

جر ساقيه جرّاً، ومضى في الطريق العام، وجمرة من النيران تتقد في رأسه، وعيناه لا تكاد ان تبصران شيئاً عبر الظلام، وتمتم :

— « محمد قادم في ألفين من رجاله، فرسانه على مشارف مكة، ينتظرون، أية لمحة من غدر ، فيهبطون التلال والوديان، ويعملون السيوف ... آه ... لن يعثروا على القاتل

مهما كان ... فسأختفي في الكهوف، أو أعبر الصحارى إلى أرض أخرى متنكراً ... سأجعل الجميع يصطلون بجحيم الجريمة، ويدفعون ثمن نقمتي ... الحويرث قتل محمداً ... فإما أن يوضع فوق رأسي تاج، او تقدم اشلائي طعاماً للطيور أو وحوش البرية ... اني مقتول إن انتصر محمد، الأمل الوحيد أن ينهزم أو أضرب ضربتي لأنجو وأسحق عدوي ليس هناك طريق ثالث ... لكني أريد ان أعرف : أهو نبي ؟ ؟ برغم كراهيتي الشديدة له، واحتقاري لمن أسلم برغم كل هذا أشعر بجوع شديد للمعرفة ... العرافة المجرمة طعنتني في الصميم حينما سخرت من طلبي للمعرفة المجردة ... المعرفة يتبعها موقف محدد ... لكني لست في حاجة إلى موقف جديد ... »

ولم يكد قد مضى عليه سوى فترة قصيرة منذ ان ترك بيت العرافة، حتى فوجىء بصوتها ينبعث خلفه، وهي تتوكأ على عصاها، بظهرها المقوس، وخطواتها الكليلة، وهتفت به :

— « يا حويرث ... كل ما أعرفه أن نجمه سيعلو، وأنه سيملك سلطاناً ما كان لأحد في العرب من قبل، وستعنو له جباه الملوك، سينتصر، يا حويرث، وأرى على الطريق رووساً كبيرة مهشمة ... وأرى السوقة يرتفعون ... وسيحظى بحب كأنه العبادة ... »

تراجع خطوات، ثم قرب وجهه من وجهها وصرخ قائلا :

— « تعساً لك ... ألهذا جئت ؟ ؟ »

ثم دفعها، فارتمت على الارض لاهثة الأنفاس ...

وتركها ومضى في طريقه ...

« التعسة قالت كلاماً فارغاً، لا ينكر أحد أن لمحمد سلطاناً كبيراً على يثرب وما حولها، لكن هذا السلطان معرض للدمار في أية لحظة، فما أن تحشد مكة قواها، وتوحد صفوفها حتى ينتهي أمره إلى الأبد ... أما الرؤوس الكبيرة المهشمة فقد حدث هذا فعلا يوم بدر. ليكن ... فالأبطال الشجعان هم الذين يخوضون المعمعة وينتصرون ... أو يسقطون شرفاء ... »

وفكر الحويرث، أين يذهب ؟ ؟

ألى بيته ؟ ؟ تلك الزوجة الغبية الباردة تثير حنقه، وتطفىء لهب فكره وعواطفه ... لشد ما يكرهها ! ! أيذهب إلى أحد أصدقائه ؟ ؟ هناك السخريات ... وإهدار محمد لدمه، وترديد ذلك الحديث السمج ...

آه ... ليذهب إلى تلك الراقصة الحبشية في أطراف مكة من ناحية الجنوب... هناك

الخمر والرقص والغناء حتى الصباح، ورؤوس الرجال لا تفيق ... السكر لا يفتح مجالا لحديث جاد، وفي وسط ذلك الضجيج يستطيع ان يصيح و يعربد ويسكر دون أن يحاسبه أحد ...

« يا بحر النسيان الخالد، انني أعبدك ... ان كأساً من الخمر أحلى مذاقاً من ألف حكمة، والف كتاب منزل ... وليكن ما يكون ... »

انفتح باب صغير، فانحنى ومر إلى الداخل ... فصاحت أنفه رائحة الخمر والشواء والهواء البارد، في ذلك القبو الغريب ...

— « مرحباً ... مرحباً ... »

الفصل السابع والعشرون

– « لؤلؤة ... إليّ يا أحلى كأس ذاقته شفتاي ... »

قالت وهي تميل نحوه في دلال، وتلفحه بعبيرها، وتلامس وجهه بشالها الأخضر الصارخ :

– « الخمر المعتقة غالية الثمن يا حويرث ... »

قال ولعابه يسيل :

– « معي ذهب كثير ، إنك أحق به من عرافة حمقاء ... »

ضحكت في خلاعة، وقربت وجهها من وجهه قائلة :

– « إنك تهذي ، ما شأن العرافة بنا الآن ... »

– « لا شأن لك بذلك ... أريد أن أرخي العنان لأهوائي ... »

وبدا الجد على وجهها وهي تقول :

– « مالكم جميعاً تنتهبون اللذة ؟ ؟ لكأنكم تخافون نهاية مفزعة ... »

– « انني هكذا دائماً ... تُرى هل جدّ جديد ... »

عادت تمرح وتضحك وتقول :

– « سمعت أنه أهدر دمك ... »

صرخ كمن لدغه عقرب :

– « اصمتي يا حقيرة ... »

– « ماذا ؟ ؟ هل أسأت القول ؟ ؟ هذا ما سمعته ... »

– « حتى هنا تتحدثون عن هذه الأمور ، ومن هو حتى يهدر دمي ؟ ؟ أنا الحويرث وأنا الذي أعلن إهدار دمه ... »

وصدرت قهقهة من ركن قصي :

– « مهلا يا حويرث، فلن تطولك يد محمد، إن سيوفنا أطول منها بكثير ... »

التفت الحويرث نحوه في استبشار وقال :

— « طاب مساؤك يا عكرمة ... »

— « اقبل فلدينا خمر معتقة بلا ثمن ... ودعك من لؤلؤة الآن ... »

وهتف رجل آخر :

— « ان الحويرث يرغي ويزبد، ويثور ويعربد، لكنه لا يسلو لؤلؤة، حتى ولو مزقت نعالها فوق رأسه ... »

وانطلق الجميع يقهقهون، وشاركهم الحويرث مرحهم، وقد أخذت سحابة الحزن تنجاب رويداً رويداً عن روحه المثقلة بالهموم. وما أن تبادل بضعة كؤوس حتى شعر بحرارة جسده، وبفوران دمه، وأخذ يتطوح من السكر ويهذي :

— « العجوز التي أصابها الخرف تزعم ان نجمه سيعلو... ها ... ها ... ها ... أيها السادة انا رجل اقبل على أي عمل وأمارسه باخلاص لا مثيل له ... كرهت محمداً ... لو تجمع كرهكم فيّ أنا لرجح حقدي عليكم ... دائماً أعرف كيف أتفانى في أحاسيسي وتصرفاتي ... انظروا من هذه النافذة ... ليس هناك نجم واحد يعلو النجوم كلها ... الف الف نجم تبدو بعيدة بعداً رهيباً ... بل إن اضوء الكواكب وأبهرها هو الأقرب منا ... استمعوا اليّ جيداً وانظروا إلى القمر ... ومع ذلك فأنا أكره القمر ... ما أروع أن يسود الظلام، ويطمس معالم الأشياء ... عندئذ تنزلق نظراتي الواهنة وتلامس الكائنات لمسا هينا، ولا يرهقها التمييز أو المفارقات ... لماذا تضحكون ؟ ؟ تلك هي الحقيقة ... ما قصدت ايذاء زينب بل تمثل لي محمد على وجهها ففعلت ما فعلت... لكن ايها الحمقى، كيف تسمحون لمحمد أن يطأ ثرى هذه البلدة وأنتم على قيد الحياة ... اللعنة على كل العهود والمواثيق ... ابحثوا لأنفسكم عن طريق جديد ... لقد فقدتم القدرة على الحكم الصادق ... إن شيوخ مكة وجبناءها قد أصيبوا بالخبال ... إنهم لا يتمتعون بأي قدر من الحكمة او البراعة ... تمردوا على فكر هؤلاء المخرفين ... واعتصروا عنق محمد بأيديكم القوية ... السلام مع محمد معناه أن نفقد عهد اللذة والهوى والكبرياء والحرية ... لا يصح ان تكونوا على استعداد لأية تنازلات ... لقد خلقكم الله هكذا، فلا تتركوا الفرصة لأحد كي يغير من حياتكم شيئاً ... ثم استدار صوب لؤلؤة وقال :

— « اضربي على الطبول بعنف ... وارفعي عقيرتك بأقوى غناء ... وارقصي كما ترقص الشياطين... صفقوا أيها السكارى الأغبياء ... »

واخذت لؤلؤة ترقص في عنف، تلف وتدور بخطوات سريعة، وحركات متلاحقة منسقة، وفي يديها قطع معدنية لامعة ذات رنين شجي يتسق وخطواتها وحركاتها وتصفيق

الحاضرين، وحاملوا الطبول يدقون دقات رتيبة عالية النبرة، وعازف الناي يطوح رأسه وعنقه الطويل المندى بالعرق مع حركات لؤلؤة، والعيون الزائغة ترمق المشهد وكأنها في حلم صاخب الدوي، والحويرث يقف بعوده الفارغ فاتحاً ذراعيه، يتطوح في مكانه، يصرخ الاشتهاء في عينيه وفمه، ككلب جائع ...

وساد الهدوء المؤقت بعد ساعة .، وارتمت لؤلؤة على وسادة حريرية تلتقط أنفاسها، وتجرع رشفات من كأس مذهب، ووجها الأسود الفاتن، يغري بالحماقة والاندفاع والعبث ... وحبا الحويرث نحوها على أربع ... رجلين ويدين ... ثم تحسس ذراعها البضة، فدفعته في جبهته ساخرة ...

وقال عكرمة محتجاً :

— « لست وحدك يا حويرث ... ألا تعبأ بمشاعر أحد ؟ ؟ »

فكان رد لؤلؤة على هذا التعليق أن مسحت على رأس الحويرث، وجذبته، إلى جوارها وقالت :

— « هذا رجل شجاع لا يهاب أحداً ... »

أضاء وجهه المحتقن المتوتر بإشراقة مفاجئة وقال :

— « لؤلؤة وحدها تعرف أقدر الرجال ... إن اسعدكم حظاً هو أكثركم قرباً إلى مجلسها وإلى ريحها العبق ... لا تصدقوا أدعياء النبوة ... فما خلق الله هذا الكون ليكون تحت سيطرة أحد ... الجمال واللذة لهما السلطان على هذا الوجود ... حتى الحيوانات تعرف ذلك بغريزتها ... »

أسرعت لؤلؤة وضمته إلى صدرها ضمة شديدة، بينما صدرت على الحاضرين كلمات اعتراض، وعلا الضجيج والاحتجاج حينما طبعت على جبينه الملتهب قبلة خاطفة. وهمس الحويرث في أذنها بانفعال :

— « لا توجد أية قوة في الوجود تستطيع التفريق بيني وبينك ... حتى ولو كان نبياً مرسلا من السماء حقاً ... »

— « إنك عنيد يا عاشقي الولهان ... »

— « ما تعودت أن أكون ذيلا لأحد ... »

— « عشت لي ... »

— « طول حياتي أقرر مصائر الناس، ولا أسمع لأحد بأن يقرر مصيري... »

قالت لتثيره :

— «لكنه أهدر دمك ... »

رفع رأسه في عناد وتحد وقال :

— « وأنا أهدرت دمه، ولنر ما سيحدث ... »

— « تعامله كند صعب المراس ... »

— « لست دونه ... أعطني شفتيك ... »

— « ليس الآن ... إنهم ثائرون ... »

وصاح أحد الحاضرين :

— « ما هذه الهمسات ؟؟ إما أن تكون البهجة مشاعة أو ننصرف ... »

وتجمهروا حولهما، هذا يمسك بذراعها، وذاك يلامس شعرها، وثالث يجر الحويرث بعيداً عنها، واثنان آخران يتضاربان، والضحك والفوضى تشمل المكان، ولؤلؤة تبتسم لهذا وتغمز لذاك، وكل واحد يتصور أنها لا تهتم إلا به، ولا تكنّ الحب إلا له ...

وصاحت فجأة :

— « استمعوا إليّ جيداً ... »

تركزت عليها العيون، واحاطوا بها من كل جانب، وبدا الاهتمام على وجوههم، وانصتوا لما تقول :

— « لئن حاقت الهزيمة بمحمد وجيشه في يوم من الأيام، فإني سأنذر جسدي لكل وافد، وابذله قرابة شهر... »

وصفقوا وطربوا أيما طرب لتلك الفكرة الرائعة، لكن الحويرث اكفهر وجهه وقال في ضيق ظاهر :

— « وما هي المكافأة التي تعطينها لمن يقتل محمداً بيديه ؟؟ »

قالت وهي تمط عنقها، وتضيق من فتحة ثغرها، وتهز رأسها يمنة ويسرة :

— « روحي وحياتي وجسدي ... »

واتسعت ابتسامته، وتأرجحت نظراته كثعبان حبيس جائع وقال :

— « ذلك هو النعيم بعينه، ولا نعيم غيره ... »

واستطال الليل ، وامتد السهر ، واخذوا ينسلون واحداً إثر الآخر ، ولم يبق إلا الحويرث ، وأخيراً قالت لؤلؤة وهي تستلقي منهكة على حشية لينة نظيفة :

— « لقد آذن الليل بالرحيل ... ألا تسير إلى بيتك أنت الآخر ؟ ؟ »

رماها بنظرات جائعة وقال :

— « ليس لي بيت، أينما تحلو الحياة يكون مستقري ومقامي ... »

— « لكن لك زوجة ... »

— « اتركي هذا الغم ... ودعينا ننهل رحيق الحب والحياة ... »

شردت بضع لحظات وقالت :

— « لشد ما أنا خائفة ... »

— « ممن ؟ ؟ »

قالت في تنهد :

— « محمد ! ! أنا لا أتصور أن تنهار هذه الحياة التي أحياها ... عندما ينفض الرجال من حولي أشعر بفراغ قاتل، وخوف مبهم، قالت لي امرأة عجوز إن بي مرضاً خبيثاً ... وزعم بعض الرجال ذلك ... إنهم يكذبون ... إنني استمتع بالحياة على أروع صورة، وأعطي من أشاء وأمنع من أشاء ... الكبار يأتون إلى بيتي أذلاء صاغرين ... انني قادرة على ان امنحهم المتعة الفائقة ... أشعر أني ملكة متوجة، لي سلطان كبير على الجميع. ما طلبت من أحد طلباً إلا وأجاب ... أيمكن أن ينتهي هذا كله، وينقطع سيل الذهب الذي يتدفق في حجرتي، وأصبح امرأة فقيرة، في كنف رجل واحد قد يكون هو الآخر فقيراً ... ثم تذبل الأضواء من حولي، وينفض السامر، ويحل الصمت محل الضجيج والمرح والاستمتاع ؟ ؟ ترى لماذا أتى محمد في هذه السنين بالذات ؟ ؟ أليدمر مجدي، ويحطم حياتي ؟ ؟ »

قال وهو يتمدد إلى جوارها :

— « ما هذه الخواطر السوداء ؟ ؟ إن غرور المسلمين سيجرهم إلى الفناء لا شك، إنهم خرافة سرعان ما تنطوي كما انطوت عشرات الخرافات من قديم ... أبعدي الخواطر القاتمة عن رأسك ... وهيا نهيم في أودية الحب الخضراء اليانعة ... »

قالت دون أن تستجيب لتحريضه :

— « خبرني يا حويرث، لماذا تكرة محمداً ؟ ؟ »

قال دون تردد :

— « لأنك تكرهينه ... »

— « اعطني سبباً آخر ... »

— « حسناً ... ولأنه أهدر دمي ... »

— « قبل ذلك ... أريد أن أعرف الحقيقة، لماذا اعتديت على ابنته ... »

قال وهو لم يزل يتململ في خبث :

— « الحق اني اكره العفة وادعياءها ... »

— « لماذا ؟ ؟ »

— « لانها شيء فوق طبيعة البشر ... »

— « أيها القذر... إنك صفيق غريب الطبع ... »

ومضى في تخبطاته :

— « وأكره الحكمة والحكماء ... ليس هناك شيء اسمه الحكمة، هناك أمر واحد، أن يتصرف الانسان من قلب الموقف المفاجيء ويستجيب لطبيعته ... القواعد الجامدة التي يرسمها الحكماء ليسير عليها الناس تطفل وفضول سخيف ... إنني حر ... هذا ما أعرفه ... »

قالت في شرود :

— « ثم ماذا ؟ ؟ »

— « أتريدين المزيد يا لؤلؤة ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « الصبح أوشك ، ونريد أن نغرق هذه الهواجس في بحر اللذة العظيم .... »

هتفت في حدة :

— « تكلم ... »

— « حسناً يا لؤلؤة ... واكره أن يتساوى السادة والعبيد ... »

— « ثم ماذا ؟ ؟ »

— « وأن تسود المحبة والاخوة ... »

قالت في دهشة :

— « كيف ؟ ؟ أنت تهذي من أثر السكر يا حويرث ... »

وهل يعقل أن يتحاب الناس ويتآخوا جميعاً ؟ ؟ لا بد أن يكره الإنسان ويحب، وينفر من هذا ويقبل على هذا ... »

وعادت تتنهد وتقول :

— « ثم ماذا ؟ ؟ »

— « وأكره أن تكون الخمر محرمة، وألا يستمتع الرجل بالمرأة الا في ظل الزواج، وان تكون حياتنا كلها حسب قواعد تحدد كل شيء ... أليس هذا مرعباً ؟ ؟ »

وطوقها بذارعيه، لكنها دفعته في رفق قائلة :

— « ألا يمكن أن يكون محمد على حق ... »

— « مستحيل ... »

— « وما وجه الاستحالة ؟ ؟ »

— « الدليل هو أنه لا توجد قوة في الأرض تمنعك مني الآن يا لؤلؤة ... » وغامت الرؤى، وعوت الذئاب ، واشتد الوهج ، وانس القلق في دوامة من الحذر المؤقت وأشرقت الشمس على قيثارة حزينة، وطبلة وناي كلها ملقاة إلى جوار جسدين شبه عاريين يغطان في نوم عميق، ولم يستطع النوم أن يبدد ما على الوجهين من قلق وحزن دفين... »

الفصل الثامن والعشرون

كان « الحويرث » ساخطاً ناقماً، يتساءل بينه وبين نفسه لماذا لا تضرم مكة النيران، ويؤجّجون المعركة حتى يحترق محمد وأتباعه إلى الأبد ؟ ؟ وتستبد به الحيرة أكثر حينما يرى أهل مكة – غالبيتهم – تطرب للحدث الجديد، وتتشوق لرؤية محمد والمسلمين وهم يطوفون حول البيت العتيق، وحاول تفسير ذلك، هل أهل مكة سذج بلهاء يحنون لرؤية أي شيء جديد مثير كي يتخلصوا من ركود حياتهم، وما يدب فيها من ملل وقلق ؟ ؟ أم تراهم فرحين بأن البيت الحرام لهم، والعرب جميعاً، بما في ذلك أعداؤهم، يشدون إليه الرحال صاغرين ؟ ؟ أو ربما يكون الأمر لا هذا ولا ذاك، لعله أخطر مما يتصور الحويرث، أو يمكن ان يكون أغلب أهل مكة قد ملوا العداوة والحقد والتهديد الدائم، وأنسوا للموادعة والسلام ؟ ؟ إن صح ذلك التفسير الأخير فسيكون ذلك داهية الدواهي، فمسالمة محمد – حسبما يعتقد الحويرث . جريمة كبرى لا تغتفر، فيه التمكين له، أو على الأقل إتاحة الفرصة لدعوته كي تنتشر ويتكاثر أتباعها في طول الجزيرة وعرضها، حتى تنعزل مكة، وتخر في نهاية الأمر راكعة مستسلمة تُقبّل أقدام محمد، وتقدم له فروض الطاعة والولاء، أما التفسير الأخير الذي لا يمكن ان يتصوره الحويرث هو أن يكون أهل مكة قد مالوا إلى الإسلام، وأصبحوا يتوقون إلى اعتناقه، وفي هذه الحالة فالموت أروح من الحياة، ولا قيمة اذن لأي شرف أو كبرياء، أو مجد ... وانزعج الحويرث أيما انزعاج للخاطر الأخير ... ولعن مكة وسكانها وكبراءها وتفكيرها ... وكيف يتصور أن قلوب الناس قد خلت من الحقد على محمد، وأنه في طريقها إليه لتلبي دعوته، وتعانق افكارة ؟ ؟ »

وهتف الحويرث بامرأته قائلا :

– « إليّ بأحدث ما لديّ من حراب ورماح ... »

قالت والدهشة مرتسمة على وجهها :

– « على قدر علمي بأنه ليس هناك تفكير في حرب ... فالناس يستعدون للخروج واللجوء إلى قمم الجبال والتلال حتى ينهي محمد شعائره وعبادته لأيام ثلاثة ... »

صرخ فيها محتداً :

— « الحماقة طبعك، والغباء سليقتك ... اذهبي ونفذي ما أمرتك به ... » ومضت المرأة لتحضر له ما أراد دونما حماس أو اقتناع ... كانت مندهشة لتصرفات زوجها ... ولا تعرف في كثير من الأحوال سبباً وجيهاً لأغلب تصرفاته، يغضب في مواطن البهجة ... ويبتهج إبان الغم والأحزان، ويستعد للحرب والناس يترنمون بأنغام السلام، ويسهر حيث ينامون ويثور وهم هادئون ... »

قال وهو يزيل الصدأ عن حرابه :

— « الفضيلة نابعة من الخوف، والشرف ترجمان العجز، والسلام أمنية الواهمين وأصحاب المصالح المادية ... الفضيلة المجردة خرافة ... »

تمتمت في صوت خفيض :

— « أقسم أني لا أفهم شيئاً ... »

— « بالطبع ... هذا دأبك، لكنك تستطيعين أن تفهمي إذا شرحت لك الأمر باسلوب آخر ... الفضائل في عالمنا ليست صادقة ولا حقيقة ولا تعني التسمية التي اخترناها لها، فمثلا ... « صلح الحديبية » هل هو صلح فعلا ... كلا ... لقد رأت قريش أن مصلحتها الصلح المؤقت، ورأى محمد نفس الرأي لأسباب أخرى، كلاهما سيكسب من وراء هذا الصلح فعقدا صلحاً مدته عشر سنوات... أليس مضحكاً أن يكون الصلح موقوتاً ؟ ؟ ليس لهذا سوى معنى واحد ... هو أن العداء القديم كما هو، والاحقاد لم تندثر، لان دماء الضحايا من الطرفين ما زالت تلهب القلوب، وتصرخ بالثأر ... أتفهمين الآن ؟ ؟ »

هزت رأسها متظاهرة بالفهم، لكنها قالت :

— « لماذا تفكر هذا التفكير الآن ؟ ؟ »

ابتسم في خبث وقال :

— « التساؤل معناه أنك ترغبين في تفهم الحقيقة وهذا أمر عظيم ... حسنا ... اذا كان الحقد والعداء كما هما، وإذا كان الصلح زائفاً موقتاً ... فلماذا انخدع مع هؤلاء الحمقى ؟ ؟ سأحاول أن أكون الشخص الوحيد الذي يدرك الحقيقة ويعمل بمقتضاها ... سأحارب ... »

انتفضت وتوترت أعصابها، وهتفت :

— « أتحارب وحدك ؟ ؟ إنني أرى مكة كلها لا تفكر في شيء من هذا ... »

— « كان محمد وحده في البداية، وكنا نضحك ونسخر منه ... واليوم يحيط به الآلاف ... »

— « الامر جد مختلف يا حويرث، إن خوضك الحرب وحدك معناه الانتحار، ولا تكلف المسلمين سوى ضربة سيف تنهي حياتك، ولن يلومهم أحد أو يتهمهم بالغدر، بل إن مكة نفسها قد تجهز عليك احتراماً للعهد المكتوب، وإنقاذاً لحياتها من الاضطراب والمخاطر ... »

قهقه في سخرية وقال :

— « هذا جانب واحد من التصور ... »

— « وما هو الجانب الآخر ؟؟ »

قال في ثقة :

— « أن ينسى الناس الزيف. أعني الصلح المزعوم، وينصاعوا للحقيقة والواقع، فيدركون أن المعركة مستمرة، وأن من الحماقة تأجيلها بضع سنين ... وعندما يراق الدم يا امرأة، ويخضب لونه الأحمر الرمال الصفراء، تنطلق صيحة الثأر والجنون، وتخرج السيوف من أغمادها، ويسقط الزيف ... أنت تعرفين من نحن، إن حادثاً صغيراً او كلمة عابرة، او بيتاً من الشعر قد يقلب الموقف رأساً على عقب، فتشتعل المعركة ... ذلك هو الجانب الآخر الذي لا تعرفينه ... » سددت الزوجة اليه نظرات مستغربة، ولم تنطق بحرف، بينما استطرد الحويرث وهو لم يزل يحمي آلات الحرب، ويجلو عنها التراب والصدأ :

— « البعض يسخر مني لأني اعتديت على امرأة هي زينب بنت محمد ... اللعنة على هؤلاء الساخرين ... ما قصدت ايذاء امرأة ... ولكني أردت أن أوجه طعنة إلى قلب محمد واستثيره، لم يكن في ذهني وأنا أحرض عليها سوى صورة أبيها ... هي لا شيء بالنسبة لي ... ومحمد ذكي لا يخفى عليه ذلك ... ولهذا ... أهدر دمي ... ها ها ها ... »

ردت الزوجة في سذاجة :

— « ويسخرون منك أيضاً بسبب ارتمائك في أحضان لؤلؤة ...

قهقه حتى كاد يستلقي على قفاه، وتمتم :

— « ايتها الخبيثة ... ليس هذا عيباً ... إنه سمة من سمات الرجولة، لكنك في الحقيقة تغارين ... »

صرخت محتدمة :

— « أأغار من هذه الساقطة الداعرة ... »

— « بالطبع ... »

— « ولم ؟ ؟ »

— « الكبار يترامون تحت قدميها، وهي لا تأنس لأحد كما تأنس لي ... أشعر إلى جوارها بمزيد من الرجولة والكبرياء والقيمة ... »

هتفت محنقة :

— « أتستمد كبرياءك وقيمتك من هذه السافلة ؟ ؟ إنها تخدعك ... »

— « ولم لا ؟ ؟ انا أعرف ما أريده منها، وهي تعرف ما تريده مني ، إننا نتعامل عن تبصر ... »

ثم استدرك قائلا :

— « لكن لماذا تجرينني للحديث عن هذا الامر ؟ ؟ »

وانصرف الحويرث عن زوجه، كان يفكر في الذهاب إلى دار أبي سفيان حيث يلتقي نخبة من رجال الرأي والحسب والنسب، كان يريد أن يناقش الأمر هناك ويحاول إقناع الموجودين بالانقضاض على محمد، فربما ينصاعون لرأيه، فيتحقق ما يصبو إليه، ويحلم به..

وفي الطريق إلى بيت أبي سفيان، كان يرى بعض الناس، يضعون أمتعتهم فوق الجمال والحمير، كي يهرعوا إلى جبل « أبي قبيس » أو « حراء » مبكرين قبل غيرهم، لعلهم ينتخبون أحسن الأماكن وأفضلها حتى يطلوا من هناك على مواكب المسلمين وهم يدخلون مكة، ويطوفون بالبيت الحرام، وتمتم الحويرث بينه وبين نفسه : « هؤلاء المأفونون يفرون إلى رؤوس الجبال، ويخلون بيوتهم ومدينتهم باسم الوفاء الأحمق لعهد «الحديبية» الملعون ... يسمونه وفاء وهو في الحقيقة جبن وفرار ذليل . وفي بيت أبي سفيان وجد حشداً كبيراً من الرجال ... هذا عكرمة بن ابي جهل، ويليه خالد بن الوليد، وجبير بن مطعم ووحشي بن حرب، العبد الذي تحرر بعد أن قتل حمزة، وهو الآخر مهدور الدم، وهناك رجال من بني هاشم وربيعة وغيرهما ... كان الحديث يدور في فتور وهدوء كئيب، وسمع الحويرث أبا سفيان يقول :

— « لسوف تنتهي الأيام الثلاث ويعود كل شيء كما كان ... وأنا لا أتوجس خيفه من شيء، فمحمد لن يغدر بعهده معنا، إنني واثق من ذلك، فهو لا يبغي سوى أن يزور البيت الحرام، وهذا حقه وحق كل عربي، ولقد رفضنا في العام الماضي أن يدخل علينا مكة عنوة ليؤدي شعائره، فعاد الرجل من حيث أتى ... ومحمد بالتأكيد لم يأت محارباً ... أعرف أن له بعض الفرسان على مشارف مكة خارج نطاق الحرم، لكن الرجل لا يقصد سراً، إنه يحتاط للأمر، وليس في ذلك شيء يخل بالاتفاق ... وخلاصة الأمر أن محمداً لن يدخل على الرغم منا، وإن ما حدث كان باتفاقنا ورضانا، ولن تستصغر العرب قدرنا

لذلك، بل على النقيض تماماً، لقد تألم كثيرون من رؤساء القبائل لأننا منعناه في العام الماضي ... وقالوا إن زيارة البيت حق لجميع العرب ...

أيها السادة الأمر بسيط غاية البساطة، وليس فيه ما يشين مطلقاً، ونحن نرفض أي خروج على نصوص الاتفاقية، ومن حاول خرقها مزقناه بسيوفنا ... »

وارتفع صوت وسط الهدوء الفاتر يقول :

— « لن اتركهم يدخلوها آمنين ... »

وتركزت الأبصار على الحويرث الذي استطرد قائلا في ثورة :

— « إن الرجل الذي سفه آلهتنا، وقتل الأشراف من رجالنا، وسخر من عقائدنا ونظامنا لا يجوز أن نفتح له أبواب مكة، أو ندعه ليطوف بالبيت الحرام » .

ظن الحويرث أن كلماته ستثير لغطاً وضجيجاً، أو ستكون كالحجر الذي ألقي في ماء ساكن، وكم كانت دهشته، حينما وجد الهدوء الفاتر يسود المكان، وليس على وجوه الحاضرين أية انفعالات او استجابة، وآفاق من ذهوله على صوت ابي سفيان يقول :

— « يبدو انك قادم لتوك يا حويرث ... لقد تكلم بمثل هذا الكلام بعض الرجال، ولم يلق الأمر قبولاً لدى ذوي الرأي فينا، وأصبحنا جميعاً متفقين على التمسك بالاتفاقية، وإتاحة الفرصة لمحمد ورجاله كي يقضوا أيامهم الثلاثة هنا، بل وحمايتهم ايضاً ... »

زمجر الحويرث قائلا :

— « تخافون على أموالكم وتجارتكم، وتخافون على حياتكم، أما كبرياء العرب وشرفهم فلا يؤبه لهما ... »

قال أبو سفيان في هدوء :

— « الشرف والكبرياء هما الوفاء بالعهد، وفتح بيت الله لكل قاصد ... »

إلا وإن أي خطأ لن يقع وزره على فاعله وحده، بل سيشمل مكة باسرها، ويجر عليها الوبال ولن يستقيم أمر جماعة من الناس إلا إذا استناروا بالرأي، وسكنوا إلى الروية والحكمة، والتزموا نصح ذوي الرأي فيهم ... »

لم يسكت الحويرث وانما انطلق يردد آراءه وافكاره، واصراره على الانتقام من محمد، ولم تكن آراؤه تختلف عما قاله لزوجه وأصدقائه وعشيقته الراقصة السمراء، لكنه كان يصرخ في واد، ويخطب في صم بكم لا يسمعون او يتكلمون، أو هكذا خيّل إليه، وبعد أن هده التعب، وبح صوته آثر السكون، وهو يخفي في قلبه وروحه براكين تتفجر من الغيظ والنقمة ... وعندما هموا بالانصراف مال على أذن عكرمة بن أبي جهل قائلا :

— « كيف يمضي الأمر على هذا المنوال يا عكرمة ؟؟ »

— « انني أشعر بأسى وحزن عميق، يا حويرث ... لكن ما الحيلة ؟؟

— « لا بد أن نضرب ضربتنا يا عكرمة ... »

قال عكرمة وجبينه يتفصد عرقاً :

— « القائد الماهر ... يتراجع لينقض، ويراوغ ليسقط عدوه في الكمين... والقائد البارع يختار الوقت المناسب والمكان المناسب... »

قهقه الحويرث في سخرية :

— « علموك اللعب بالألفاظ، وأوعزوا اليك بفلسفة الضعف ... »

وقف عكرمة، ثم استدار نحو الحويرث، وسدد اليه نظرات قاسية وقال :

— « ليس في مكة ما يمكن أن يسمى جيشاً يعتمد عليه يا حويرث ... تلك هي الحقيقة المرة، التي يحاول الجميع كتمانها ... إن الذين يميلون إلى محمد الآن اكثر من أي وقت مضى، والمعركة اليوم معناها فقدان كل شيء ... تلك هي الكارثة ... دع الصلح جانباً... إننا نتمسح في الصلح لاننا لسنا متأكدين من كسب جولة اليوم ... أتفهمني ؟؟ حذار أن تفكر في ارتكاب عمل طائش، العمل الطائش معناه تسليم مكة والمستقبل كله والنصر العظيم لمحمد والمسلمين... فهل تجهل ذلك ؟؟

قال الحويرث بوجه شاحب، وشفة مرتجفة :

— « لا ... »

— « اذن فلترضخ لأمر أبي سفيان يا حويرث... »

خفض الحويرث رأسه، وسدد نظرات إلى الأرض، وهمس بانفعال :

— « لكن محمداً أهدر دمي ... »

— « لا تفكر في ذلك يا حويرث ... »

— « ومرغ اسمي في الاوحال ... »

— « إنك تبالغ يا حويرث ... »

— « والناس تهفو إلى كلماته، وتتقاطر نحوه يا عكرمة ... »

— « قد ينقلب الأمر يوما ما ... فالناس سوف يفرون من المهزوم ... »

— « هزيمته يا عكرمة أصبحت شاقة ... »

ابتسم عكرمة وقال في ثقة :

— « في خلال عام أو عامين سيتغير كل شيء ... سنحشد الرجال ونمعن التفكير ... ونعد لكل شيء عدته، وسنعقد الأحلاف مع القبائل ... إن هوازن وثقيف ومكة ـ لو اتفقت كلمتها . تستطيع أن تحطم محمدا وصحبه ... انتظر ولا تتعجل ... نحن لا ننام ... ولا نلهو ، عندما أنام يا حويرث يتراءى لي دم ابي والسخرية التي لحقت به ... وعندما ألهو يا حويرث فأنا أحاول أن أنسى المهانة والعار ... لكن دم أبي المراق يظل يصرخ بي ... لم أعد أفكر في حق أو باطل، وهل محمد نبي أم لا ... وإنما أفكر في الثأر، والانتقام ... واتخذ من الروية عاصماً لي من الخطأ، لكني أحياناً أضعف وأتهور ... الثأر يا حويرث لا ينام ولا يخبو ... »

عاد الحويرث إلى بيته، وألقى نظرة على الحراب والسهام، وباقي ادوات الحرب، ثم صرخ بزوجه، فأتت مسرعة، فقال بنبرات واهنة :

— « ارفعي هذه الأشياء وعودي بها إلى مكانها ... »

ففعلت ما أمرها به صامتة، وعندما بلغت باحة البيت قالت وقد استدارت بوجهها نحوه :

— « هل ستخرج الليلة أم ستبقى معنا ... »

قال في غيظ ، ونظرات عينيه المحتقنتين تعبر عما يجيش في صدره :

— « سأذهب إلى لؤلؤة ... هل استرحت أيتها اللئيمة الغبية ؟ ؟ »

ومضت دون أن تنفرج شفتاها عن كلمة واحدة ...

الفصل التاسع والعشرون

شعر الحويرث بذلة ما بعدها ذلة وهو يحمل متاعه وخيمته، ويعلو جبل « أبي قبيس » إنه يساق سوقاً لفعل شيء لا يرغبه، ويخيل إليه أن محمداً يسخر منه ومن أفكاره وحنقه، وماذا يفعل الحويرث ؟؟ إنه مضطر أن ينصاع لرأي الكبار في مكة، ويلتزم بنصوص الاتفاقية، وفي اليوم المعهود تطلع إلى المشهد الذي لن ينساه ابد الدهر... محمد فوق ناقته القصواء، يأخذ بخطامها بن رواحة ... وصحابة الرسول يلتفون من حوله، ويتبعه رهط كبير من المسلمين يناهز الألفين، وتجلى البيت العتيق بروعته وإشراقه، فانهمرت دموع الرجال الذين هاجروا منذ سبع سنوات، وانطلقت السنتهم هاتفة « لبيك... لبيك، هتافات تصدر من الأعماق، ممتزجة بالحب والشوق والخشوع، معطرة بالإيمان الصادق، واقشعر بدن « الحويرث » وانتفض جسده، وفاض قلبه بالأسى والحزن... هذه هتافات رجال لا يخافون، تبدو في نبراتهم الثقة والعزم الذي لا يفل ... « لبيك... لبيك » إنها تكاد تزلزل الجبل من تحتي، كما تقذف بالحسرة في روحي الممزقة القلقة ». وهمست زوجه : « انهم طيبون يا حويرث ... لا يبدو عليهم شيء من الشر أو الغدر ... »

ورنت صفعة على وجهها، قال الحويرث بعدها في حقد :

ــ « أيتها الملعونة... هؤلاء الطيبون أهدروا دم زوجك ... »

قالت والدموع على خديها :

ــ « لم أفكر في ذلك، ثم ألا يكون هذا مجرد خبر كاذب؟ ؟

ــ « ان اساءتي لبنت محمد لا يمحوها إلا الدم ... »

وعاد الصمت يرين عليهما من جديد حينما نادى بن رواحة كما أمره الرسول :

ــ « لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، واعز جنده، وهزم الاحزاب وحده ... »

وسمع الحويرث صوت خالد بن الوليد يهتف من خلفه :

ــ « هذه كلمات قوم قد تفانوا في الله ... »

قال الحويرث في ضيق :

— « كيف عرفت يا خالد ؟ ؟ »

— « يتغنون بعبوديتهم لله، وينسبون كل نصر إليه، ويفتخرون بأنهم جنده ... »

— « ليس الأمر أمر كلمات تقال ... »

— « أجل ... لكن اذا أضيفت إلى الكلمات أعمال وسلوك معبر ، فلن يكون هناك مجال لشك ... »

رفع الحويرث اليه وجهاً ثائراً وقال :

— « ماذا تعني ؟ ؟ »

— « لم أعن سوى ما قلت ... »

— « اني أشم في كلمات فارس قريش تخاذلا ... »

— « ليس في كلماتي شيء من هذا، لكني أحاول تفهم الأمور في ضوء الوقائع ... »
وعاد الصمت وهم يرون محمداً وصحبه يهرولون في همة ونشاط بين ركن الحجر الاسود والركن اليماني، والعيون كلها ترمقهم من فوق الجبال والتلال والأشجار، مشهد لم تر قريش له مثيلا من قبل ...

— « لا أرى في الرجال بادرة ضعف أو خور ، إنهم تجسيد لكل مظاهر القوة و الإصرار الذي لا يهزم ... ألا ترى ذلك يا حويرث ؟ ؟ »

زمجر الحويرث قائلا :

— « اني لا أرى يا خالد سوى مشهداً مصنوعاً محبوكاً قصد به التأثير على الضعفاء ولفت نظر البلهاء ... »

— « تحكم على الأمور من خلال أحقادك ... »

— « ولي الشرف أن أتخذ الحقد مركباً ... »

— « لكن لا تزيف من خلاله الحكم على الأمور وتقييمها ... »

تمتم الحويرث :

— « ان قلبي يتمزق أسى إذ أرى قريشاً قد انتابها الخور ، وفل عزيمتها الملل والحنين الفارغ للمهاجرين ... »

– « الأمر أعمق من ذلك يا حويرث ... »

– « كيف ؟ ؟ »

– « محمد يملك شيئاً عظيماً يا حويرث ... »

– « ماذا ؟ ؟ »

– « يملك المبادىء الأصيلة التي تشد الرجال، ويملك الفكر الذي يحرك العقول، ويملك العزيمة والإرادة ... باختصار محمد يعرف ما يفعل ... أما مكة فتملك عشرات الآلهة، وعديداً من المبادىء التافهة، لها مائة اتجاه واتجاه ... »

ولا تكاد تجتمع على قاب رجل واحد ... »

قال الحويرث في خبث :

– « ولم لا نفعل مثله ؟ ؟ »

– « التقليد غير الأصالة يا حويرث ... »

تنهد الحويرث ساخطاً وقال :

– « ان كان نبياً فلا فضل لمحمد، فما يفعله فهو عند الله، وإن كان مجرد بشر، فإن مكة لن تعدم رجلا ذكياً مثله، يحشد قواها، ويخطط لها، ويحقق لها النصر... »

قال خالد ... « لقد لمست يا حويرث أخطر نقطة ... »

– « كيف ؟ ؟ »

– « هل محمد نبي أم بشر ذكي ؟ ؟ هذا هو السؤال الذي لا بد أن نبحث له عن جواب »

بان الضيق في عيني الحويرث وقال :

– « هذا سؤال أجبنا عليه منذ زمن بعيد ... »

– « لكنه يحتاج إلى نظر من آن لآخر... الأحداث تجري، والأمور تتضح، والجمود ليس من طبيعة الفكر النشط المتسائل ... »

– « انك تتنكر لبطولتك وجهادك القديم يا فارس أحد »

وسمع الحويرث زوجه تصيح قائلة :

– « انظر يا حويرث ... انهم يتجهون إلى الصفا والمروة ... »

التفت إليها في غيظ ، كانت نظراتها مركزة على المشهد الكبير المؤثر ، ووجهها ينطلق بشراً وفرحاً ، لم تر نظراته النارية ، ووجهه الشاحب ، ولم تفق إلا على صوته يهتف بها محنقاً :

— « عودي إلى الخيمة ايتها الحمقاء ... »

وبعد فترة صمت قال خالد بن الوليد :

— « حاربت محمداً دون أن أجهد فكري فيما وراء دعوته ، كثيراً ما كنت أمارس الحرب كواجب أو كصناعة برعت فيها ، لكن الأحداث شدتني إلى معمعان آخر ... حيث لا سيف ولا مداورة ... إنني الآن أخوض معركة فكرية ... لم يتبلور إتجاهي بعد ، لكني أتساءل ولي الحق ، وأناقشك وأناقش الآخرين ... إن الشجاعة في خوض القتال ليست هي الشجاعة الوحيدة يا حويرث ، وهناك أيضاً شجاعة مواجهة الحقائق والتفكير النزيه ... انها أعلى مراتب الشجاعة حسبما اعتقد ... ولعل هذا هو السر في استماتة محمد ورجاله ، لقد ارتضوا قيماً معنية وآمنوا بها كل الإيمان ، ولهذا لم يبالوا حينما أحاط بهم اثنا عشر الفاً من الجنود في غزوة الخندق ، وهم لم يكونوا سوى الف محصورين داخل المدينة ... الأمر أخطر مما تتصور يا حويرث ... »

شرد الحويرث لحظات ، ثم انفجر قائلا :

— « ماذا لو تسللت الآن إلى مكة ، وانقضضت على محمد وغيبت خنجري في قلبه ؟ ؟ »

قهقه خالد قائلا :

— « تحاول الهروب إلى أحضان الجريمة ... »

قال الحويرث ساخراً :

— « أنا أرفض نبوة محمد ولست أشقى بأي اضطراب فكري مثلك ... »

— « تخدع نفسك ... »

التفت اليه الحويرث وصرخ :

— « لقد أهدر دمي ... »

— « تلك قضية أخرى »

— « أنتم تفكرون ببرود ، لا أحد يعرف ما يعتمل في قلبي من أسى ... »

•

ابتسم « بلال بن رباح » ، واضاء وجهه الاسمر بفرحة غامرة ، ونظر إلى السماء ، ثم دار بنظراته في جميع الأنحاء ، كأنما يستوعب المشهد الرائع ، ويتشربه بكل ذرة في كيانه وتمتم في ابتهاج :

— « لشد ما أحب هذه الديار ! ! »

قال له عمر بن الخطاب :

— « عجيب أمرك يا بلال ! ! »

— « وأي عجب في أن أعشق الأرض التي شهدت مولد النور ، ودوت في جنباتها لأول مرة صيحة الحق والحرية والتوحيد ... إن هذه الأرض تحتضن أروع ذكرياتي »

ابتسم عمر وقال :

— « اية ذكريات يا مسكين ! ! هل نسيت السياط وهي تشوي جسدك، وهل نسيت وهم يجرونك عارياً فوق الرمال المتقدة، ويكتمون أنفاسك حتى تنطق بكلمة الكفر؟ ؟ »

— « لم أنس ذلك يا عمر ... إنني أتذكر هذه الايام القاسية بكل فخر وإعزاز ، لم يستطع عتاة مكة وكبراؤها أن يرغموني على الكفر ، كنت أردد سعيداً « أحد ... أحد ... » ، وكنت أتلذذ بما أعانيه من عذاب فوق الطاقة ... هل هناك فخر وسعادة أعظم من هذا ... »

قال عمر في رضى :

— « صدقت ... »

بينما أردف بلال :

— « واليوم ندخل مكة زائرين، ونسعى بين الأركان والصفا والمروءة، ونهتف باسم الله عالياً دون خوف ، ولا يجرؤ صوت على أن يرتفع في وجوهنا باحتجاج أو سباب ... »

ثم ابتلع ريقه، وأردف وقد ازداد وجهه الأسمر إشراقاً :

— « إن اعظم متعة أن تدع القوم الذين شهدوا عذابك وصمودك أن تدعهم يرون انتصارك وفشلهم ... وهذا فضل من الله ونعمة ... »

وهم عمر بالحديث، لكن بلالا استمر في حديثه قائلا :

— « وغداً أصعد أعلى قمة في البيت الحرام ... أنا بلال العبد الحبشي ... وأهتف بأعلى صوتي مؤذناً : الله أكبر ... الله أكبر ... أشهد الا اله الا الله ... أي مجد اروع من هذا ... وسينظر اليّ أهل مكة، ويفتحون آذانهم على الرغم منهم لتلقى هذا النداء الخالد، دون أن يجرؤ أحدهم على رفع سوطه عليّ ... لك الحمد يا رب ... »

تمتم عمر :

— « الحق يا بلال أنني أدرك ما يعتمل في قلبك من سعادة ورضى ، فقد عوضك الله خيراً أي خير ... ».

وعاد بلال يقول :

– « والآن لعلك تقتنع يا عمر بصدق عاطفتي نحو هذه البلاد ... اقسم لك يا عمر لو أن ألد أعدائي أتى مسلماً مؤمناً، لا نمحي من قلبي كل عداء له، أو نقمه عليه، فأنا أحب المرء لا أحبه إلا لله، وأكرهه لا أكرهه إلا لله، كما علمنا الرسول ... وقلبي يحدثني يا عمر أن مكة اليوم غيرها بالأمس، وأن قلوب غالبية أهلها يميلون للإسلام ... ولن يمر وقت طويل حتى يتعانق الرجال منا ومنهم، وتتجاوب الأماني والنداءات ... ويمضي الجميع تحت لواء واحد يدعون لله في شتى أنحاء الأرض ... »

قال عمر :

– « أعلم أن الرسول يأمل كثيراً في أن يثوب أهل مكة إلى الحق، ويرجعوا عن غيهم وجحودهم ... »

•

ظل الحويرث يجري هنا وهناك حتى وجدها، وصفق قلبه طرباً حينما رآها تجلس وحدها في خيمة منعزلة، وإلى جوارها كؤوساً فارغة، وهتف :

– « حفيت قدماي في البحث عنك يا لؤلؤة ... »

هتفت في غيظ :

– « لا أريد أن أراك ... »

– « لم ؟ ؟ ماذا جرى ؟ ؟ »

– « أنت ممن يقولون ما لا يفعلون ... جلست أنتظر النبأ الذي يهز الدنيا، فاذا بمن يأتيني ليقول لي أن الحويرث جالس يستمتع برؤية المسلمين وهم يطوفون ويلبون ويكبرون ... »

قال وقد أطرق ساهماً :

– « الحياة سقيمة تافهة، اتفه ما فيها ألا تستطيع أن تفعل ما تريد ... »

– « الرجال لا يعجزون عن إثبات وجودهم، وركوب المخاطر ... »

– « لكن زعماء مكة قيدوني بمنطقهم العاجز، وتهديدهم الرخيص ... »

وصمت برهة ثم قال :

— « دعي هذا الامر ... ودعينا ننسى الأحزان ... »

— « نفذت الخمر وأكاد أجن ... »

— « تعالى نلهو، فاللهو افعل من الخمر ... »

— « المسلمون يعبدون الله، ويتردد صدى هتافاتهم في كل الأنحاء، ونحن نعربد في استهتار ... »

— « نحن أحرار يا لؤلؤة ... »

— « ليس بي رغبة سوى أن أجلس وحدي ... »

— « لكني لن أنصرف ... »

— « سيان أن تبقى أو أن تنصرف ... وجودك كعدمة ... »

امسك بزندها العاري وجذبها نحوه قائلا :

— « كفي عن هذا الهراء ... »

— « أنت لم تأت حباً فيّ، وانما لتغرق أساك بين أحضاني، بحثاً عن السلوى والعزاء، انني أداة ترفيه ... »

— « يا مجنونة، ما أحببت أحداً في الوجود مثلك، أنت توأم روحي، وحياة قلبي... ألا تعرفين ؟ ؟

— « حسناً يا حويرث ... ماذا تريد ؟ ؟ »

قال :

— « الليل أوشك أن يغمر التلال، ويغطي معالم الأفق ... لنخرج ونمضي بعيداً ... بعيداً ... حتى نجد مكاناً آمناً، ننسى فيه الحزن والهوان ... »

تمتمت :

— « ألا تخاف الوحوش ؟ ؟ »

— « كل شيء في سبيلك يهون يا لؤلؤة ... حتى الحياة ... »

قالت وهي تهم بالوقوف :

— « لكن زوجتك تنتظر ... »

— « دعي هذا السخف ... كانت تتسلى بمشهد اليوم كالأطفال البلهاء ... الجميع لا يفكرون في شيء سوى الحادث الكبير ... »

— « استطاع محمد يا حويرث ان يفرض على الناس أمره ... مسلمهم وكافرهم ... ونحن نبحث عن مكان أمين نمارس فيها طقوس المجون ... »

— « هذا أروع ما في الوجود ... »

قالت : « صدقت ... لكن التناقض الذي نعيشه يلوي أعناقنا وأفكارنا ... »

ثم خطت خارج الخيمة قائلة :

— « هيا بنا ... »

الفصل الثلاثون

استمع العباس عم الرسول إلى كلمات زوجه في اهتمام بالغ، وسدد إليها نظرات مستفسرة، إنه لا يكاد يصدق ما يسمع، وقد كان الأمر غريباً ومفاجئاً بالنسبة إليه، لقد قالت له زوجه أن أختها « ميمونة » قد مال قلبها إلى الإسلام، وأنها لن تتوانى عن إعلان إسلامها مهما كلفها الأمر، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ان « ميمونة » تأمل أن تتزوج من الرسول، وكان العباس عم الرسول لم يزل على دين آبائه وأجداده، لكنه في الوقت نفسه لم يبخل بأي جهد أو عون على ابن اخيه محمد، بل أصابه غم شديد حينما تواترت إليه الأنباء غير الصحيحة عن هزيمته في خيبر، وعندما علم بانتصاره، لبس أفخر ثيابه وأخذ يطوف بالكعبة، ثم واجه قريشاً يومها وأعلمهم بالنبأ الصحيح وأخذ يتحدث عن انتصارات ابن اخيه في فخر واعتزاز وسعادة ... وعلى الرغم من مفاجأته ودهشته لأنباء « ميمونة » اخت زوجته، إلا أن الأمر لم يضايقه أو يحزنه، بل طرب له، وانتشى لسماعه

وتمتم العباس لزوجه :

— « كيف تم تحولها هكذا فجأة يا أم الفضل ؟ ؟ »

قالت الزوجة :

— « وهل في محمد شيء يعاب يا رجل ؟ ؟ إنه صادق أمين، يا عطوف، كلماته تنفذ إلى القلوب والعقول كالسحر ... »

وابتلعت ريقها قائلة :

— « ومن منا لم يتأثر لمشهد المسلمين وهم يلبون ويطوفون ويجيئون بين الاركان، وبين الصفا والمروة ؟ ؟ إن قريشاً كلها تتحدث الان عن محمد ودعوته حديثاً عجيباً ... »

ألا ترى رجال ابن أخيك كيف يتحركون، وكيف يتعبدون، وكيف يتعاملون ؟ ؟ إنهم نماذج فريدة للأخوة والكمال والخلق والتفاني في تأدية الواجب ... الناس جميعاً يتحدثون عن ذلك ... »

شرد العباس بضع لحظات وأخذ يتمتم :

— « كلماته ترد الروح، وتغرس في النفوس الكرامة والأمل، وتملأ القلب باليقين، وتقود العقل إلى آفاق فساح ...

هذا حق لا شك فيه ... إن ابن اخي — لو تم له النصر — سيجلب الفخر لقريش أبد الدهر ... »

قالت أم الفضل وقد طأطأت رأسها في حيرة :

— « يلح عليّ سؤال أتمنى لو سألتك إياه »

قال وهو باق على شروده :

— « ما هو ؟ ؟ »

رفعت وجهها اليه مستجمعة شجاعتها :

— « تتكلم عن ابن اخيك بعاطفة القرابة ... لكن، لماذا لم تؤمن ؟ ؟ »

هز رأسه دون انفعال وقال :

— « أجل ... هذا هو السؤال ... ماذا أقول ؟ ؟ لم يأت الوقت المناسب بعد »

— « أعرف أنها خطوة حاسمة قد تثير قريشاً، وتهز أرجاء مكة، وأعرف أنك رجل مجامل، وترعى بعض التقاليد ذات الاعتبار الهام، لكن يا زوجي العزيز ... الحق فوق كل اعتبار ... »

أدار ظهره نحوها، وتمتم :

— « تنطقين بالصواب ... »

وصمت برهة ثم قال :

— « سبقتنا « ميمونة » إلى الفضل يا أم الفضل ... »

وطرقت ميمونة الباب، ودخلت خاشعة ... »

— « مرحباً بك يا ميمونة ... »

— « مرحباً بكما ... الحق أنني في عجلة من أمري، ولا بد أن يتم الأمر قبل أن يرحل محمد عن مكة ... فإن قبلني زوجة فهذا غاية المنى ... وان اعتذر، فيكفيني توفيقاً وسعادة أن يقبل إسلامي ... »

قال العباس ووجهه ينطلق بشراً :

— « سأفاتحه في الأمر الليلة، وابن اخي لم يرفض لي طلباً ... نعم الرجل هو ! !
ودارت بنظراتها من حولها، وكأنها في حلم جميل رائع ...

— « علم الله أن قلبي ليس به مكان لأحد سواه، وأنه ملأ روحي وحياتي ويقظتي
أصبح كل شيء، أبحث عن كلماته في مظانها، وأترنم بها وحدي كأجمل لحن في الوجود،
وأحفظها عن ظهر قلب، وألبث الساعات الطوال وأنا أتلوها، وكأنه أمامي يستمع اليّ ...
وفاجأهما في مجلسهما هذا خالد بن الوليد، وميمونة خالته وكذلك ام الفضل زوج العباس،
والقى عليهم التحية، ثم دار بنظراته بينهم ، واتجه بالحديث نحو ميمونة :

— « ان خلف تعبيرات وجهك كلمات كثيرة ... »

ثم نظر إلى العباس، وإلى أم الفضل، وقال :

— « انكم تناقشون أمراً هاماً على ما يبدو ... »

واستطرد في غير قليل من الأسى :

— « واستطيع ان أرجح أنكم تتدارسون أمر محمد ... »

قال العباس :

— « كيف عرفت ؟ ؟ »

ضحك في ألم :

— « وهل للناس في مكة حديث سواه ؟ ؟ إن زيارته قد أبهجت قلوب الأصدقاء،
وأسخطت نفوس الأعداء، وما أراه سيترك مكة إلا ويترك وراءه تطاحنا وصراعاً لا مثيل
لهما ... »

هتفت ميمونة في حماسة :

— « وماذا في محمد يؤخذ عليه ؟ ؟ »

ابتسم خالد قائلا :

— « أنا لم أنل منه أو أهاجمه يا خالة ... »

— « ان موقفك يوم « أحد » لا ينسى ... »

تنهد في حسرة :

— « يا له من يوم ! ! ومع ذلك فقد كنت أؤدي واجبي كمحارب ولا شيء غير
ذلك يا خالة ... »

— « أو تظن أن ذلك مدعاة للفخر ... »

قال وهو يحاول استثارتها ليعرف ما وراءها :

— « النصر فخر لا شك ... »

— « أن تقتل، أو تطمس الكلمات المضيئة، فإن هذا عار أي عار ... »

قال في هدوء لم تتوقعه :

— « حنانيك يا خالة ... لم أكن أفكر في ذلك ... »

صاحت في حده :

— « ومتى تفكر؟ ؟ »

قال جاداً :

— « الآن ؟ ؟ »

خاف العباس أن يدب بينهما خلاف، فقال لكي يضع الأمور في نصابها :

— « لا تتضايق يا خالد، فإن خالتك ميمونة قد قررت اعتناق الإسلام، وهذا أمر يخصها وحدها، وما أرى حدتها إلا نابعة من هذا الموقف ... هذا هو التفسير الكامل للأمر ... »

صمت خالد برهة ثم قال :

— « أحدث هذا حقاً يا خالة ؟ ؟ »

قالت متنمرة، وعلى وجهها أمارات التحدي والإصرار :

— « هو ذلك، ولن تستطيع قوة في الوجود أن تطفىء النور الذي أضاء محمد سراجه في قلبي ... وما قيمة الحياة في ظل الجهل والكفر والخوف ؟ ؟ الرجال في مكة — يا للعار — أحفظهم الغرور والتقاعس، فلم يستطيعوا أن يخطوا الخطوة الحاسمة ...

ولوحت يدها في مزيد من الحماسة :

— « قيمنا تافهة ... عداوتنا لمحمد لا معنى لها ... مواقفنا المتخاذلة تثير الدهشة والاشمئزاز ... الرجل يدعو إلى الإخاء والحب والعدل والمساواة ... ويدعو أولا وأخيراً إلى توحيد الله ... ماذا في ذلك ؟ ؟ »

قهقه العباس، واردف :

— « في ذلك الشيء الكثير يا ميمونة ... إن ابن أخي يجعل عاليها سافلها، ويقلب صورة الحياة ونظامها قلباً ... ان أمراً كهذا جد خطير ... »

— « ليكن يا أبا الفضل ... الأمر الجدير بالتفكير هو : هل محمد على حق ام لا؟؟ وهل دعوته لصالح الناس او لغير ذلك، وهل كلماته وحي من السماء او ابتداعات عقل وقّاد ذكي ؟؟ »

هتفت ام الفضل :

— « ان النور الذي تدفق في قلب ميمونة أعطى كلماتها معنى رائعاً، على الرغم من انها تصغرنا سناً ... تتكلم وكأنها أميرة مكة بأسْرها ... »

قال العباس معلقاً :

— « إن حبها الكبير لمحمد هو مصدر فصاحتها ولباقتها ... »

لوحت بيدها محتدة :

— « قولوا ما شئتم، فإن مكة على ضلال لا شك فيه، ومكة آذت محمداً وسخرت منه، وعذبت أتباعه، وسفكت دماءهم، وطاردت الفكر المضيء، وآيات الله ... ثم كان النصر على يد أهل يثرب ... إن تنكر مكة لمحمد صفحة سوداء في سجلها الطويل ... »

وصاح خالد بأعلى صوته :

— « ميمونة على حق ... »

وسادت فترة صمت قال العباس بعدها :

— « الليلة سأعرض على محمد إسلامها ... وزواجها منه ... »

قال خالد في استغراب :

— « وزواجها ؟؟ »

أطرقت ميمونة في خجل، بينما قال العباس :

— « وأتعشم ان يتم ذلك »

علق خالد قائلا :

— « بالتأكيد ... إن محمداً لن يرد يداً تمتد اليه بالحب »

توردت وجنتا ميمونة، وقالت في خشوع :

— « أتعتقد ذلك يا خالد ؟ ؟ »

— « أنا أعرفه ... »

— « ولم لا تتبعه ؟ ؟ »

— « فليجب العباس ... »

قالت ميمونة :

— « لا أحد يجيب عن الآخر في أمر كهذا ... »

هز خالد رأسه وقال في شرود :

— « عندما تحب المرأة، تريد أن تقهر الناس جميعاً على الامتثال لعواطفها ... وعندما تكره ... آه ... ماذا أقول ؟ ؟ تحاول أن تشعل الحريق الهائل الذي يكتسح عدوها ... أقول هذا الكلام وأمامي امرأتان ... هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ... وميمونة خالتي ... آه ... ذهبت إلى أبي سفيان كانت هند ثائرة تسب وتلعن، وتنال من الرجال، وترميهم بالخور والضعف، لأنهم لم يتصدوا لمحمد ورجاله ويبيدوهم عن آخرهم ... وهائنذا آتي إلى خالتي ميمونة، فأراها تأخذ على الرجال في مكة تقاعسهم عن اتباع الحق والإيمان بمحمد ... هذه هي الصورة الجديدة التي تبدو في مكة، نحن بين شقي رحي تطحن رؤوسنا ... وتورثنا الأرق والعذاب... هل كان محمد يطمع في أكثر من ذلك من وراء زيارته لبيت الله ؟ ؟ »

وجفف خالد عرقه، ثم اتجه صوب العباس قائلا :

— « ان ابن أخيك سينتصر ... »

هتفت ميمونة :

— « باذن الله ... ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، صدق الله العظيم ... »

ثم قالت لخالد :

— « ما دمت تعرف ان النصر له، فلماذا لا تؤمن برسالته ؟ ؟ »

— « أنا لن أؤمن به لانه سينتصر... »

— « ولماذا تؤمن ... »

— « لانه على حق ... »

وقهقه خالد قهقهة عالية أودعها كل توتره وقلقه، وعبر بها عن الصراع العنيف الذي يحتدم في قلبه ...

الفصل الواحد والثلاثون

المكيون يتناقلون عن المسلمين حكايات كالأساطير، ويروون هذه الحكايات في حماسة، ويكررونها دون ملل، بعضهم يسخر منها، ويرى فيها افتعالا ومبالغة سخيفة، والغالبية العظمى تنظر إليها في اعجاب، وترددها في شغف، ويتمتمون: «ما سمعنا بهذا من قبل» فالمتحدثون يزعمون أن بلالا يناقش عمر وعثمان وأبا بكر مناقشة الند للند، وقد يأتي برأي يخالف رأيهم جميعاً، وربما يؤيده الرسول في رأيه، فينصاع الجميع له دون ضيق أو نفور، وهو العبد الحبشي صاحب التاريخ الطويل في الإذلال والقهر، وصاحب البشرة السوداء الفاحمة.

والمتحدثون يؤكدون أن المسلمين يعيشون عيشة تكافلية، الغني يعطي الفقير، ويشاركه الطعام والشراب، والأشراف والعبيد يتناوبون الخدمة سواء على قدم المساواة، والجميع يقفون في صف واحد، أثناء العبادة، وبلال يتقدم غيره من السادة أشراف مكة الأقدمين وأشراف المدينة، لكأنما استطاع محمد أن يمزجهم ويخلق منهم عجينة واحدة ثم سواهم بشراً من جديد، ينصاعون لأمره، ويتقبلون كلماته في خشوع، ويتسابقون إلى الموت في فخر ... لقد اندثرت القيم القديمة الزائفة فيما بينهم، وهم يعيشون الآن في ظل مبادىء جديدة يهرعون إليها مشغوفين سعداء ... ليس عجيباً ألا يتساقوا خمراً، أو يدب بينهم شحناء، أو يعلو صوت قوي على صوت ضعيف، وقد ظن عكرمة بن أبي جهل أن الاشراف الذين سبقوا إلى الإسلام وكذلك سادة الأنصار ظن عكرمة أن هؤلاء قد خسروا كثيراً من فخارهم وكبريائهم حينما قبلوا هذه الأوضاع الجديدة الغريبة، وخفضوا جناحهم للعبيد والفقراء الذين لاذوا بالرسول، لكن خالد بن الوليد، قال ساخراً :

ـ «لقد جانبت الصواب يا عكرمة، لم يخسر احد شيئاً ... الجميع كسبوا ايما كسب، ان من تسميهم الاشراف قد تذوقوا حلاوة الإيمان والتضحية، فداسوا أطماعهم القديمة، وتطلعاتهم العتيقة التي نشأوا عليها ... إن مساواتهم مع المساكين والضعفاء يعتبرونها قربى إلى الله، وطريق إلى الخلاص والجنة ... إنهم ينظرون إلى الأمر بغير العين التي تنظر بها أنت الآن ... هل نسيت انه ليس هناك من يرغمهم على ذلك السلوك، وانهم اختاروا الطريق بمحض إرادتهم ؟ ؟ »

ودق عكرمة كفاً بكف وقال :

— « وهذا ما يحيرني ... كيف حدث ذلك ؟ ؟ انهم يتنازلون عن حقوقهم كشرفاء... تلك الحقوق المقدسة الموروثة ... من يصدق ؟ ؟ »

وقطع عليهم الحويرث حوارهم حينما قدم في اضطراب وقال :

— « انظروا ... ابن السوداء يعتلي أعلى قمة في البيت العتيق ... ويؤذن للصلاة ... وكأنه يسخر من أصنامنا المتراصة ... »

وبان الضيق في وجه عكرمة وهو يرى بلال يؤذن للصلاة بصوته الندي والآلاف من أهل مكة يستمعون اليه في إعجاب ممزوج بالعطف والشغف، بينما ابتسم خالد دون أن يبدو عليه اي أثر للانفعال، وتمتم :

— « وماذا في ذلك ؟ ؟ »

صاح الحويرث :

— « انها كارثة كبرى ! ! ان هذا المشهد المثير سترتسم صورته في أذهان أهل مكة أبد الدهر، إنه عار أي عار ! ! ! ان محمداً يتعمد السخرية من آلهتنا، ويتخذ كل طريق لاستثارتنا ... لو كان عندنا ذرة من كرامة لوثبنا وثبة رجل واحد ... وامسكنا بابن السوداء، وقذفنا به إلى الحضيض محطم الجمجمة، مكسور العنق ... »

— « لم تكن هذه الإهانة بمتوقعة ... »

رد خالد :

— « لهم ثلاثة أيام يفعلون خلالها ما شاؤا من شعائر وعبادات ... »

هدر الحويرث :

— « سندفع الثمن غالياً جزاء تهاوننا واستسلامنا ... »

وانصرف الحويرث عنهما غاضباً، وصورة بلال وهو يؤذن من فوق الكعبة لا تفارق خياله، يحاول أن يصرفها عن ذهنه فلا يستطيع، إن الاقدار تفرض التحدي على فكره وخياله، وأحياناً تتحول صورة بلال المؤذن، في ذهن الحويرث إلى ابتسامة عريضة ساخرة، او قهقهة شامتة، فيرفع يده متوهماً أنه يصفعه، فاذا بيده تشق الهواء، وتتدلى هي الاخرى إلى جواره عاجزة، وأخذ يتمتم وهو يسير في طريقه المتعرج المليء بالحصى : أنا خصيمك يا محمد حتى الموت ... لو أمكنني أن أكفر بدعوتك قبل أن أراك، وقبل أن تدعو الناس إليها لفعلت ... الأمر ليس منطق أو إقناع ... إنني اعترف ... أنا أكرهك،

وأكره أن أخلع نفسي من جذورها وماضيها وتقاليدها ... لا معنى لأي شيء جديد ما دمت سعيداً بما أنا فيه، ولو كان كل الناس منغمسين في الشقاء والعذاب ... هذا هو منطق السادة والأقوياء، هل أتيت يا محمد لترفع الحقراء والأدنياء إلى مرتبة الشرف ؟؟ لن يكون شرفاً اذا تساوى الناس وأصبحوا جميعاً متماثلين في الشرف... لا بد ان يظل الشرف حكراً على فئة معينة من الناس وإلا فقد صفته، أو تضاءلت قيمته ... البلهاء يتسابقون إليك ويصفون مبادئك بصفات العدالة والرحمة والمساواة والأخوة ... أما أنا فاعتبرها استرضاء لعواطف العامة والفقراء، وخداعاً لمن مالأك من الشرفاء ... إنك يا محمد تغير من القيم والمبادئ لتنشئ لنفسك ملكاً يرضخ لإرادتك، وأنا لست أقل منك شأناً وشأواً ... »

وصدرت من خلفه قهقهة عالية ، فانتفض ، والتفت إلى مصدر الصوت، وهتف :

— « أنت ؟ ؟ »

— « فيما تفكر يا مسكين ؟ ؟ »

— « أوه يا لؤلؤة ! ! أتسخرين مني ؟ ؟ »

— « ما بك ؟ ؟ انك تبدو شاحب الوجه، هائم النظرات ... يبدو أن السهر الطويل وكثرة الشراب قد نالا منك ... »

طأطأ رأسه في حزن وقال :

— « ابن السوداء يعتلي الكعبة ويؤذن للصلاة ... »

— « وماذا في ذلك ؟ ؟ »

— « إنه العار الأبدي ... »

— « أما أنا فقد طربت لذلك ... لا تنس ان ابن السوداء هذا من جنسي ... « هو حبشي ... وأنا حبشية ... »

قال في ارتباك :

— « أعرف ... فرق كبير بينكما ... هو مسلم حقير، وأنت... »

ضحكت في استهتار، واردفت :

— « وانا مشركة حقيرة ... »

ثم لوحت بيدها ضاحكة :

— « وهناك فرق كبير بين حقارته وحقارتي ... حقارتي من نوع مقبول ... حلو المذاق ... أتنكر ذلك ؟ ؟ »

التفت إليها في دهشة وقال :

— « يبدو أنك قد عاودت الشراب في الصباح ... »

— « بالتأكيد ... هذه أيام عاصفة مثيرة ... لا علاج لها غير الإكثار من الخمر ... »

ثم تمتمت في شرود :

— « الحقيقة أن هذه حسنة من حسنات محمد ... »

— « ماذا ؟ ؟ »

— « أن يجعل من بلال منادياً للصلاة، وأن يلبي دعوته المسلمون كبارهم وصغارهم ... أليس هذا أمراً في غاية الغرابة ؟ ؟ لم أر في بلال أية سمة من سمات العبودية ... »

أنصت اليها في دهشة، وأخذ يجيل نظراته هنا وهناك حائراً، ثم تمتم :

— « يحابي العبيد والفقراء والضعفاء لأنهم يشكلون غالبية الناس، ولأنهم يحملون السيوف ، ويحققون له النصر ، ويمتطيهم إلى غاياته ... »

قالت لولوة ساخرة :

— « لا تفكر في الأمر بهذا العمق، ومع ذلك فإن كلماتك فيها كثير من الكذب والخداع ... إنني صريحة ولا أخاف أحداً، وأحب ان أسمي الأشياء باسمها ... أنت كاذب ... حسنا ... كيف ؟ ؟ إن أتباع محمد من الفقراء والاغنياء، ومن الضعفاء والأقوياء على حد سواء ... ثم أن محمداً لم يتخذ الفقراء والضعفاء وحدهم ليغدق عليهم ماله، ويشتريهم بهباته ... تلك حقيقة ... أتباعه يغرمون أكثر مما يغنمون ... »

او تنكر ذلك يا حويرث؟ ؟ ومحمد ليس لديه تلال من ذهب، أو أودية من الإبل والشاء ليشتري الناس ... إنهم يهرعون إليه بأنفسهم ... ويغرمون ... أليس ما أقوله هو الحقيقة ؟ ؟ »

طأطأ رأسه، وتفصد جبينه عرقاً، ثم رفع اليها وجهاً مكدوداً متوتراً وقال :

— « هل أنت معي أم مع محمد ؟ ؟ »

قالت دون تردد :

— « بالطبع معك ! ! »

— « فلم هذا الكلام اذن ؟ ؟ »

— « انه لن يغير من موقفي ولا موقفك ... »

— « لكنه يعني ضلالنا وخطأنا، وقد يوحي بأن محمداً على حق ... »

ابتسمت قائلة :

— « محمد له عالمه، ولنا عالمنا ... »

— « ولكني أرفض أن يدافع عنه أحد ... »

— « ليس ذلك دفاعاً، ولكنه تفسير للأمور ... »

— « تلعبين بالألفاظ يا لؤلؤة ... فالتفسير يخدمه، ويبرر من تصرفاته ... »

هزت لؤلؤة كتفيها دون اكتراث وقالت :

— « هل بلغتك آخر الانباء ؟ ؟ »

لوى رأسه نحوها، وهتف :

— « أهناك جديد ؟ ؟ »

— « سيتزوج محمد من ميمونة خالة خالد بن الوليد، وشقيقة ام الفضل ... »

— « أنت تكذبين ... »

— « ليس لي مصلحة في ذلك ... »

— « هذه بداية المصائب، تجرأت امرأة وأعلنت إسلامها، وتقدمت شجاعة للتزوج من محمد، فماذا سيفعل الرجال بعد ذلك ؟ ؟ » هذا ما كان يردده الحويرث بينه وبين نفسه، وتمادى في أفكاره : « ولسوف تندم قريش أيما ندم، وستعلم بعد فوات الأوان، أن فرصتها الوحيدة الباقية، قد ذهبت إلى غير رجعة ... أسلمت ميمونة دون أن يردها خالد، ودون أن يردعها العباس، قريش تقابل ذلك التصرف المشين بالصمت والجبن... إذن لمحمد الحق في أن يسخر منهم، ويهرول بين الأركان، ويتردد صدى تكبيراته وتلبياته هو ورجاله في جنبات البيت العتيق، وفي أرجاء مكة ... يا للهوان ! ! »

— « حويرث ... »

— « نعم ... »

— « لا أريد أن أراك الليلة ... فلتذهب إلى زوجك ... »

قال وقد دق قلبه في عنف :

— « لماذا يا لؤلؤة ؟ ؟ »

— « كنت بالأمس خائر القوى، بارد الجسم ... إن كثرة التفكير قد نالت من روعتك وبهائك ... لم تعد الحويرث الذي أعرفه ... وأنا لا أطيق الضعف والهموم والفكر المستمر ... »

أمسك بيدها في حزن عميق، وقال والدموع توشك أن تطفر من عينيه :

— « ما هذا الذي تقولين ؟؟ إنك تنالين من كبريائي وشرفي ... أقسم أن هذه الكلمات أقسى على نفسي من الأنباء التي سمعتها حينما أهدر محمد دمي ... انك تقسين عليّ يا لؤلؤة ... ولست انا على الصورة التي تتخيلينها ... »

قالت وهي تميل برأسها في دلال :

— « لا أريد أنصافَ رجال ... إنني أهوى القمم ... الملذات الناقصة تورثني عذاباً رهيباً ... اسمعني جيداً ... الرجال في حضرتي يجب أن يأتوا بكل كيانهم ... انا أعرف من تجربتي ... ما أضاع الرجال سوى الشك والفكر العميق ... »

قال وقد تدلت شفتاه في بلاهة :

— « لكننا جميعاً نفكر ... »

— « يجب أن يكون ذلك على مستوى سطحي لا يؤثر في أمزجتنا وقوانا ... »

زحف على ركبتيه، وقال في ذلة :

— « لك ذلك يا لؤلؤة ... »

ضحكت في خلاعة، وبدا في عينيها الواسعتين وهج خبيث، وهتفت :

— « اعترف لك ... انك تحبني بجنون ... »

— « أو تشكين في ذلك ؟؟ أنت حياتي وديني ونعيم وجودي ... »

شردت بنظراتها في حزن وقالت :

— « هذه أيام شك رهيب ... »

ثم عادت وربتت على رأسه وظهره في ود وقالت :

- « والمستقبل يشوبه قلق وخوف ... »

ثم التفتت إليه ثانية وقالت في شراسة :

- « لكن علام نخاف ؟ ؟ »

- « لا شيء ... »

- « اذن فلنرقص ونغني ونشرب ... ونستمتع حتى النهاية ... »

وضحكت في نزق :

وضحك ... ثم تمتم وهو يقبض على كفها بشدة :

- « حتى النهاية ... »

الفصل الثاني والثلاثون

رحب الرسول باقتراح عمه العباس، وأبدى رغبة أكيدة في إتمام الزواج من ميمونة ذات الستة والعشرين ربيعاً، وسعدت ميمونة بهذه الموافقة سعادة كبرى، وأخذت تحلم باللحظة الخالدة التي تقترن فيها بنبي الله، الذي أحبه قلبها بكل ما فيه من عاطفة جياشة، وبدا لها كأنما قد حازت الدنيا بكل ما فيها، ونالت أعظم ما تحلم به امرأة في حياتها، وتجسمت لها قيمها ومبادئها الجديدة في الإنسان الكبير الذي اختاره قلبها وقلبها يثب إلى هناك... إلى حيث يجلس محمد وسط صحابته، يحدثهم حديث القلب والروح، وينير لهم آفاق الدنيا والآخرة، ويرسم لهم السلوك النظيف، وحمل الأمانة، واذاعة كلمة الحق بين الناس ... لشد ما بدت لها الساعات القليلة التي ستلتقي بعدها بمحمد، بدت طويلة شاقة على أعصابها ! !

وسعد أيضاً بذلك عمر بن الخطاب، وابتسم حينما تذكر أن ابنته حفصة زوج الرسول سوف تثور، وقد يشتد بها الغضب، لكن محمداً كان أحب إليه من ابنته ومن الدنيا بأسرها ... وفكر عمر ... لشد ما تغيرت مكة، ولشد ما تغير أهلوها ! ! الكثير من العداوة والأحقاد في قلوب المكيين قد ذابت أو توارى الجزء الأكبر منها، وليس بين مكة والإيمان بمحمد ورسالته إلا خطوات قليلة، لكنها خطوات حاسمة تحتاج إلى شجاعة فائقة، وهكذا دائماً تكون الأمور الحاسمة، وبدا لعمر واضحاً أن عامة الناس في مكة في جانب وقادتها في جانب آخر، وأن الصراع الخفي بين الطرفين يكاد يبين عن نفسه، بل إن هذا التقسيم التقريبي لا يظهر الحقيقة كلها، لأن قلة من الكبار تميل هي الأخرى لمحمد، وقلة من العامة لم يزل يلفح الجهل والحقد عقولها، فتتنكر للدعوة الإسلامية عن عمى ... ذلك هو الوضع القائم في مكة، أليست هناك طريقة إذن للاستفادة من هذا الوضع، لعل مكة تفتح قلبها وأبوابها لدعوة الرسول بعد ان طاردته بضع سنين ؟ ؟ »

وجاء الجواب على لسان الرسول حينما اخبر اصحابه بأنه ينوي ان يقترح على أهل مكة أن يتركوه يتزوج من « ميمونة » بعد انقضاء الأيام الثلاثة، فان وافقوا، فليطعمهم الطعام، ولتقم الأفراح البسيطة التي تشمل الفرقاء، وفي هذا الجو المتفتح الهادىء، يمكن ان يبدأ الرسول حوارا أخوياً رقيقاً معهم، فقد يستجيبون لدعوته، وينتهي ذلك الصراع المرير الطويل، وتنطوي صفحة الحقد الأسود التي يحرسها الطواغيت من كفار مكة ... وكان

عمر يأمل أن تنجح الخطة، فيحقق الإسلام من وراءها نصراً هيناً كبيراً لدعوة الله، وأبدى حماساً بالغاً لذلك ... وحانت اللحظة الحاسمة حينما جاء رجلان من مكة هما سهيل ابن عمرو، وحويطب بن عبد العزي في نهاية الأيام الثلاثة.

واستقبلهما الرسول احسن استقبال، وأبدى سعادة كبرى للقائهما، ومحبة واضحة تكاد تذهب كل ما مضى من صراع وخلاف، قال احد الرجلين :

— « يا محمد ... انه انقضى أجلك فاخرج عنا ... »

ابتسم الرسول في رقة، وشعت نظراته بالحب والأمل والتسامح وقال :

— « ما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه. » قال الحويطب، وردد سهيل بعده كلامه :

— « لا حاجة بنا إلى طعامك فاخرج عنا ... »

ومال الحويطب على سهيل قائلا في صوت خفيض لا يكاد يسمع :

— « يريد محمد أن يلتقي باهل مكة، ويجرب سحره فيهم من جديد، كي يستولي على قلوبهم، ويجذبهم إلى دعوته، لو فعلنا ذلك ووافقنا على اقتراحه لرمانا قومنا بالسذاجة، وضيق الأفق، وسوء التصرف، ولكنّا السبب فيما يجد من أحداث خطيرة ... »

واتجه عمر بن الخطاب نحوهما، وقال :

— « لقد عقدنا صلحاً موقوتاً، ماذا لو انتهت الحروب، وتآخى الناس، وتركت لهم حرية الاختيار ؟ ؟ لسوف يسعد العرب، ويسود السلام والحب جميع الناس ... »

قال الحويطب، وكان حاد الطبع، صلب الارادة :

— « تريدون أن تبتلعوا المدينة لقمة سائغة، وتهدموا كل مجد بنيناه، ليس بيننا وبينكم إلا ما نص عليه صلح الحديبية ... الناس على رؤوس الجبال يقفون، وينتظرون أن يعودوا إلى ديارهم . ويستأنفوا حياتهم الطبيعية ... »

وعاد سهيل هو الآخر يكرر :

— « لا حاجة بنا إلى طعامكم فاخرجوا عنا ... »

واردف الحويطب :

— « وتستطيع أن تأخذ ميمونة وتعرس بها في مكان آخر خارج مكة، فلم يعد باستطاعتنا ان نتحمل ونصبر أكثر من ذلك »

وتمم عمر :

— « علم الله أن رسوله لا يترك فرصة للسلام والتصالح إلا وانتهزها، ألا إن مطلب الرسول هين يسير، لا يختلف عليه عاقلان وهو أن تترك للناس حرية الاختيار ... وهذا حقهم ... »

قال الحويطب في حزم :

— « ليس بيننا وبينكم إلا الاتفاقية المعقودة ... فدعونا وشأننا، ولا تتحدثوا عن حقوق أهل مكة في الاختيار والحرية، فنحن نعرف ما يريدون، وهم يعرفون حقوقهم جيداً ... »

وابتلع ريقه، وجفف عرقه، ثم استطرد :

— « الناس ينتظرون على أحر من الجمر، هل تنصرفون أم لا ؟ ؟ من حقنا أن نأمركم بالرحيل على الفور ... »

ولم يكن أمام المسلمين، بعد أن صمت مكة — بل كبراؤها الحاقدون — أذنيها عن دعوة الخير والسلام والمصالحة، لم يكن أمام المسلمين سوى الرحيل، وتحرك ركبهم خارج البلد الحرام، عائدين إلى المدينة تتبعهم ميمونة في هودجها ...

وعلى جبل حراء وأبي قبيس والتلال المحيطة بمكة، كان المكيون في حركة دائبة، وترقب لاهث، ماذا يجري ؟ ؟ هل يرحل محمد أم يبقى ؟ ؟ وإذا لم يرحل فماذا سيحدث؟ أسئلة أثارت القلق والذعر في النفوس، أتنشق مكة إلى جبهتين أحداهما توالي محمداً والأخرى تحاربه، وفي داخل النفوس صراعات عدة مختلفة ... فهناك رجال قرروا ان يخوضوا المعركة ضد عتاة مكة، ويفاجئوهم، بإعلان إسلامهم عندما تحين اللحظة الحاسمة، وآخرون قرروا أن ينسحبوا إلى دورهم لا يودون أن يشتركوا في صراع لا يتبينون نتيجته سلفاً، وآخرون ربطوا مصيرهم وحياتهم بقهر المسلمين ودعوتهم من أمثال عكرمة وأبي سفيان وهند والحويرث ... »

وعاد الهدوء النسبي بعد أن جاءتهم الأنباء بموافقة محمد على الرحيل وقد انتهى لأجل المتفق عليه ...

تنهد ابو سفيان في ارتياح، وحمد الآلهة، وتمم :

— « لو لم يرحل محمد لانطلقت فتنة مدمرة لا يدري أحد مداها ... »

ردت عليه زوجه هند في ضيق :

— « ليته أصر على البقاء ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لو حدث ذلك لجردتم السيوف، ولقضيتم على الألفين من رجاله، واخذتموه أسيراً ... لكن الأقدار لا تريد أن تجركم إلى المعركة المناسبة أبداً ... لعل ذلك انتقام من الآلهة لتقاعسكم ووهنكم ... »

ولم يعلق ابو سفيان، فقد كان أبعد نظراً، وأدرى بالموقف على حقيقته ...

أما خالد بن الوليد فقد كان شارداً لا يكاد يهتم بما يحدث، ان أمر محمد ودعوته تشغلانه، لا يفكر في معركة، ولا يهتم بصلح، إنه يقرر مستقبله من خلال فكره .. ينظر إلى بعيد ... ماذا يفعل؟ إنه يبحث عن موقف حاسم نهائي ... هل يعادي محمداً حتى النهاية، أم يؤمن بدعوته، ويسارع اليها ؟ ؟

وعكرمة بن أبي جهل برغم إدراكه لما يجري في مكة، والتحولات الخطيرة التي تحدث فيها، والأفكار المتصارعة في جنباتها، إلا أنه لا يفكر الا في شيء واحد، أن يحمل سيفه وينزل إلى أية معركة ليقتل من المسلمين انتقاماً لأبيه وذويه ...

وهرول الحويرث إلى خيمته، واعد متاعه، واركب زوجه وأهله على إبله، وهتف بهم :

— « إلى البيت من جديد ! ! »

هتفت زوجه .

— « وأنت ؟ ؟ »

— « لا شأن لك بي ... سألحق بك بعد وقت قصير ... »

وأدار نحوها ظهره وانصرف ...

وظل يحث الخطى حتى بلغ مهجع لؤلؤة ...

كانت مضطجعة على فراشها، مغمضة العينين، يقظة الحواس، وأدرك ذلك على التو، فهتف :

— « عمت صباحاً يا لؤلؤة ... »

قالت في فتور :

— « اجلس ... »

— « ألن تعودي إلى مكة ؟ ؟ »

— « فيم العجلة يا حويرث ؟ ؟ »

— « لقد رحل المسلمون ... »

تنهدت في كسل وقالت :

— « كنت متبرمة بهذا المكان، أشعر بضيق بالغ، لكني أصبحت آلف هذا المكان، إن ما به من انطلاق وهواء وبراح وسعة ينعشني إلى أبعد حد، ويريح قلبي ... إن القبو الذي أعيش فيه في مكة قد أنساني القمر والنجوم والسماء الصافية ... »

ثم ضحكت واستطردت قائلة :

— « الآن علمت لماذا كان محمد يلجأ إلى هذا الهدوء الصافي، حتى نزل عليه الوحي في غار حراء ... »

شاركها الحويرث الضحك وقال ساخراً :

— « وأنت، ماذا تنتظرين هنا ؟ ؟ هل تتوقعين وَحْياً أنت الأخرى ؟ ؟ »

قالت في استهتار :

— « إن الملائكة على ما يبدو تأنف رائحة الخمر والقذارة ... الهدوء وحده ليس كل شيء ... »

وفكر الحويرث لحظة، ثم دار بنظراته في شتى الاتجاهات، وهتف :

— « انه لحلم رائع حقاً ... »

قالت في تشوق : « ماذا ؟ ؟ »

قال : أن نبقى هنا وحدنا في أحضان الهدوء والحب والنشوة العارمة ... نشرب الخمر ونلتهم الخراف، وننام ونلهو، ونجري هنا وهناك بلا رقيب أو حسيب ... أليس هذا حلماً رائعاً ... »

قهقهت وقالت :

— « انت جامح الخيال، خرب المخ »

— « لماذا ؟ ؟ »

— « قد تفاجأ بزوجتك وصياحها المزعج اذا طال بك المقام هنا، ثم اننا نريد الخدم والمال الكثير والحراس ... »

قال في حماس :

— « لا تحملي هماً لزوجتي ، اما ما بقي فانا كفيل بتدبيره ... »

— « نسيت أمراً هاماً ... »

— « ما هو ؟؟ »

— « قد يأتي محمد في أي وقت بجيوشه ليحطم عشنا الجميل ... »

— « لن يستطيع ... »

— « وما دليلك ؟؟ »

— « أنا على يقين من ذلك ... »

قالت وهي تتململ في اضطجاعتها :

— « على العموم ... أنا أرفض حلمك الـ ... الرائع ... »

— « ما السبب ؟؟ »

— « اريد عدداً كبيراً من الرجال ... لو عشت معك وحدك فلسوف أملك وأمقتك ... وقد اقتلك ... »

هتف في دهشة :

— « تقتلينني ؟؟ »

— « أجل ... لأتخلص من قيود الملل ... »

قال ضائقاً :

— « انه مزاح ثقيل ... »

— « أليس أشرف لك أن أقتلك بدلا من أن يقطع جنود محمد رقبتك ... »

احتقنت عيناه وصرخ :

— « لن يستطيعوا ... »

واخذ قلبه يدق بشدة ، وأنفاسه تتصاعد متلاحقة ، وقال بحزم :

— « هل سترحلين ؟؟ »

قالت : « أجل ... أسرع وعد العدة للرحيل ... »

الفصل الثالث والثلاثون

كلمات وداع ... لا ينطقها اللسان، ولكنها ترف في القلوب، وتهتف بها العيون، وتلمسها في حركات الناس ولفتاتهم، وهم يشهدون محمداً ورجاله يرحلون عن مكة بعد الأيام الثلاث المشهودة ...

وتمتم خالد بن الوليد بينه وبين نفسه : « إلى اللقاء ... أيها الرجال الصادقون ... » وكادت تطفر من عينيه دمعة، لولا أن خالداً صعب الدموع ، متمالك لاعصابه وانفعالاته.. وتطلع خالد حواليه، نفسه تطفح بكراهية شديدة لكل ما حوله، انه يشعر الآن بنفور شديد للناس والأرض والمباني في مكة، ويسمع حوار القوم وصخبهم، فتموج نفسه بضيق بالغ، واشمئزاز لا حد له، أصبح يشعر بغربة قاتلة ... أجل ... غربة ... والضجيج من حوله، والأصدقاء يلقون عليه التحية ويبتسمون له، وأبو سفيان يبش له، ويحدثه عما تطورت إليه الأمور، وعكرمة يجادله في أمر الايام القادمة، والمعارك المقبلة التي سيشب اوارها حتماً بين مكة والمسلمين، وخالد يرد ردوداً مقتضبة، وكلمات فارغة لا معنى لها، إنه زاهد في كل شيء، يكره أن يتكلم أو يأكل أو يشرب أو ينام ... لا شيء يقدر على إزالة شعور الغربة الراسخ في روحه وعقله، لكأنه كان في حلم صاخب حافل بشتى الأعاجيب، فاذا به يصحو فجأة، فتصدمه الحقيقة المرة، ويرى نفسه غريباً وحيداً، يقاسي من العزلة والضيق ... حسناً ... فليذهب إلى بيته، هناك زوجه وأهله ... بينهم ينسى ما اجتاحه من انفعالات غريبة مزعجة ... ودخل البيت ذاهلا شارد النظرات، يشوب وجهه شحوب خفيف ... يا للمأساة ! ! البيت أيضاً يبدو امام عينيه كسجن ضيق مقيت، لا يتنسم فيه ريح الألفة، او يتروى قلبه برحيق المؤانسة ...

وهتفت زوجه :

— « ما بك ؟ ؟ »

تمتم في شرود : « لقد رحلوا ... »

قالت دون أن تفهم شيئاً :

— « من ؟ ؟ أنا لا أفهم شيئاً ... »

وأدرك على التو أنه تسرع ، وأن الكلمات خرجت من فيه عن غير قصد، فعاد يقول :

— « أشعر بكرب شديد ... »

لمست جبهته، فخيل إليها أنها تلتهب فهتفت :

— « أنت محموم ... أنت تهذي ... »

ابتسم، وقد تندى جبينه بالعرق :

— « لا شيء من ذلك ... إنني بخير ... عندما نشغل الفكر بأمور خطرة، فلا يكاد الإنسان يرى سوى ما يفكر فيه، كل شيء يتجسم في خياله، ثم تبدو الأشباح والخيالات كأنها حقائق تسبح من حوله، وتتصارع أمامه ... »

وتنهد في شيء من الارتياح، ولم يلحظ زوجه وهي تفغر فاها دهشة، ثم صرخ :

— « أيمكن أن يكون كل ذلك زائفاً ؟ ؟ »

قالت في صبر نافذ : « ماذا ؟ ؟ »

قال : « الماضي الطويل ... المعارك الداوية ... الخطب الرنانة ... آرائي الحكيمة التي كان يصفق لها المعجبون، ويحنون رؤوسهم أمامهم في إعجاب ... من يتصور ذلك ؟ ؟

وقبل أن تتكلم زوجه، استطرد يقول وكأنه يخاطب نفسه، وهي تلحظه في استغراب :

— « حسنا ... يجب أن أعترف ... الصمت جريمة ... أجل ... والكذب جريمة ... والكلام الزائف جريمة ... أجل ... الخوف من النطق بكلمة الحق أبشع الجرائم ... حسنا .. هكذا يكون الأمر ... والنصر الساذج القائم على القوة العارية، والمدعم بالمكر والأكاذيب.. خداع وجريمة ... ليس هناك أي عذر يمنع رجلا من أن يعترف بالحق ويعبر عن ذاته . أليس كذلك ؟ ؟ وقف محمد وحده ... ونادى بأعلى صوته ... أيها الناس إني رسول الله اليكم ... انصرفوا عنه وكذبوه ... وسخروا منه وطاردوه ... لكنه قالها ... أية سعادة كبرى شعر بها بعد أن ألقى عن قلبه وكاهله تلك الكلمات ؟ ؟ »

دقت زوجه على صدرها في خوف وقالت :

— « ماذا تقول يا خالد ؟ ؟ ألم أقل أنك تهذي ؟ ؟ كيف يكون الصمت جريمة والكلام جريمة ؟ ؟ »

أخذ يلهث، ثم جلس في أقرب مكان وتمتم :

— « هل أنت هنا ؟ ؟ »

— « ويحي ... ويحي... لقد ألم بك داء خبيث ... ألا تراني ؟ ؟ »

رفع عينيه إلى السماء في خشوع ورقة وضراعة وهتف :

— « لا أرى سواه ... »

— « من ؟ ؟ »

— « ذلك الذي ملأ وجودي ... وأنار بصري وبصيرتي ... واستطاعت كلماته أن تهزني من الأعماق، وأنا الذي تتزلزل الجبال ولا أتزلزل ... »

أنا خالد بن الوليد ... ها ... ها ... »

اقتربت منه، ولمست كتفه الأيمن، وجلست إلى جواره ترتجف :

— « يا حياة القلب والروح... هدىء من روعك ... وحدثني عما بك ... »

قال وجسده ينتفض :

— « لقد رحلوا ... وتركوني وحدي ... تسمرت قدماي في الأرض القذرة ... وتيبست أعضائي... حاولت أن أتحرك فلم أستطع ... حاولت أن أصرخ بكلمة وداع فتساقطت حروف الكلمات مبعثرة ساخرة بلا معنى ... الوهم اللعين سيطر على قواي فشلني ... لأني... لاني خائف ... أتصدقين ؟ ؟ »

هتفت :

— « أنت تخاف ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « كيف وأنت فارس العرب، وبطلهم المغوار ... »

قهقه في سخرية ثم عاد يقول :

— « بالأمس كانت تلك الكلمات تسكرني، أما اليوم فهي كلمات سخيفة تثير ثائرتي، وتتوج هامتي بالعار ... أية فروسية وبطولة تقصدين ؟ ؟ لقد تيقنت أن البطولة الحقيقية لم يكللني شرفها بعد ... الماضي مجرد حماقات ونزوات يا امرأة ... »

همست وهي لا تكاد تصدق أذنيها :

— « لقد شهد لك بالفضل الأعداء والأصدقاء ... وأبو سفيان أثنى عليك يوم « أحد » ثناء تردد ذكره في الآفاق ... »

انتفض ... وشحب وجهه ... وتشنجت يداه، وقال وقد اكفهر وجهه :

ـ « لا تذكري ذلك مرة أخرى ... هذه الكلمات الجوفاء الضخمة لم يعد لها أدنى تأثير علي ... »

ثم أمسك بمعصمها في عنف وقال :

ـ « ماذا لو استطاع الأغبياء أن ينالوا محمداً بأذى بالغ ... ماذا لو قتلوه يا امرأة ... سيقول الناس ... والتاريخ ... وملائكة الله ... في عنق خالد دم نبي ؟

تنهدت ثم قالت :

ـ « دم نبي ؟ ؟ »

ـ « نعم ... »

ـ « أتومن بنبوته ؟ ؟ »

ـ « نعم ... نعم ... نعم ... »

ثم انتفض واقفاً وقال :

ـ « لا يصح أن أعلنها هنا في ذلك البيت الصغير ... نعم ... نعم ... نعم ... لسوف أذهب إلي شوارع مكة ومسامرها ونواديها وأعلنها بملء فمي، عندئذ تستطيعين أن تتحدثي عن زوجك البطل، قاهر الخوف والجهل والزيف والحماقات ... »

هزت رأسها وهو يفر خارج البيت : « الآن فهمت كل شيء ... والآن عرفت من الذين رحلوا ... وأنا الآن متأكدة من أن قريشاً عن بكرة أبيها سوف تخرج لتشهد الحدث الكبير هذا اليوم . »

●

ومضى خالد في الطريق مرفوع الهامة، ورأى جمعاً من الناس، ورأى صديقه الحميم عكرمة بن أبي جهل، وصاح عكرمة : « مرحباً بك يا خالد »، لكن خالد لم يلتفت اليه ثم توسط الجمع، وصاح بأعلى نبرات صوته :

ـ « لقد استبان لكل ذي عقل، أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فحق على كل ذي لب أن يتبعه ... »

ـ لكأنما انقضت على الرؤوس صاعقة مباغتة، فأخرست الألسنة، وجحظت العيون،

وتسمر الناس تحت وقع المفاجأة جامدين، لكن قهقهة انطلقت وسط الصمت المثير، وتقدم عكرمة نحوه :

— « على كل ذي عقل أن يتبعه ؟ ؟ »

قال خالد وقد تصلبت ملامح وجهه :

— « أجل ... »

قال عكرمة في سخرية :

— « لقد صبأت يا خالد، وتنكرت لدين الآباء ... »

— « لم أصبأ ولكني أسلمت ... »

— « والله ان كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت ... »

— « لم ؟ ؟ »

قال عكرمة وهو يصر على أسنانه :

— « لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح ...

وقتل عمك وابن عمك ببدر ...

فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله ؟ ؟ »

وجفف خالد عرقه، وهدأت نفسه قليلا، واستعاد رباطة جأشه، وقال :

— « هذا أمر الجاهلية وحميتها ... لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق ... »

وساد هرج ومرج، وانطلق حملة الأنباء هنا وهناك يذيعون النبأ الخطير، بعضهم هرول إلى أبي سفيان بن حرب، وآخرون طرقوا الباب الخلفي، لبيت هند زوجة أبي سفيان وتسلل آخرون إلى رجالات مكة وأشرافها، وغيرهم وقفوا يرقبون الأحداث وتتابعها، هل تسل السيوف من أغمادها، وتندلع فتنةُ لا يعلم إلا الله مداها ؟ ؟

وتمتم عكرمة بينه وبين نفسه : « لو انقضضنا على محمد وصحبه وهم يطوفون بالبيت العتيق، لاستطعنا أن نخمد تلك الفتن، ولاستطاعت الحرب بوهجها وعنفها، ان تسحق كل فكر يحوم حول دعوة محمد والاقتراب منه ... لكن حماقة الكبار أضاعت الفرصة ... فليجنوا جزاء تقاعسهم وقصور عقولهم ... »

واقترب منه « الحويرث » وهو يكاد يجن لهول ما يسمع :

– « لكنه قتل عمك وابن عمك ... ووضع شرف أبيك حين جرح ... »

نظر خالد اليه في احتقار وقال :

– « أعلم ... »

– « أين الشرف والإباء والعزة ؟ ؟ »

ابتسم خالد في سخرية :

– « مثلك لا يعرف شيئاً عن هذه الفضائل ... »

ثم أمسك خالد بكتف الحويرث وهزه في عنف وقال :

– « ان أروع فضيلة ان تعترف بالحق، وأن تعلنه على الملأ ولو كلفك حياتك وكل ما تملك ... »

تراجع الحويرث في شيء من الذعر، وتمتم :

– « إن محمداً ليس الوحيد بين الورى – الذي يعرف الحق وصفاته ... »

– « اذهب بعيداً وإلا بصقت في وجهك ... »

وساد الصمت مرة أخرى حينما نادى مناد :

– « ان أبا سفيان قد أرسلني في طلبك ... »

وازداد الناس شغفاً يتتبع الأحداث، إن رجلين كبيرين عاشا معاً، وحاربا معاً، قد دب الشقاق بينهما، وكل منهما يستطيع أن يتحدى، لكم يحلو للواقفين أن يرقبوا معركة التحدي وخاصة بين علمين من أعلام الحوادث الجسام التي تهز العرب ...

وادرك الجميع عند لقاء الرجلين أن الحادث قد أثار ثائرة أبي سفيان لأبعد مدى، حتى أنه لم يجادل خالد في شيء من الأناة أو المنطق السليم، بل صاح وزجر، وهدد وتوعد

– « أحق ما بلغني عنك يا خالد ؟ ؟ »

– « أجل ... »

– « واللات والعزى لو أعلم أن الذي تقول حق لبدأت بك قبل محمد ... »

قال خالد :

– « والله إنه لحق على رغم من رغم ... »

دَوِيّ في رأس أبي سفيان، وَهَمّ قاتل يمتزج بحقد هائل، وماضٍ رائع من زمالة الحرب والفكر، وحاضر أسود يوحي بالقطيعة والفشل وشماتة الأعداء، ومستقبل غامض تتشابك فيه الرؤى والأحداث تشابكاً لا يبين عن شيء، واندفع ابو سفيان نحو خالد يريد أن يهوي على رأسه ووجهه بقبضته المتشنجة، لكن عكرمة بن أبي جهل يسرع بالوقوف بينهما، ويمنع أبا سفيان من الاندفاع المحفوف بالخطر، وقال عكرمة في حزن عميق :

— « مهلا يا أبا سفيان فوالله لقد خفت للذي خفت أن أقول مثلما قال خالد، وأكون على دينه ... أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وقريش كلها تبايعت عليه ... والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم ... »

وصاح أبو سفيان كفارس مهزوم مجرد من السلاح، وقد تدلت ذراعاه إلى جواره :

— « اذهبوا عني ... لا أريد ان أرى أحداً منكم ... »

وخرج خالد ... يتبعه الجمع المراقب للاحداث ...

وبقي ابو سفيان مع عكرمة ... قال أبو سفيان وقد أطرق برأسه في حزن :

— « أيمكن أن يحدث ذلك ؟ ؟ »

— « تلك هي الحقيقة يا أبا سفيان .. أنت الذي أدركتها من قبلنا ... ألا تذكر يوم أن حاولنا اقناعك بالهجوم على محمد وأصحابه وهم يسعون بين الأركان ؟ ؟ كنت يا أبا سفيان تدرك حقيقة ما يعتمل في مكة من افكار وصراعات ... لهذا عجبت حين رأيتك تحاول الفتك بخالد ؟ ؟ »

قال أبو سفيان بصوت خفيض يفيض بالألم :

— « خسارتنا في خالد فادحة ... »

— « أجل ... لكن ثق يا أبا سفيان أنني معك حتى النهاية ... ورجال آخرون قد قرروا أن يصارعوا محمداً حتى يقهروه أو يموتوا ... ولن يضير المعركة أن يتخلف عنها رجل كخالد ... »

قال أبو سفيان :

— « ليت الأمر كذلك ... إنه سيتخلف عنا لينضم إلى أعدائنا ... وخالد أنت تعرف من يكون ... والكارثة أن إسلام خالد قد يكون بداية لموجة من الاسلام... لسوف يتبعه كثيرون يا عكرمة ... كل هذه الاعتبارات كانت في ذهني وأنا أهم بالفتك بخالد ...

لم أتخل عن هدوئي وحكمتي ... لكني على الفور أدركت أبعاد الكارثة التي ستحيق بمكة ومستقبلها حينما علمت باسلامه ... »

●

وسرى نبأ اسلام خالد في يثرب سريانا سريعاً بعد أن أرسل أفراساً لرسول الله هدية تقدير وإيمان ... وأخذ الناس يتحدثون في المدينة كل مساء عن الوافدين من مكة إلى رسول الله، يبايعونه على الإسلام ويشهدون أنه لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ويضعون بين يديه حياتهم وأموالهم ... »

الفصل الرابع والثلاثون

على الرغم من أن عبد الله بن أبي كان ذكياً، صعب المراس، حديد الإرادة، إلا أن كبرياءه الشاذة، وحقده البالغ على محمد، دفعاه دفعاً لأن يتجاهل هزائمه، فلا يعترف بها، أو يبررها، ويجعل منها مجرد كبوة تافهة، يتبعها نصر أكيد له ولأفكاره، واندحار لا شك فيه لمحمد ومن معه من المسلمين ...

ولهذا وقف حائراً مشدوهاً عندما علم بنبأ إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن ابي طلحة حارس الكعبة وغيرهم، إن إسلام هؤلاء الكبار ومن لحق بهم يعتبر كارثة كبرى حاقت بقريش، وفي نفس الوقت يعتبر قفزة كبرى للأمام بالنسبة للإسلام والمسلمين، لسوف يتبع هؤلاء بكل تأكيد خلق كثير من أهل مكة، ولسوف تسمع القبائل بذلك، فتعيد التفكير في أمر محمد ودعوته، وستغزو هذه الدعوة الحواضر والبوادي، أي شيء أكبر من ذلك يكون مدعاة لأسى عبد الله بن أبي وتمكن الأحزان من قلبه العليل ؟ ؟

وشيء آخر يثير عبد الله بن أبي ويؤلمه أشد الألم، لقد كانت له اتصالات خفية مريبة مع قريش واليهود، وكثيراً ما عقد بينه وبينهم اتفاقات سرية، وقد يفشي خالد وأمثاله هاتيك الأسرار الخطيرة، فيسوء موقف عبد الله أمام محمد واتباعه، لا شك أنهم يعرفون نفاقه، لكنه يتظاهر أمامهم البراءة، وحسن التصرف، ويعلن دائماً أنه مسلم صادق الإسلام، وأن معارضته في كثير من الأحيان لا تخرج عن كونها غيرة على مصالح الدين، وحرصاً على مستقبل الدعوة الخالدة، لكن خالد وغيره من أولئك الرجال حديثي الإسلام يملكون الدليل المقنع، والوقائع الثابتة إلى تدين عبد الله، وتعرضه للعار الأبدي ... بل الموت ... »

ودخلت زوجه وقالت :

— « أرجو أن تكون آلام القلب قد زايلتك يا عبد الله ... »

ابتسم في وهن وقال :

— « لا تقلقي من ناحية قلبي ، فأنا على يقين من أنني طويل العمر... ثم أنني لا أرهب الموت ... »

نظرت إلى وجهه الشاحب، وعلامات الاجهاد والتغضنات المرتسمة عليه، وتمتمت:

— « الأعمار بيد الله، ومهما قلت فإنني قلقة عليك، ومصدر قلقي أنك تتجاهل علتك، وتكثر من التفكير والحركة، وتستعذب الأرق، وفقدان الشهية ... »

هتف وعيناه الغائرتان تحملقان في دهشة وضيق :

— « تتحدثين بأسلوب من ترى زوجها يحتضر ... »

ثم رفع هامته، ومط عنقه الذي ازداد نحولا، وازدادت أوردته بروزاً، ولوح بيديه النحيفتين وهتف :

— « أنا بخير يا امرأة، ولولا ضيقي وتبرمي بما يحدث في الخارج، لما بقيت بالبيت لحظة واحدة ... »

قالت دونما اقتناع :

— « انه لشيء عظيم أن تشعر بالصحة والقوة والأمل ... »

وسادت فترة صمت تمتم بعدها :

— « ألم يأت ولدي عبد الله بعد ؟ ؟ »

قالت والاهتمام على ملامحها :

— « ما أظنه يأتي الليلة »

— « لمه ؟ ؟ »

— « المدينة كلها هرعت ترحب بخالد بن الوليد وابن العاص وابن أبي طلحة ...

إنه حدث كبير يا رجل ... قريش تغلي من الغضب، والمدينة كأنها في عرس عظيم ...

قال في سخرية :

— « لم كل هذا ؟ ؟ »

— « أمرك عجيب ... »

هز رأسه وهتف :

— « إن مكة لم ولن ينقصها الرجال الأشداء، والعقول الكبيرة ... ثلاثة اسلموا، ماذا في ذلك ؟ ؟ إنه حدث تافة لا يستحق كل هذه الضجة ... »

نظرت اليه في استغراب :

— « دائماً تفسر الأمور بطريقة غريبة ... »

— « لأني أتعمق الأمور ، ولا أكتفي بالنظرة العجلى السطحية ... »

— « أنت تعلم أن خالداً قائد فرسان قريش، و ... »

قاطعها قائلا :

— « هناك غيره ألف فارس وفارس، ولن تغقم مكة عن انجاب كثيرين مثله ... ثم ... »

وصمت برهة، فقالت في لهفة :

— « ثم ماذا ؟ ؟ »

— « انني أشك في الأمر من أوله إلى آخره ... »

— « كيف ؟ ؟ »

قالتها وقد ألم بها حزن طارىء، وألقت بجسدها إلى جواره، فرد :

— « أخاف أن يكون إسلامهم خديعة كبرى ... »

— « خديعة كبرى ؟ ؟ »

— « أجل ... أيتها الساذجة، أنت لا تعرفين خالد، ولا يمكن أن تفسري تصرفات أبي سفيان ... إن الصراع بين مكة والمدينة صراع غريب، استعملت فيه كل أنواع الاسلحة، ألا يمكن أن يكون خالد ... وقد اصيب في أهله على يد المسلمين من قبل — قد جاء يعلن إسلامه ويخفي حقده، لعله يجد فرصة موأتية فيضرب عنق محمد ؟ ؟ »

فكرت فيما يقوله زوجها ، فانتابها الرعب، وهتفت :

— « يا للمصيبة ! ! إن صح ذلك فسيكون كارثة كبرى لا شك ... »

ثم أمسكت بكم زوجها وهتفت مرة أخرى :

— « يا للمصيبة ! ! ولماذا لا نخبر محمداً بذلك ؟ ؟ »

ابتسم عبد الله وبدا الارتياح على وجهه، إن زوجه توشك أن تصدقه، وهي قلما تثق في كلماته أو تصدقها، وأطربه هذا التحول، ففكر أن يزيد من ثقتها بكلامه ، واقتناعها بوجهة نظره فقال :

— « لا يصح التعجل في امر كهذا، لا بد من بينة، فكيف نلقي بالاتهام في وجه رجل جاء مسلماً، وفي وسط هذا الحماس الصاخب ؟ ؟ لا بد من المراقبة والدراسة ... »

شردت بضع لحظات وقالت :

— « وجهة نظرك معقولة، لكن ألا يمكن أن تهمس بها في أذن محمد ؟ ؟

تنهد وقال :

— « ليته يثق بي ويصدقني »

— « إن الرسول لا يغلق فكره أو قلبه دون أحد من المسلمين ... »

— « إن خلاف الرأي في بعض الأمور قد أفسد ما بيننا .. واصحاب المطامع قد زادوا النار اشتعالا ... وقد تركت أمري لله ... »

وأشرق وجه عبد الله الضامر الشاحب بفرحة مباغتة، لو انتشرت أفكاره تلك فستفسد على الناس سرورهم، وستشجب الفرحة الغامرة التي تلوح في أندية المدينة ومساجدها، ومن ثم يقابلون كل من أسلم بغير قليل من الشك، وتسوء الظنون، وتنفصم عرى الثقة، وتضطرب الأمور، ويحجم الراغبون في الإسلام عن إسلامهم، ولا يتحمس أهل المدينة لمن أتاهم مسلماً ... »

— « الحق يا امرأة ان الحذر واجب، والشك صورة من صور الحذر ... »

— « هو ذاك يا عبد الله ... »

— « ولسوف اخرج يا امرأة للقاء خالد بن الوليد والترحيب به ... »

هتفت وهي لا تكاد تفهم ذلك التناقض :

— « أمرك يحيرني ... »

ابتسم في هدوء وقال :

— « لا تناقض في الأمر ... يجب أن أبش في وجهه، وأفسح له في بيتي وقلبي ألا يجوز أن يهمس في أذني بسره ؟ ؟ لا شك أن التشويه الظالم الذي ألصقه بي بعض الحمقى من المسلمين قد بلغ مسامع أهل مكة، وقد حانت الفرصة للاستفادة من هذا الوضع ... إنني احب محمد، لكنني المحب المبصر الذي يفتح عينيه جيداً، ويفكر باستمرار من أجل حماية الدعوة ...

وليتهم يفهمون ذلك ... »

قالت في سرور :

— « يا لك من رجل طيب ! ! »

— « الثواب عند الله يا امرأة ... »

لم تفكر في منعه من الخروج، ولم تثر في وجهه خوفاً على صحته المنهارة، وإنما أخذت بيديه، وقلبها يخفق، ودعت له بالتوفيق ورضى الله، وأكدت له أن رسول الله عندما يعلم هذه الحقائق ، فسيثني عليه ثناء عاطراً، وقد يعده بالجنة ... »

وقال لنفسه دون أن يسمعه أحد :

— « لو لم يكن هناك غير جنة محمد لآثرت العودة إلى الجحيم عن طيب خاطر ... »

ومضى في طريقه، الناس يَزْوَرّونَ عنه، والعيون ترمقه في احتقار وازدراء، وفرحة الناس في الشوارع لا يمكن أن يطفئها حاقداً أو مشكك، وموكب الحياة الجديدة الشريفة يتدفق في كل مكان، لا تستطيع قوة أن تقهر تدفقه، أو تحد من انطلاقه ...

واقترب عبد الله بن أبي من خالد بن الوليد في باحة المسجد :

— « حياك الله ... نزلت أهلا وحللت سهلا ... »

يا للكارثة ! ! ان خالد يهز رأسه هزات خفيفة، لكن في عينيه وعلى وجهه علامات يعرفها عبد الله جيداً ... لكأنما أصبح خالد واحداً من أهل المدينة، بل يبدو وكأنه يعيش بينهم من سنين طويلة، ونظراته تحمل نفس المعنى الذي رآه في عيون السائرين في الشارع ، والمحيطين بمحمد ... وتفرس عبد الله في وجه خالد باحثاً عن ثغرة ينفذ منها، لكنه صد عنه ...

— « المدينة كلها سعيدة بإسلامك يا خالد ... »

— « وأنا أكره النفاق ... »

لكأنما هوت صفعة على وجهه الذابل الشاحب، أو انبثقت بصقة إلى جبينه الضامر، ودارت به الأرض، وشعر بالاختناق، إن آلام القلب تعاوده، ليته ما خرج ، لشد ما يكره الجميع ... سواء في ذلك من قدم إلى المدينة، أو من يعيش فيها من سنين ... أنفاسه تتلاحق في صعوبة، وعيناه تجحظان ... والعرق يسيل ... لماذا يبقى في المسجد ؟ ؟ من الخير له أن يأوى إلى بيته ... إن الوحدة رائعة ... وفي وحدته يحلم بعالم من صنع

أفكاره السوداء... ذلك العالم الخيالي يرى عبد الله فيه مناوئيه وأعداءه يتساقطون تحت وقع سيوف وهمية ... ويرى دماءهم تسيل، ويرى ما بنوه ينقضّ فوق رؤوسهم... ويظل سادراً في أحلامه وخواطره السوداء حتّى يمتزج الحلم والوهم بالحقيقة، فتضطرب الصورة ولا يكاد يبين شيء، ويخيم ظلام من نوع غريب، وفي هذا الظلام تهدأ روحه، وتنجاب عنه بعض الهموم والهواجس ...

وعندما سألته زوجه عما حدث صرخ محتداً : « اللعنة على الجميع ... لا تحدثيني عن ذلك الأمر مرة أخرى »

الفصل الخامس والثلاثون

محفل الحاقدين ... ذلك الذي تجمع فيه عدد من الرجال قد أبرموا أمرهم، واستقرت عقائدهم نهائياً على رفض دعوة محمد، واستنكار اي تفاهم معه، والعمل بدأب واصرار على إتلاف « صلح الحديبية »، دون نظر إلى عواقب الأمور، هؤلاء الرجال لا يهمهم أمر الناس ، ولا سلام مكة، ولا تأمين طريق التجارة إلى الشام، لا يفكرون في نصر أو هزيمة وإنما همهم الأكبر أن يحملوا السلاح، ويضربوا ... ويقتلوا عدداً من المسلمين، ويعكروا صفو الهدنة بين مكة والمدينة، ومن هؤلاء الرجال عكرمة بن أبي جهل والحويرث ووحشي قاتل حمزة، ومعهم ايضاً هند زوجة أبي سفيان ... وآخرون غيرها وغيرهم ... وخاصة بنو بكر الذين انضموا إلى قريش عند توقيع صلح الحديبية ..!

ومحفل الحاقدين هذا لا يمل من التفكير، باحثاً عن منغصات لتعكير الصفو بين مكة والمدينة، وتحريض الناس على أبي سفيان وأفكاره، وفي نفس الوقت كانوا يرقبون تحركات المسلمين، ويتنسمون أخبارهم، لعلهم يجدون ثغرة ينفذون إليهم منها، أو يقعون على فرصة مناسبة، كي يحرضوا مؤيديهم على الهجوم ...

لشد ما انتابتهم الحيرة، واستولت عليهم الدهشة حينما علموا أن محمداً قد أرسل جيشاً لغزو الشام ! ! إذا كان محمد قادراً على غزو الشام وقبائل شمال الجزيرة، فمعنى ذلك أنه يملك قوة خارقة يمكنها التصدي للروم ... ومن يقدر على التصدي للرومان، فلن تعجزه مكة ...

وهرولوا إلى أبي سفيان، يسوق الرعب خطواتهم :

— « يا أبا حنظلة ... إننا لا نكاد نفهم معنى لاتجاه محمد صوب الشام، أيناجز الروم وجيوشهم تعد بمئات الألوف ؟ ؟ »

قالها عكرمة، والرجال من حوله صامتون يتلهفون على سماع فصل الخطاب ...

لكن الحويرث اندفع قائلا :

— « ان الغرور سوف يقضي على المسلمين، لقد أسكرتهم انتصارات صغيرة حققوها في مجال السلم والحرب، فظنوا أنهم قادرون على قهر « هرقل » ... »

هزت هند كتفيها وقالت ساخرة :

— « اذا كان صناديد قريش، وأبطال مكة، قد لاذوا بالصلح المحزن، وألقوا السلاح وجبنوا عن مواصلة المعركة، فلماذا يخاف محمد من شباب الروم ذوي الطراوة والخنوع؟ ؟

وتدخل وحشي قاتل حمزة قائلا :

— « واللات والعزى لئن انتصر محمد على الروم، فلن تستطيع قوة في الجزيرة العربية كائنة ما كانت أن تتصدى له ... »

وهتفت هند غاضبة :

— « لو كنتم رجال حرب ودراية، وحنكة، لأسرعتم بحشد جيش كبير وانقضضتم على « يثرب » الآن، إن رجلا يحارب الروم، ويصطدم في نفس الوقت مع حشود مكة، لا بد وأن تحيق به الهزيمة ... لكنكم للأسف لا تعرفون كيف تنتهزون الفرص، لقد قلت لكم مثل هذا الكلام حينما هاجم محمد خيبر لكنكم أضعتم الفرصة الذهبية التي ستندمون عليها طول العمر ... » وأخذ أبو سفيان يستمع إلى جدلهم الصاخب، وحيرتهم الظاهرة، وقلقهم البادي على وجوههم ونبراتهم، وأخذ يسدد اليهم نظرات صامتة، هل جاءوا ليستمعوا إليه أم ليرسموا له السياسة التي ينتهجها، ويوجهه الوجهة التي يريدون؟ ؟ وتنهد أبو سفيان ثم سعل، وساد صمت مفاجىء، واتجهت اليه الأنظار هل سينصفهم هذه المرة، ويلبي نداءهم ، وينهض إلى الحرب، ام يتعلل بالتعليلات الفارغة عن مصالح الناس، وشرف الحفاظ على العهد، والانتظار حتى تنجلي الامور ؟ ؟ لئن سار ابو سفيان على هذا المنوال، واعتصم بالخوف والحذر الذي هو الجبن بعينه، فربما يأتي يوم ويقول لهم، إن اعظم حل هو الاستسلام لمحمد، هو اتباع دعوته ... من يدري ؟ ؟ إن أبا سفيان ينحدر، ويفقد حماسه ؛ ويتخلى عن حقده المقدس كلما تقدمت به السن، وكلما حقق محمد مزيداً من الانتصارات ... »

واخيراً رفع ابو سفيان رأسه، وحدق بعينيه الواسعتين وقال :

— « استمعوا إليّ جيداً أيها الرجال ... لا تظنوا أنني أقل حقداً منكم على محمد، وثقوا أنني أتعجل اليوم الذي نستطيع فيه أن نحطم ملكه، وندمر بناء العقيدة الذي شاده، وليس لي فكر او سياسة تتجه غير هذه الوجه ... تلك حقيقة لا مراء فيها، ولا يصح ان تفسروا تريثي ورويتي بالجبن والتقاعس، ما قيمة معركة بلا نصر ؟ ؟ وما معنى أن نحشد جنودنا وندفعهم إلى هاوية سحيقة من الدمار والفناء ؟ ؟ إن هدفنا لا يصح أن يكون مجرد الحرب ... الحرب وحدها ليست غاية ... إنها وسيلة لشيء كبير ننشده جميعاً ... أعني

أن نقهر عدونا لنقضي على قيمه، وتبقى لنا مبادئنا وتقاليدنا وديننا ... أما أن نحارب ونحارب... ولا شيء غير ذلك فهو الغباء بعينه ... »

انتفضت هند قائلة :

— « هذا بداية الدعوة الى الخمول والاسترخاء ... عندما أراك تفلسف الأمور يا أبا سفيان أشعر أن ذلك مقدمات الاستسلام والنكوص، انني أعرفك جيداً ... »

لم يعلق أبو سفيان بكلمة، وانما استطرد في حديثه قائلا :

— « أيها الرجال ... كلنا يعرف من هو محمد، إن لم نكن قد استفدنا من عشرات الأحداث التي مرت، فلن نكون جديرين بحمل لواء العداء ضد دعوته ... لن تستطيعوا مهما قلتم أن تقنعوني بأن محمداً قد ساق جيشه إلى مهلكة في أرض الشام ... أيسعى إلى الموت بقدمية ؟ ؟ هذا مستحيل ... بل لقد تأكدت من أنه لم يرسل سوى ثلاثة آلاف رجل ... »

وهتف عكرمة في غيظ :

— « من بينهم خالد بن الوليد ... »

فلم يلتفت ابو سفيان اليه، ومضى في حديثه :

— « أنتم تعرفون أن أعرابياً من غسان قتل رسول محمد إلى عامل « هرقل » على « بصرى » ... وأن بعضاً من أصحاب محمد قد قتلوا في « ذات الطلح » شمال الجزيرة... محمد أرسل جيشه ليعاقب المعتدين ... ولكي يشعر قبائل الشمال وجنوب الشام بأنه قادر على تأديبهم وسحق أي تدبير ضده ... ألم يفكر يهود خيبر في الاستعانة بالرومان من قبل ؟ ؟ ... أتظنون أن محمداً يفكر في غزو الشام بثلاثة آلاف جندي ؟ ؟ ... إن أقل تفكير سيؤدي بنا إلى أن محمداً لم يزل يحتفظ في المدينة بجيش كبير، وأن مفاجأته والانقضاض عليه في ذلك الوقت عبث وتخريف ... »

انقضت هند على ثلاثة من الرجال الجالسين، وجذبتهم بعنف، ودفعتهم إلى الخارج، وهي تقول في ثورة عارمة :

— « أخرجوا... ماذا تنتظرون ... إن أبا سفيان لا يرجى منه خير... إن أردتم أن تردوا اعتباركم، وتحققوا نصراً عاجلا فابحثوا لكم عن رجل غيره ... اذهبوا أيها الجبناء، وافعلوا ما شئتم ولا تنتظروا موافقة من أحد ... اذهبوا إلى الناس في الشوارع وخذوا منهم الأمر، فهم عماد الجيش وعدته... وهم أبعد نظراً من ألف حكيم وفيلسوف ... »

وقهقه أبو سفيان، حتى كاد يستلقي على ظهره، فصمت الجميع وتطلعوا نحوه في دهشة، فانتهز فرصة الصمت وقال :

— « حسناً ... لتحتكموا إلى الناس في الشوارع ... احتكمي إليهم يا هند ... لسوف تصدمين ... غالبية الناس في الشوارع قلوبهم مع محمد وإن أظهروا أن سيوفهم عليه ... والناس في الشوارع لا يريدون الحرب ... لماذا تضطرينني يا هند إلى التصريح بما هو أسوأ ؟؟ اذا كانت رغبة القتال في مكة رغبة حقيقية جارفة فلن يستطيع أبو سفيان ولا ألف رجل مثله أن يمنعوا المحاربين من التقدم ... لكنكم تصمون آذانكم عن سماع الحقيقة المرة ... »

قالت هند وقد احتقنت عيناها من الغضب واوشكت على البكاء :

— « ان صح ما تقول، فأنت المسئول عن إماتة روح القتال في قلوب الرجال بترددك وتقاعسك، وحكمتك الخربة ... »

وعاد يقهقه من جديد، ثم قال :

— « القائد بغير الناس لا يساوي شيئاً ... لن يكون قائداً ... إنه تعبير عن آمالهم وآلامهم ، ويوم أن استجبت لرغبات القلة، وأغفلت الكثرة الساحقة تبدد كل شيء ... تحطمت وحدة مكة ... أصبح كل يفكر في واد غير أودية الآخرين ... المسئولية ليست على عاتقي وحدي ... كان محمد يقول ... وكنا نقول ... وكان محمد يحارب ... وكنا نحارب ... وكان محمد يدبر الأمور ... وكنا ندبرها ... لكن لكل جانب طريقته ... واجهنا محمد بحجته القوية، فواجهناه بالسيوف والعسف والتعذيب ... ماذا أقول ؟؟ كان الأمر أقوى مني ومنك ... يجب أن نعيد التفكير في كل شيء ... إن عدونا ليس سهل المأخذ ... وعدونا أصبح يرتكز على أرض صلبة ... لئن سرنا على نفس الأسلوب القديم فسنخسر ما تبقى لنا ... أيها الرجال ... هل تفهمون كلماتي ؟؟ »

هزت هند كتفيها في سخرية وقالت :

— « لم يفهموا سوى أنك رفعت محمداً إلى أوج السماء، وانحططت بهم إلى الحضيض، وبذرت في قلوبهم اليأس، ورسمت لهم مستقبلا يجلله السواد والخوف والعار ... »

وعاد أبو سفيان يقول :

— « يجب أن نفهم طبيعة الأرض التي نتحرك فوقها، لكني أؤكد أن الحرب آتية لا محالة، إن لم نبدأها نحن فسوف يبدؤها محمد ... نحن لم نخسر أرضاً حتى الآن، لم نزل أحرار في مكة ... الأرض ومن عليها لنا، ليس المهم أن نبدأ الحرب الآن، ولكن المهم أن

نعرف الوقت المناسب ... والوقت المناسب لا يحدده وضع عدونا وحده، وإنما يعتمد أساساً على مدينتنا وأهلها ... يجب أن نشرح للناس الأمر، ونغير من تراخيهم، ونقضي على انجذابهم نحو محمد، ونملأ نفوسهم بالأمل ... تلك هي القضية الأولى يا هند ... لقد قال عكرمة يوم أن أسلم خالد : أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وقريش كلها تبايعت عليه والله لقد خفت الا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم ... » ... لقد عبر عكرمة عن الحقيقة يا هند ... إن دوركم أيها الرجال ينصب على تغيير فكر الناس، وقطع دابر كل من يبدي إعجاباً أو ولاء لمحمد ... عندئذ نستطيع أن نبدأ المعركة ... وأن نضمن نتيجتها أما بغير ذلك، فلن أحمل لواء حرب، أو انهض لمعركة فاصلة ... وأنا مقتنع تمام الاقتناع بكل كلمة أقولها ... »

أطرقت هند صامتة ...

وانسل الرجال خارجين، تضطرم رؤوسهم بأفكار كثيرة متناقضة، يمضون تائهين لا يدرون ماذا يفعلون، لكأنما انسدلت على عيونهم غشاوة ، فلا يستطيعون أن يميزوا ما ينتصب أمامهم أو من حولهم ، يتخبطون كسكارى، وتزوغ نظراتهم كمجانين ...

وصرخ الحويرث :

— « الموت ولا هذا ... »

لكزه عكرمة مازحاً :

— « سيأتيك لا محالة ... »

— « أبو سفيان يتخبط يا عكرمة، ويناقض نفسه، أنا لا أعرف هل يدعونا إلى الإستسلام ام يحرضنا على الحرب ؟؟ هل يريد أن يقول أن محمداً على حق أم على باطل ؟؟ هل يثق في النصر أم يتوقع الهزيمة ؟ ؟ بئس القائد هو ! ! »

•

ومرت الأيام ثقيلة بطيئة الخطى، وقريش تتحسس الأخبار عن جيش محمد في الشام حيث يخوض معركة « موتة » في مواجهة مائة ألف جندي أو ضعف هذا العدد، وأخيراً عاد جيش محمد إلى المدينة، بعد أن استطاع خالد بن الوليد أن يحاور ويداور وينجو بالآلاف الثلاثة من بين براثن مائة او مائتي ألف جندي هي جيش الرومان ... لم ينتصر الرومان حربياً، ولم ينتصر المسلمون حربياً ...

لكن أبا سفيان علق قائلا :

— « إن عودة المسلمين سالمين لهو النصر بعينه ... إن قبائل الشمال سوف تفكر ألف مرة قبل أن تغدر مرة أخرى بالمسلمين، والرومان لن يجازفوا بقواتهم وشرفهم في عرض صحرائنا الملتهبة ... وهذا ما يريده محمد من غزوة « موتة » ...

وتمتم الحويرث بينه وبين نفسه : أين أنت يا لؤلؤة ؟؟ يا نبع الماء العذب البارد، ومطفئة ظمأ القلب المعذب الحران ؟ ؟ لسوف أذهب اليك على جناح السرعة ... »

الفصل السادس والثلاثون

تمطت في كسل، وفتحت عينيها على الضوء الباهت الذي يتسلل بصعوبة من الكوات الصغيرة المغطاة بستائر قاتمة بالية، وسألت لؤلؤة خادمتها في ضيق :

— « ما الذي أتى به الآن ؟ ؟ »

— « أنت تعرفين الحويرث، انه يأتي دائماً في أي وقت يشاء ... »

وفكرت لؤلؤة ، أتمتنع عن مقابلته ، وتركن للهدوء والنوم، وتستمرىء ما هي فيه من كسل، وعدم اكتراث؟؟ لكنها تشعر دائماً انها في حاجة ملحة إلى رجل أو رجال إلى جوارها، هي تكره الفراغ، وتحب الثرثرة، وتقدس العبث، بل إنها في بعض الأحيان تعتقد ان النوم وسيلة من وسائل تضييع الوقت، وابتزاز قسم من عمرها بدون حق، لكنه ضرورة، وسلطان قاهر لا تستطيع الافلات منه، وادركت أنها منذ الأمس تشعر بملل قاتل، فهتفت بخادمتها :

— « حسناً ... دعيه يدخل »

كل شيء تعرفه عنه، حياته، أفكاره، حديثه عن زوجه، وثورته على محمد، وقلقه البالغ على مستقبله المهدور، يبدأ عادة بحديث متوتر، وسخط على رجالات مكة، وحنق على أفكار المسلمين، وإبانة عن عجزه، ويأسه، أو محاولة لخديعة نفسه فيحلم بالنصر، ثم يقبل على كؤوس الخمر في نهم بالغ، يسرع اليها كما يفر الطفل إلى حضن امه عند الروع، أو كما يلهث الغريق نحو غصن جاف تتقاذفه الأمواج، ظناً منه أن في هذا الغصن نجاته، وما أن تمتلىء معدته بالشراب وتتجمع ابخرة السكر في رأسه حتى يستحيل إلى حيوان ... إن أسعد وأحلى لحظات عمره هي فترة الحيوانية تلك ... ليته لا يفيق منها ... ذلك هو الحويرث ...

عندما دخل شمل الغرفة بنظراته القلقة وهتف :

— « قولي ما شئت، وارميني بأية صفات سيئة ... قولي عني مجرد ، من اللياقة والخلق ... فأنا لا استطيع الابتعاد عنك مهما كان الأمر ... »

ابتسمت وهي لم تزل مضطجعة في فراشها :

— « لم أقل شيئاً من هذا ... »

— « ماذا أفعل وقد أحاطت بي الهموم من كل جانب ... »

— « هل جد جديد يا حويرث ؟ ؟ »

— « استطاع محمد ان يجابه الرومان وان يعود جيشه سالماً ... لا أقول أنه انتصر لكنه حاور وداور ... هذا محمد، لكن ابا سفيان ما زال يتخبط في مستنقع الخوف والتردد ... انه يسمى ذلك روية وحنكة ... »

قالت دون أن يزايلها مللها :

— « محمد يفكر دائماً في النصر، وانتم تتمرغون في أوحال الخوف من هزيمة لم تحدث لكم بعد ... »

قال وقد خفق قلبه :

— « نحن لا نخاف ... لكن القادة أغبياء ... »

قالت في اصرار :

— « انتم خائفون ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « لو كنتم شجعاناً حقاً لأثرتم معركة ذات شعبتين واحدة مع محمد والأخرى ضد قادتكم المترددين ... لكنكم لا تختلفون عن أبي سفيان في شيء ... »

وصمتت برهة ثم استطردت :

— « النصر عند محمد أكيد، قد وعده الله به، لا شك فيه، والهزيمة عندكم أمر واقع تدور من حوله أفكاركم وتصرفاتكم ... لماذا تحاولون الكذب على أنفسكم وعلى الناس ؟ ؟

نظر اليها بعيون دهشة وتمتم :

— « تنطقين بالحكمة يا لؤلؤة ... »

واستندت على ذراعها، وجلست في فراشها، وقالت :

— « أنا لا أفكر في شيء سوى المال والمتعة ... إنهما غاية كل حي حسبما أعتقد، وإن حاول البعض التستر وراء مبادىء براقة ... فاذا ما تحقق لي هذان المطلبان في أية ارض،

أو أية ظروف فسأشعر بالسعادة التي أشعر بها الآن ... وما ثورتي على محمد إلا خوفي من ضياعهما ... حسنا ... يجب أن تحددوا بالضبط ما تريدون كما حددت أنا هدفي، عندئذ تستطيعون أن تخطوا الخطوة الأولى الحاسمة نحو تحقيق آمالكم ... »

هتف في حماس :

— « هذا ما اؤمن به الآن اعمق الإيمان ... »

وابتلع ريقه قائلا :

— « ولسوف تنشب المعركة عن قريب ... »

قهقهت قائلة :

— « أحلام ... »

— « واللات والعزى لنشعلنها حرباً ضروساً لا هوادة فيها »

— « ما أكثر الكلام، وما أقل الاعمال ! ! »

تمتم :

— « لقد جف حلقي، واستبد الظمأ بروحي .... »

— « أعرف، ولدي خمر أروع من خمر اليهود في سالف الزمان »

— « أسرعي وإلا أصابتني لوثة من الجنون ... »

صفقت بيديها، وأمرت الخادم بإحضار بعض الطعام والشراب، ثم تنهدت قائلة :

— « ليس فيكم عدو واحد عاقل ... »

قال : « وما هو العدو العاقل يا لؤلؤة ؟ ؟ »

— « هو الذي يشمل الموقف كله بنظرة فاحصة كبيرة، ثم يتصرف عن روية، وتنبعث تصرفاته من مبدأ عظيم، وينظر إلى الأمام مركزاً على هدف اعظم ... »

قال في دهشة :

— « كلنا ذلك الرجل ... »

قالت مقهقهة :

— « كلكم مثلي ... أهدافكم محدودة ... حصونكم مهددة من الداخل والخارج... ترتكزون على انفعالاتكم الطارئة ... »

قال في حزن :

— « لوكنت أملك مصير هذا البلد لفعات المستحيل، ولأريتك كيف يكون النصر والعزم ... »

عادت تقهقه :

— « لوكنت القائد لاختصرت المعركة لاقصر وقت ممكن ... لصالح المسلمين بالتأكيد »

شحب وجهه، واغرورقت عيناه وقال :

— « ألا تثقين فيّ يا لوءلوءة ؟ ؟ »

— « أتريد الحق ؟ ؟ »

— « أجل ... »

— « أنا لا أثق في أحد ... »

— « لكني أثق فيك يا لوءلوءة ... »

— « هذا شأنك ... »

— « ان مصيبتي هي ألا أجد من يفهمني ... »

— « المصيبة انك واضح تمام الوضوح، وليس وراءك شيء ذو قيمة ... »

اهتاج قائلا :

— « أنت تسخرين مني ... »

— « بل احاول توضيحك امام نفسك ... »

— « هذا ظلم ... »

— « كلنا الحويرث ... فما الذي يحزنك ؟ ؟ »

وقهقه هو الآخر فجأة، فقالت :

— « لم تضحك يا حويرث ؟ ؟ »

— « لأني أراكم جميعاً حكماء وفلاسفة، ومع ذلك فلم أجد من يرسم طريق الخلاص من محمد وأفكاره الخطرة ... »

ابتسمت وقالت .

— « لقد حدثتك عن ذلك منذ لحظات، لكنك سريع النسيان ... » .

وكفت عن الحديث برهة، ثم عادت تقول :

— « قد يكون للحديث مذاق آخر، عندما تتجرع الخمر ... »

طعام وشراب، وأكواب متراصة، ونهم بالغ، وأحاديث مضطربة من هنا وهناك، حتى أصابهما السكر، فأخذ الحويرث يتكلم في نفس الوقت الذي تتكلم فيه لؤلؤة، وكل واحد يظن أن الآخر يستوعب الكلمات ويفهمها، والأدهى من ذلك ظنهما بأن الكلمات معقولة ومشبعة، وأن فيها فصل الخطاب، ثم يذوب هذا الضجيج في أتون العبث والمجون ... ولم يعلق في ذهن لؤلؤة سوى بضعة أسماء ... بنو بكر ... خزاعة ... محمد ... الفتنة ... الحرب ... الثأر ...

وبعد وقت لا يدري الحويرث أطال أم قصر قال :

— « متى نحن الآن يا لؤلؤة ؟ ؟ »

رفعت رأسها صوب الكوات الصغيرة وقالت :

— « لا أدري ... ليلنا ونهارنا شيء واحد ... وماذا يضيرنا ان تشرق الشمس او تغيب ؟ ؟ »

قال الحويرث :

— « يجب ان نعرف الليل من النهار ... إحساسنا بالزمن أمر لا مفر منه، وإلا فاجأتنا الاحداث، وضاع كل شيء ... »

— « انني أكره القيود يا حويرث ... أريد أن أنطلق غير عابئة بزمان أو مكان ... »

— « وأنا أنظر إلى الأيام في رعب ... انها كالأجراس الصاخبة التي تدق في سمعي كالمطارق الرهيبة، وكأنها تقول لي تنبه يا حويرث ... الايام تنقضي يا حويرث ... أنت تخطو إلى النهاية يا حويرث ... هذا حقيقة شعوري يا لؤلؤة ... »

قالت وهي تسوي خصلات شعرها المتناثرة :

— « اذن فقد أشرفت على الجنون يا حويرث ... »

انفجر الحويرث باكياً، ثم وضع رأسه في حجرها، واخذ يشهق، لشد ما تأثرت لمظهره هذا المحزن، وفكرت في أن تفعل شيئاً يضع حداً لهذا الانهيار المباغت فصرخت وهي تدفع رأسه في شيء من العنف المفتعل :

— « انني أكره الضعف في الرجال ... »

شعر بالخجل، وأخذ يجفف دموعه، ثم ابتسم ... واعتذر ... »

الفصل السابع والثلاثون

أصبح الصباح، وأفاق عكرمة من نومه مبكر على الرغم من أنه لم يأو إلى فراشه إلا قبيل الفجر لقد استقر رأي عكرمة بن أبي جهل على قرار نهائي لا رجعة فيه، فإما أن يرضخ ابو سفيان لأمره، وإما أن ينتزع زمام القيادة من يده، وعكرمة يعلم أن قهر أبي سفيان أمر عويص، ولا يعني بانتزاعه القيادة منه خلعه تماماً ... لا... إنه يعرف ما يريد، ستكون زعامة ابي سفيان زعامة اسمية، وسيكون عكرمة هو القائد بالفعل، ولم لا ؟ ؟ انه يمثل ثورة الشباب الساخط، ويحمل لواء العداء الذي لا يخمد ضد محمد ودعوته، أما قرار عكرمة النهائي فهو الصدام السريع مع محمد بأي ثمن، سواء رضى أبو سفيان أم لم يرض، وسواء أدى الصدام إلى كارثة مروعة او نصر عزيز، إن السكوت والاعتصام بالسلام الآن معناه الهزيمة لقريش، فليخض عكرمة الحرب، وعلى أسوأ الاحتمالات فلن يرجع بغير الاندحار، وهو عين ما تنتظره قريش بصستها واستمساكها بصلح الحديبية، وأدركت « أم حكيم » زوج عكرمة ما يعتمل في رأس زوجها، إنها ترى في عينيه الشرود، وتلمح على وجهه القلق، وتتوشح نبراته بحزن وألم ظاهرين ...

— « أراك يا عكرمة مهموماً اكثر من أي وقت مضى ... »

— « لقد قتلوا أبي، و ... »

قاطعته قائلة :

— « كان ذلك منذ زمن مضى ... »

— « إن مرور الأيام لا يزيدني إلا إصراراً في طلب الثأر من محمد وصحبه ... »

قالت مستنكرة :

— « ليس معنى ذلك أنك تنوي نقض صلح الحديبية ... »

— « العكس هو الصحيح ... »

— « وامصيبتي ! ! لسوف يلومكم العرب، وسيجدها محمد فرصة للنيل منكم، وبهذا ينفض من حولكم الأنصار، وتخوضون الحرب وحدكم والنتيجة لن تكون في صالحكم. »

قال في عناء :

— « لقد كدت أن استسلم لرأي أبي سفيان، لكني أدركت أن ذلك منتهى الحماقة والعار ... »

— « ما معنى ذلك ؟ ؟ »

— « معناه أننا نجلس جبناء في انتظار الهزيمة ... »

— « لكن محمداً لا يغدر بعهده »

— « لأن ذلك يكون دائماً في صالحه ... »

— « بل لأنه وفي أمين ... »

أربد وجهه وصاح :

— « المهادنة معناها مزيد من الأنصار يهرولون إلى محمد ... الناس يفرون إليه تباعاً ... وسيأتي يوم لا يبقى في مكة سوى فئة قايلة، لا يمكنها أن تشعل حرباً، أو تحقق غاية ... أي زوجتي ... لقد نظرت في الأمر جلياً، ودرست كل الاحتمالات ... ما دامت الهزيمة آتية، فلم لا نجعل محمداً يدفع الثمن غالياً ... ومن يدري ؟ ؟ قد تتحول الهزيمة إلى نصر بالنسبة لنا ... »

وابتلع ريقه ومضى في حديثه قائلا :

— « لا بد أن نغامر يا عزيزتي ... »

قالت في ارتباك :

— « غامر اليهود، فضاعوا ... وغامرت قبائل عدة، وتمردت ضد محمد، فأصبحت تحت أمره، واستسلمت له ... وغامرتم أنتم فلم تجنوا سوى قبض الريح ... »

قال في سخرية :

— « وماذا تقترحين يا أم حكيم ؟ ؟ »

— « الالتزام باتفاقية الحديبية ... »

— « قولي صراحة ... تقصدين التسليم ... »

وصمت برهة ثم قال :

— « الحقيقة أنني لا أغامر عن حماقة ... لقد تبدلت الأحوال، وانكشف الغطاء عن

زيف كبير ... لقد حاول المسلمون أن يغطوا على هزيمتهم وفضيحتهم في « موئة » تلك المعركة التي ساقهم الغرور إليها كي يجابهوا الرومان ... أتدرين ماذا حدث ؟ ؟ لقد استقبلت « يثرب » جيشها العائد وهي تعفر وجه الجند بالتراب ويقولون لهم « يا فرار... فررتم في سبيل الله »، لكن محمداً حاول ان يغطي على الهزيمة بقوله « هم الكرار إن شاء الله ... »

الحقيقة هناك على ألسنة الناس في شوارع يثرب ... لقد هُزِم المسلمون في موئة هزيمة نكراء، وفقدوا ثلاثة من كبار قادتهم، وعددا كبيراً من جنودهم، وفقدوا الهيبة لدى قبائل الشمال، وكذلك القبائل القريبة من يثرب ... هذا ما أدركناه بالامس، ولذا أرى أن انسب فرصة لنقض الصلح مع المسلمين هي هذا الوقت ... »

قالت ام حكيم :

— « أخاف ان تكون الصورة التي تصورها الآن من صنع الفاسدين الذين يبغون الوقيعة ... ثم كيف تنقض الاتفاقية ؟ ؟ إن الناس في مكة وعلى رأسهم أبي سفيان لن يمكنوك من ذلك مطاقاً ... »

قال عكرمة وهو يصر على أسنانه في غيظ :

— « لسوف ننقض الاتفاقية بطريقة خبيثة لن يفطن اليها أحد ... »

— « كيف ؟ ؟ »

— « ستعرفين كل شيء غداً ... »

تشبثت بثيابه، واغرورقت عيناها بالدموع، وهتفت :

— « عكرمة ... ارحم عذابي .. لا أريد أن أفقدك ... الدماء تقود إلى الدماء، وليس وراء الحرب إلا الدموع والأحزان مهما كان النصر رائعاً ... آه ... أنت لا تدري... وما قيمة النصر بالنسبة لامرأة تكون قد فقدت زوجها أو ولدها ... إن مئات القصائد وعشرات الطبول، لن تجفف دموعها الغالية ... »

انتزع ثيابه منها في عنف وحنق وقال :

— « تبثين في قلبي اللوعة والخوف، مع أن النساء في « يثرب » يودعن أزواجهن بالزغاريد والأراجيز ... ويبشرونهم بالاستشهاد في سبيل الله، والجنة، ويحرضونهم على الموت ... آه ... لقد فسد كل شيء في مكة، وأصبحت النسوة يحذرن أزواجهن من التضحية في سبيل الشرف والكرامة ... »

ومضى عكرمة خارجاً ...

انه يدق الأرض بخطوات قوية، تنبي عن عزيمة صلبة، وإرادة لا تلين، لن تستطيع قوة في الوجود أن تمنعه من تنفيذ مخططه مهما كان الثمن، وهو يعتقد أنها الفرصة الأخيرة التي لن تكون هناك فرصة بعدها، لسوف يلتقي بصفوان وسهيل والحويرث ووحشي بن حرب وغيرهم من ائمة العناد والحقد، وهناك سيدبرون كل شيء، وغدا تحتشد الحشود، ويشتعل أوار الحرب، ليحترق في جحيمها كل عناء وخوف وعذاب ... الحرب هي الدواء ولا شيء غيرها ... وتذكر عكرمة ... كيف يواجه خالداً بن الوليد ؟ ؟ بالأمس كانا يحاربان جنباً إلى جنب وغداً يرفع كل منهما سيفه في وجه صاحبه، أليس غريباً أن تمضي الأمور على هذا النحو الذي لم يكن يتصوره ؟ ؟ لا شك أن محمداً مزود بقوى غيبية مهولة، حتى يستطيع أن يفرق بين المرء وبينه، وبين الصدق وصديقه، كيف يكون أبو بكر الرجل الأول بعد محمد في حين ان أباه ابا قحافة العجوز لم يزل كافراً ؟ ؟ وكيف تكون حبيبة بنت ابي سفيان زوجة للرسول ... وأبوها قائد قريش في حربها ضد المسلمين؟ وكيف تفر الزوجة عن زوجها وتهرع إلى محمد مؤمنة بدعوته، او يترك الزوج زوجه وبيته وماله، ويهرول معتنقاً الاسلام ؟ ؟ إن الانتظار على المسلمين بعد ذلك يعد من أكبر الحماقات، ولن تسوء الحال اكثر مما هي الآن ... »

واخيراً التقى عكرمة برفاقه في محفل الحاقدين ... انه لقاء مشبع بالتوتر والإصرار والفرحة الشيطانية، في هذا المحفل يعبر الرجال عن نفوسهم الحاقدة دون أية مواربة، ويطلقون العنان لعواطفهم المنحرفة، ويسقطون كل القيم الشريفة التي درج عليها العرب هم يعلمون أن نقض العهد جريمة وعار، لكن الحقد يحتقر كل مواصفات الشرف والكرامة ويدركون أن تحركهم قد يجر الوبال على البلدة كلها، لكنهم لا يفكرون في مصالح الناس بقدر ما يستجيبون لنزواتهم ...

وكانت خطتهم واضحة لا غموض فيها ...

فالمعروف ان صلح الحديبية، قد أعطى الحق لأية قبيلة أن تدخل في عهد قريش أو عهد محمد، وقد اختارت « خزاعه » ان تدخل في حلف محمد، أما عدوتها قبيلة « بني بكز » فقد دخلت في حلف قريش، وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات وعداوات قديمة لم يهدأ أوارها ... واستطاع « عكرمة بن ابي جهل » ورفاقه، أن يوقعوا بين القبيلتين، ويحرضوهما على الحرب، لكن خزاعة التزمت بعهدها، ورفضت الصدام، اما بنو بكر فقد استطاع الحاقدين أن يثيروا احقادهم الدفينة، ويغروهم بالمعونة، وقدموا إليهم المال والسلاح، فما كان من بني بكر إلا أن انقضوا على « خزاعة » عند ماء لهم يقال له « الوتير » وقتلوا منهم ... وهكذا نقضت بكر العهد بتحريض من حلفائها ...

ولم تحاول خزاعة أن تجاريهم في عدوانهم، بل أرسلوا رجلهم « عمرو بن سالم » إلى الرسول سراً، وقال عمرو بن سالم وهو يركب ناقته معولا على السير إلى « يثرب » : « هذا يوم له ما بعده ... ولن يردني محمد خائباً ... »

•

وهز الحدث الكبير أرجاء مكة ...

وخرج الناس إلى الشوارع يستقصون الأخبار ... وعلا الضجيج، واختلطت التساؤلات والتكهنات، وكان رجال بني بكر يجوبون الأنحاء في سلاحهم وغرورهم، محاولين إظهار شجاعتهم، بينما أوى القوم من « خزاعة » إلى ديارهم في انتظار كلمة الرسول، وكاد عكرمة ورفاقه يطيرون من الفرح، وهتف عكرمة :

— « فليأت أبو سفيان اليوم، ليرى لمن تكون القيادة ... »

قال وحشي بن حرب :

— « ان أخوف ما أخافه ان يثير أبو سفيان الناس ضدنا، ويحرضهم علينا إرضاء لمحمد، واشارة لتمسكه بالعهد ... »

قهقه عكرمة قائلا :

— « لقد أفلت الزمام من يده، ولن يستطيع أن يفعل شيئاً، لئن استطاع أن يكبح جماح مكة، فلن يكون في مقدوره أن يسكن غضبة المسلمين ... »

وأخذ الحويرث يرقص طرباً ويقول :

— « لقد تحققت الآمال، ونجحت الخطة، ولن يستطيع أي إنسان كائناً ما كان أن يسكت نداء الحرب ... المهم أن نبدأ في إعداد العدة ليوم له ما بعده ... »

عندما بلغت الأنباء أبا سفيان غلى الدم في عروقه، واحتقن وجهه، وأخذ يعبث بلحيته في عصبية، ويصر على أسنانه في غيظ، ويردد في ألم :

— « ما العمل الآن ؟ ؟ »

جذبته هند من كمه وهتفت به في غيظ :

— « العمل واضح ... وهو ألا تضيع دقيقة واحدة إلا في الاستعداد للمعركة والا فاجأتك الأحداث وأنت في غفلة ... »

صرخ في حدة :

— « لا ... »

قالت في استغراب :

— « ماذا ستفعل اذن ؟ ؟ »

— « سأشد الرحال إلى يثرب »

— « هل جننت ؟ ؟ »

قال دون أن يعيرها أدنى اهتمام :

— « لسوف أذهب إلى محمد، واعتذر له عما حدث، واعترف له بأن ذلك كان في غفلة مني، وأبدي استعدادي لدفع الديات ... ثم أطلب منه أن يمد فترة الصلح لسنوات أخرى ... »

دقت على صدرها في دهشة وقالت :

— « أي عار وفضيحة تعرض نفسك لهما يا أبا حنظلة ! ! »

قال بهدوء وهو يطأطىء رأسه في أسى :

— « لن ألقى بقريش إلى أتون معركة لا خير فيها، لو كنت واثقاً من النصر الآن، لما ترددت لحظة في سوق الجنود إلى يثرب ... الحرب الآن حماقة كبرى يا امرأة ... »

•

وهرول الحويرث إلى بيت لؤلؤة، ودفع الباب في رعونة، وهتف وهو يراها ملقاة على فراشها نصف عارية :

— « جئتك بأروع الأنباء ... »

— « ألق ما لديك دفعة واحدة، فأنا لا أطيق الصبر ... »

قال وهو يلهث :

— « قتلت بكر » عدداً من رجال « خزاعة »، فنقضت الاتفاقية، ونحن الآن على أبواب حرب ... »

هبت من فراشها، وفغرت فاها دهشة وقالت :

— « اتنتظرون أم تذهبون للقاء محمد في عقر داره ؟ ؟

— « بل سنذهب اليه ... »

— « متى ؟ ؟ »

— « متى... متى ... لا أدري بالتحديد ، لكن الأمر لن يستغرق بضعة أيام ... »
ثم أضاف في فخر :

— « كنت أنا أحد الذين صنعوا الأزمة، وأشعلوا الفتنة، ولم يكن هناك طريق آخر، نظراً لإصرار ابي سفيان على الالتزام بصلح الحديبية ... »

عادت، ومددت جسدها اللدن على الفراش ، وقالت دون حماس :

— « ليس هذا وقت الفرحة ... »

— « متى يكون ذلك يا لؤلوة ؟ ؟ إن الامور تمضي حسبما نهوى ... »

شردت لحظات، ثم قالت :

— « متى ... متى ... لا أدري بالتحديد ... لكن ستكون الفرحة الكبرى عندما تحمل الركبان الينا نبأ انتصاركم ... »

اقترب منها ككلب يسيل لعابه وتمتم :

— « أليس لي من جائزة هنا لهذا النجاح المبدئي ؟ ؟ »

قالت وهي تبتسم :

— « اترع ما شئت من خمر ... »

— « الخمر وحدها لا تطفىء ظمأي ... »

قهقهت في خلاعة :

— « واترع ما شئت مني ... »

واخذ الحويرث يغوص في أوحاله، بينما الناس في شوارع مكة يصخبون ويلقون باللوم على رجالات بني بكر ، ويؤنبون عكرمة وصحبه، حتى كادت تنشب فتنة داخلية كبرى تدمر كل شيء، لولا تدخل أبي سفيان ووعده بأن يسافر إلى يثرب كي يساعد على إعادة الأمور، إلى نصابها، وكان لسان حال الجماهير يردد « لن يجرنا أحد إلى حماقة أخرى بعد اليوم ... »

الفصل الثامن والثلاثون

هرول إلى رسول الله، مسح العرق والتراب، لكنه لم يستطع أن يمحو الاحتقان الظاهر في عينيه ، وأخذ يلتقط أنفاسه اللاهثة، ثم ظل يسرد كل ما حدث في مكة ، وما ارتكبه بنو بكر في حقهم من اعتداء منكر، وموقف قريش المتحيز، وإمدادهم لخصماء خزاعة بالمال والسلاح والتحريض، وظل الرسول يستمع اليه في اهتمام بالغ، وصمت مترقب، ثم قال الرسول وقد طافت مسحة ألم ممتزج بالحزن على وجهه الكريم :

— « نُصرت يا عمرو بن سالم »

وأدرك عمرو بن سالم — مندوب خزاعة إلى الرسول — ما تعني هذه الكلمات القليلة وفاء بالعهد، وانذار بأحداث جسام، ولم يخف على صحابة الرسول ما تعني الكلمات، وبات كل واحد منهم يفكر فيما قد يجدّ من أمور ...

وأوصوا عمرو بن سالم بالكتمان والعودة فوراً إلى مكة دون أن يذيع أي شيء، ويا حبذا لو أنكر زيارته إلى يثرب، ألم يقل الرسول « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان؟؟

وتمتم عمر : « تأبى قريش الا أن تفتح باب الفتنة، وتجر على نفسها الوبال، ماذا لو احتموا بنور الحق، واتبعوا دعوة الله ، فسعدوا وسعد الناس ؟ ؟ ماذا لو اطفأوا نيران الموجدة في قلوبهم، وكسروا من حدة كبريائهم الزائفة، وتجردوا للحق وحده ؟ ؟ »

واثناء عودة عمرو بن سالم إلى مكة، بصر بأبي سفيان يحث راحلته صوب يثرب، والقلق والضيق ظاهران على وجهه المغبر ، وذهل ابو سفيان اذ رأى عمرو بن سالم :

— « ما الذي أتى بك يا عمرو ؟ »

— « اني قادم من زيارة حيي من أحياء العرب ... »

— « ألم تذهب إلى يثرب ؟ ؟ »

— « لم أر يثرب منذ أمد بعيد ... »

وعلى الرغم مما انتاب أبا سفيان من شكوك إلا أنه مال إلى التصديق، ونزل من فوق راحلته واقترب من عمر قائلا :

— « لا يأخذنك الغضب يا عمرو »

— « وكيف ؟؟ لقد قتلتم الرجال، ونقضتم العهد »

— « الإثم في عنق بني بكر يا عمرو ... أنت تعرف ذلك »

— « لكنهم في عهدكم، وأنتم حرضتموهم وأمددتموهم بالمال والسلاح »

قال أبو سفيان في أسف :

— « ان فئة قليلة من الحمقى هي التي أفسدت الأمور بينكما ... »

ثم ابتلع ريقه وقال في مرارة :

— « إنني ذاهب إلى محمد لأضع الأمور في نصابها، ونمد أجل الصلح فترة أكبر، وسأفعل كل ما أستطيعه لأخذ حق خزاعة، ورد اعتبارها ... »

زمجر عمرو :

— « لسنا عاجزين عن حمل السلاح، وإبادة من كادوا لنا، وأراقوا دمنا، ولم يخطر على بالنا أن نشكو إلى محمد على الرغم من أنه حليفنا الصادق، وذلك لأننا قادرون على أن نرد الصاع صاعين لبني بكر ومن آزرهم ... »

ربت على كتفه في ود، وفاضت نظراته رقة واعتذاراً وقال :

— « أعلم ذلك يا عمرو، وتأكد أنه لن يهنأ لي بال حتى أقتل الفتنة في مهدها، وأقلم أظافر اللاعبين بالنار ... وأنا أعني ما أقول ... »

وانطلق عمرو في طريقه، ولفت نظر ابي سفيان روث الإبل ... ماذا يرى ؟؟ يا للكارثة ! إن هذا الروث يعني أن راحلة عمرو بن سالم قد أكلت من علف المدينة، وليس لهذا من تفسير سوى أنه كان عند محمد ... إن الأمور تتعقد، وفي الأمر مكيدة كبرى قد تقضي على كل أمل في المصالحة، وتعصف بكل رغبة في السلام المنشود، لكن لا بد أن أواصل السير حتى النهاية، لن أيأس أو أقطع نصف الطريق ... ومحمد أنا أعرفه، إنه بر رحيم لا لا يرد سائلا، ولا يحتقر رجاء من رجل مثلي، ألا يكفيه أنني أتيت إليه بنفسي، وأنا سيد القوم، وحامل لوائهم، والمتحدث باسمهم ؟؟ إنني ند له تماماً ؟؟ لكن ألا يجوز أن يتمسك محمد ببنود الاتفاقية — وله الحق كل الحق في ذلك — ويثأر لشرف الدم المراق، ولا يأخذ الغادرين بجرمهم ؟ ومحمد يتسامح ... ويتسامح ... لكن اذا ما فاض الكيل، وتمادى المعتدون انطلق هو ورجاله لينفذوا حكم العدالة في المارقين، وليصد عدوانهم وعنادهم، ألم يفعل ذلك مع اليهود، ومع القبائل المتاخمة له ؟؟ بل، ألم يتجرأ ويجرد

جيشاً ليواجه به الروم في « موئتة »، وهو يعلم علم اليقين من هم الرومان ؟ ؟ ودخل ابو سفيان « يثرب » خائفاً يترقب ... آه... إن لهذه المدينة صمت عجيب... إنني أرى في الشوارع قوماً هادئين، تشع عيونهم بريقاً عجيباً، هو مزيج من الايمان والاطمئنان والثقة، لا صياح ولا قلق ولا تخبط... لكن هذا لا يعني أنهم لا يفكرون في حرب، قد تنقلب سحناتهم فجأة إلى آساد غاضبة، أو نمو ر شرسة ...

ترى إلى من يذهب أبو سفيان الآن، والجو غامض، والناس يحاصرونه بنظراتهم الذاهلة، وعلامات الاستفهام تلاحق موكبه المرتبك، وراحلته تهرول، وكأنما تتوافق مع ضربات قلبه الخافق المضطرب .

أحقاً هو أبو سفيان ؟ ؟ الناس لا يكادون يصدقون، كيف جروُ على المثول بنفسه، وكيف يشق طريقه وسط ماض مليء بالدماء والدمار والذكريات المثيرة ؟ ؟ حسناً فليذهب إلى ابنته أم حبيبة زوجة الرسول ... انها ابنته ... أقرب الناس اليه ... وبيتها بيت الرسول.. ولسوف تقابله ابنته فاتحة ذراعيها، والدموع تترقرق في عينيها، لقد فرقت بينهما العقيدة، لكنها ابنته على أية حال، ولسوف تمده بما يحتاج إليه من بر ومودة وطمأنينة وأمل، للمصيبة إنها تقابله متجهمة الوجه، عابسة الملامح، تدير وجهها بعيداً عنه، أهو في حلم ؟ ؟ دارت به الأرض، بحث عن مكان يجلس فيه، هذا فراش الرسول، فليسترح عليه، وكم كانت دهشته حينما رأى ابنته، « ام حبيبة » تنقض بسرعة وتبعد الفراش، واستدار صوبها وهو لا يكاد يصدق عينيه :

— « أطويت الفراش رغبة بي عنه، أم رغبة بالفراش عني ؟ ؟

قالت في حدة :

— « هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب ان تجلس عليه ... »

دارت به الارض من جديد...

وعربدت في رأسه ضجة مبهمة، وانطمست معالم الأشياء أمامه، حتى اصبح عاجزاً عن أن يرى شيئاً، وهتف بنبرات راعشة :

— « يا بنت ابي سفيان ... لقد وجهت إلى أبيك أبشع اساءة ... لو كان محمد هنا ما فعل شيئاً من هذا ... »

— « رابطة الإيمان أقوى ألف مرة من رابطة الدم ... »

— « لقد اصابك بعدي شر ... »

وابتلع لعابه، وأعطاها ظهره وانصرف ...

والتقى بالرسول فأشاح عنه، ورفض ان يجيبه إلى طلبه ... ثم عول على أبي بكر، طالباً منه أن يتوسط لدى محمد، فأبي، فمال على عمر، فقال غاضباً :

— « أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ... »

فأسرع إلى علي بن ابي طالب، فرق له في الحديث وقال :

— « يا أبا سفيان ... لا يستطيع أحد أن يرد محمداً عن أمر إذا هو اعتزمه ... » فقصد فاطمة بت الرسول ... لم يبق الا النساء كي يستشفع بهن ابو سفيان، أي ذل وعار ! ! لكن لا بأس ، لئن بلغ مناه، وحقق مبتغاه، فإن كل شيء يهون، لكن فاطمة هي الأخرى أفهمته أنه لا يمكن ان يجير أحد على رسول الله، ونصحه علي بن ابي طالب قائلا :

— « والله ما أعلم شيئاً يغني عنك، لكنك سيد بني كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك، وما أظن ذلك مغنياً، ولكن لا أجد لك غيره ... »

ونفذ ابو سفيان ما أشار به علي، ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة بخفي حنين، والطريق شاق طويل، مليء بالأحزان والمرارة والهوان، وأشباح الذكريات التعسة تتراقص من حوله، والليل ممتد فاحم ينبض بالأسى المرير ... هل أصبح للحياة — بعد اليوم — طعم يا أبا سفيان ؟ ؟ أنا الذي كنت أمضي في الطريق، فيخشع العرب، وتنحني الرؤوس وترتجف الأهداب، وتتباهى الناس بلقائي والحديث معي، فاذا ما نطقت، تلقفت الآذان كلماتي وكأنها الوحي النازل على محمد، واذا ما اشرت باصبعي تبعتني الحشود إلى الحرب.. إلى الموت ! ! ! ما الذي جرى حتى أدخل « يثربَ » فتلاحقني المهانة والسخريات؟ ؟ هذا هو السقوط الفعلي على الرغم من وجود الرجال والسلاح من ورائي... سقطت هيبتي في قلبي ... ولا يهمني بعد ذلك المظهر ... لو كنت أعلم أن مكة قادرة على أن تنهض بي من كبوتي وترد الي كبريائي المهدورة لما شعرت بما أشعر به الآن من أسى عميق ... لا... أنا لا يهمني مكة ... ان السقوط نابع من داخلي ... إن في قلبي فراغ رهيب... ليس فراغاً بالضبط ... لكنه شيء تافه حقير أشبه ما يكون بلا شيء ...

آه ... لسوف يلقاني الناس على مشارف مكة، وينظرون إلى وجهي ويتساءلون

— « ماذا جرى ؟ ؟ »

« آه ... ماذا أقول ؟ ؟ وكيف أجيب على تساؤلاتهم ؟ ؟ وكيف ألقى عكرمة والحقراء من حوله ؟ ؟ وهند زوجتي، بماذا أحدثها ؟ ؟ انه موقف رهيب... » ويمضي أبو سفيان في طريقه الشاق، والذكريات الآثمة تطفح على سطح فكره المائج... وتتجسم الآثام ...

هذا رجل من رجالات محمد قبضوا عليه مع صاحب له ... يا له من عذاب يتعرض له الرجلان ... وأبو سفيان يشهد المأساة ... ما أبشع ما قاسى الرجل ... أوه ... ليس هذا وحده رجال آخرون، كانوا يتحملون العذاب حتى الموت ... يبتسمون للعذاب، ويرفضون أن ينطقوا كلمة الكفر... إن سجلك حافل يا أبا سفيان ... ترى هل كان هناك داع لهذا العناء كله ؟ ؟ لماذا لم نترك الناس يختارون ؟ ؟ أكان ضرورياً ان نرغمهم على اعتناق ما نؤمن به، وأن يعادوا من نعادي، ويصادقوا من نصادق ؟ ؟ لو فعل محمد الآن ما فعلنا أنلومه ونرميه بالجور ؟ ؟ وانتزع ابو سفيان عصاه فجأة، ثم انهال على رأس الراحلة وعنقها ضرباً مبرحاً، والناقة تهز رأسها، وتجري ويصدر عنها رغاء ضارع ... وأخذ أبو سفيان يهدىء من روعه، ثم كف عن ضرب الناقة، وتركها تمشي كما تهوى، وجسده يهتز أمام وخلف ... والرفاق الذين معه يمشون خلفه في صمت لا يكادون ينطقون بكلمة واحدة ...

وخاطب ابو سفيان نفسه قائلا :

— « حسناً ... ليحدث ما يحدث ... ليصبح عاليها سافلها ... ولتنطلق همجية التدمير في كل الأنحاء ... أجل ... فقد سقطت ... »

وشعر برغبة في البكاء، لكنه تمالك أعصابه واستطرد :

— « لتقل هند ما شاءت ... وليسخر ابن ابي جهل ... ولينطلق الشامتون في شوارع مكة وبيوتاتها بأفحش القول ... فما عدت أكترث لشيء ... »

انها لحظات يأس قاتل، لم يتعرض ابو سفيان لمثلها طول حياته ... وتساءل : ترى لماذا لا يحملنا الله بقدرته هو إلى الحق ؟ ؟ هل كان من الضروري أن يبعث برجل من بني هاشم لنهتدي على يديه ؟ ؟ ألم يكن من المريح لبني البشر أن يتجرعوا نور الحقيقة على يدي خالقهم ؟ ؟ انني اؤمن بالله ... لكن ... لكن لن استطيع أن اؤمن بمحمد مهما كان الأمر ... وكيف اؤمن به بعد ذلك الصراع الرهيب ؟ ؟ أأظهر امام الناس بأني كنت على باطل طوال هذه الحقبة المنصرمة ؟ ؟ ففيم كان إذن القتال والعناء والدمار، وقصائد البطولات، والتحديات التي سارت بها الركبان في كل مكان ؟ ؟ »

الفصل التاسع والثلاثون

« عندما يشاء الله، تنطوي إرادة البشر تحت مشيئته، وتتواكب الأحداث لإنفاذ أمره، وينجلي صراع الحق والباطل عن هزيمة ما حجة لما هو ضد الطبيعة والعدل، وتأتي النتيجة ملبية لنداء الحياة ومتطلبات العصر »، هذا ما قاله عمر بن الخطاب حينما أعلن الرسول بعد أن حشد عشرة آلاف جندي — انه ذاهب لفتح مكة، واستطرد عمر قائلا :

— « يا صحابة رسول الله، كان طبيعياً ان ينقض المارقون والمنحرفون العهد، فالأوبئة لا تلد الا الموت، والجيفة لا ينبعث عنها الا الروائح الكريهة، وطغاة مكة كذلك لا تنبي تصرفاتهم الا عن الحقد والعسف والفساد، وما فعله بنو بكر، ومؤازرة قريش لهم في عدوانهم على حلفائنا الخزاعيين، ليس إلا حدثاً متوقعاً، ومحصلة للصراع ... وقيامنا لرد العدوان، ووضع الأمور في نصابها، وفتح الطريق أمام نور الله ... أقول إن قيامنا بهذا الواجب، أمر تفرضه عقيدتنا، وتحبذه ارتباطاتنا في الحديبية، وإني لأظن أن وثبتنا المباركة تلك، ستعيد إلى الأرض السلام، وستهب الحرية للمحرومين والمستعبدين في جنبات مكة، اولئك الذين حرموا من نعمة الاختيار، واتباع الطريق السوي التي يؤمنون بضرورة ارتيادها ... واذا كان هذا هو التفسير الصحيح للأمور حسبما اعتقد، فان رسول الله قد تلقى وحي ربه بفتح مكة، وليس لأمر الله نقض ولا رد ... لكن اعلموا يا صحابة رسول الله أن نبيكم يريد أن يدخل مكة دون إراقة دماء، فما بنا رغبة للثأر او الانتقام، ولسنا ظامئين لإسالة دماء البشر ... » وتنهد عمر في ألم وقال :

— « وكان لا بد ان يعود المهاجرون والمطرودون إلى دورهم وأرضهم وذويهم ... من الظلم الفادح ايها الصحاب أن يضطر الإنسان إلى الخروج عن داره لرأي رآه، أو عقيدة اعتنقها ... ومن التجبر الفاحش أن تحشد قريش الجلادين، وتقيم المشانق، وتدبر المؤامرات للقضاء على إنسان يريد الإيمان بخالق الأرض والسماء، وباعث الروح... » وحثت الحشود خطاها مسرعة صوب مكة حيث المسجد الحرام، ومحمد على ناقته القصواء يسبح ويدعو الله ان يهدي الجميع إلى طريق الخير والفلاح، ويوصي جنوده بالصبر والصفح، واحتساب كل تضحية في سبيل الله، حتى اذا بلغ الرسول وجنوده مكاناً قريباً من مكة يقال له « نيق العقاب »، أمر الجند بالنزول فيه ...

وعلمت « يثرب » بنوايا الرسول، ففرح الرجال والنساء وترنم الاطفال بالأراجيز، وذهبت زوج عبد الله بن أبي اليه قائلة :

— « ألم تسمع الأنباء ؟ ؟ »

رفع اليها وجهاً شاحباً متغضنا، وعيونا حائرة غائرة وقال :

— « ماذا هناك ؟ ؟ »

— « ذهب محمد لفتح مكة ... »

صاح بصوت واهن ضعيف :

— « مكة ؟ ؟ هل أصابك جنون يا امرأة ؟ ؟ »

— « انني على يقين مما أقول ! ! وهو الآن على مشارفها، أخذها على غرة حتى لا تستطيع ان تنهض للمقاومة، فتراق الدماء، انه يريد ان يفتحها دون معركة ... »

فكر عبد الله برهة، ثم اهتز رأسه هزات لا إرادية، وطأطأ رأسه ذليلا وقال :

— « اذا نجح محمد في خطته، فستكون النهاية ... »

— « أو تشك في نجاحه يا عبد الله ؟ ؟ لقد أوحى الله إليه أن يذهب إليها فاتحاً، بعد ان نقضوا العهود، وأساءوا السيرة ... »

قال وقد تلون شحوبه بحمرة خفيفة مفاجئة :

— « الأمر ليس هيناً ولن تفتح مكة أبوابها إلا إذا خر رجالها صرعى أجمعين ... انني اعرف عنادهم وحقدهم، ولن يستطيع محمد وجنوده أن يصمدوا لحرب من هذا النوع ... كانت قريش تخرج كل مرة وتهاجم محمداً في عقر داره ... أما هذه المرة فانها الأولى التي يتبدل فيها الحال، ويذهب المسلمون إلى قريش في مربضها ... ستكون معركة ما سمع بها العرب من قبل، وستكون أحدوثة التاريخ والأزمان، وستظل مادة ثرية لشعر الشعراء وأحاديث الرواة ... »

قالت زوجه في دهشة :

— « دائماً تجهض فرحتي ... وتحرمني متعة الأمل يا عبد الله ... أنسيت أن أبا سفيان جاء بالامس ذليلا خائفاً مستجيراً ؟ ؟ ما معنى ذلك ؟ ؟ ليس له سوى معنى واحد، وهو أن قريشاً في أضعف حالاتها، وأن قوماً هذا شأنهم لن يستطيعوا أن يصمدوا في معركة حقيقية »
وبدا الغيظ والضيق على وجه شيخ المنافقين، ربما ساءه أن زوجه تلمس الحقيقة، وتعبر عنها

تعبيراً صادقاً، وربما تخيل المسلمين يعودون منتصرين فازعجه هذا التخيل، او لعله رأى في كلماتها سذاجة وحماقة، وأخيراً هتف غاضباً :

— « ألا يجوز أن يكون أبو سفيان قد لعب لعبة بارعة، حتى يجر محمداً وجنده إلى كمين منصوب، ويغريهم بالحرب حتى يقضي عليهم ؟ ؟ انني أعرف هؤلاء المكيين، لم يستطع أحد أن يستولي على مدينتهم من قبل، انسيت ما حدث في عام الفيل ؟ ؟ ماذا جنى « إبرهة » ؟ ؟ عاد خائباً مهزوماً ... » وضاقت زوجه بهذا الجدل الذي أثارها وأزعجها، ليكن تفسيره مقبولاً أو معقولا، وليكن فكره عميقاً محيطاً، لكن هناك أمرين لا يمكنها أن تتجاهلهما، أولهما انها تتمنى ألا يكون تحليله صادقاً، وثانيهما أن الحوادث الماضية قد أثبتت فساد رأيه، وكانت معظم النتائج تأتي على عكس ما توقع، لهذا قالت :

— « فلنكف عن الجدل الآن، لن أؤيدك أو أعارضك يا عبد الله، ولكني سأنتظر النتيجة، وما أظن أن ذلك سيطول أمده ... »

وانصرفت زوجه حانقة، بينما بقي شيخ النفاق وحده، قاس المكان بنظراته، ورفع عينيه الغائرتين إلى السماء، وتحسس الفراش بيده العجفاء، كان يبحث عن ومضة نور، الشمس تتدفق في كل الأنحاء، والسماء زرقاء صافية الأديم ، والجو يوحي بالهدوء والسكينة، وانبساط الأفق يبشر بالانطلاق والأمن، لكن الصورة لدى عبد الله شيء آخر، انه ما زال يبحث عن ومضة نور، أو لحظة طمأنينة، أو رجفة أمل تنعش قلبه العجوز، وتأتي قريش مطأطئة الرأس، تسلم قيادها لمحمد، ويأتي ابو سفيان مستغفراً تائباً، ويقبل عكرمة بن أبي جهل على استحياء ليشهد ألا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ ؟ وأبو جهل في قبره كيف تكون حاله ؟ ؟ أم أن الموتى لا يشعرون بشيء ؟ وهند ... تلك التي لاكت كبد حمزة في فمها، وتحلت بأحشائه ومثلت بجثته أشنع تمثيل ! ! ووحشي بن حرب... والحويرث ... كيف ينصاع هؤلاء جميعاً لمحمد ؟ ؟ أي عقل يستطيع أن يصدق أن يعم الصفاء والوئام هذه البقاع الدامية، ويهيل التراب على تلك الثارات العنيفة ؟ ؟ من أجل ناقة صرعت قامت الحروب لسنوات بين قبيلتين من كبار القبائل .. كانت الأبناء يرضعون لبان الحقد والثأر من أمهاتهم ... والآن كيف ينسى العرب ما جرى في « بدر » « وأحد » « والخندق » ... والسرايا المختلفة ... وبني قريظة و النضير ؟ ؟ كيف تنمحي هذه الذكريات ؟ ؟ أهكذا تنتهي المعركة ... ينهزم اليهود ثم تنهزم قريش ... معنى ذلك أن تحيق بي الهزيمة ... لكأن المعركة دائرة من أجلي ... من أجل التاج الضائع ... لكن لشد ما يؤلمني أن أفكر في بعض الأحيان في تفاهتي ... انهم يحاربون الآن دون أن يفكر فيّ أحد ... لقد نسوني ... ونسوا تاجي ... ثم رفع يده المعروقة المرتعشة، وأطال النظر اليها، وهتف في رعب : « لم أعد أصلح لشيء ... » ثم حاول النهوض وهتف في تحد : « لا ..

انتصرت قريش على محمد، فلسوف تدب فيّ الحياة من جديد، وسيصح قلبي ... في انتصار مكة عمر جديد لي ... عندئذ استطيع ان انكل بانصار محمد، يدعمني المنتصرون، ويعيدون الي ّ مجدي ... وأول شيء أفعله هو أن أحطم جمجمة ولدي عبد الله، وأبصق في وجه زوجتي ... وأتزوج غيرها ... سيتغير كل شيء ... سيتغير وجه يثرب ومكة ...

وهؤلاء الذين يخطبون ود محمد اليوم، يأتون إليّ تباعاً ليسبوا المسلمين ودعوتهم، وليقدموا لي فروض الطاعة والولاء، ويشنفون أذني بروائع القصائد ... »

الفصل الأربعون

دخل أبو العباس عم الرسول بيته مهرولا، كان وجهه ينطلق بشراً وسعادة، وسيما تبدو واضحة جلية ... ودهشت زوجه أم الفضل إذ رأته على هذا الحال، فهي تعلم أنه منذ حادث بني بكر وخزاعة، وهو في هم وقلق ترقباً لما قد تأتي به الأيام، لقد عاش العباس في نوع من الحياد لا يرضى عنه الكثيرون، يعتب على ابن أخيه ويعارض فكره، وينْقم على تشبيثه بدعوته، ولا يمنع قريشاً من حربه، ويؤيد فكرة الحفاظ على تراث قريش وماضيها وآلهتها، لكنه لم يفعل كما فعل ابو جهل وأضرابه، لم يغال في معارضته، او يرتكب الحماقات، ومن ناحية أخرى كان قلبه يحن إلى ولد أخيه، ويد من التفكير في أمره، وهو لا ينكر انه في بعض الأوقات قد مال إلى تصديقه وفكر في اعتناق دعوته، . كان هذا الوضع شبه الحيادي يكلف العباس الكثير من القلق والأرق والضيق، ومنذ يوم « العمرة » التي أتى فيها محمد وألفان من المؤمنين به لزيارة البيت العتيق، وهو يشعر بالتحول الحقيقي ولا يخفيه عن زوجه ... لقد استقر رأيه على اعتناق الاسلام ...

وحينما دخل العباس بيته، ورأته زوجه على هذه الحال، قالت :

— « اقرأ في وجهك أنباء حدث سعيد ... »

قال في ايجاز :

— « ابن أخي في طريقه إلى مكة »

هتفت دهشة :

— « لماذا ؟ ؟ »

— « ومعه جيش عرمرم ... »

هزت رأسها قائلة :

— « فهمت ... »

— « وقريش يا أم الفضل لا تعرف عن الأمر شيئاً، يريد أن يأخذها على غرة ... لقد عرفت كل شيء ... »

صاحت في رعب :

— « أتريد أن تخبر قريشا بالأمر ؟ ؟ »

قهقه في سخرية :

— « كيف ؟ ؟ أنت تعرفين اني اخترت طريقي ، وحزمت أمري ، وانه لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ... »

تنهدت في ارتياح ، لكنه قال فجأة :

— « لكن بمكة الأهل والعشيرة والإخوان ، ولن أفرط فيهم ... »

قالت ام الفضل :

— « انك تحيرني ، ماذا تعني ؟ ؟ »

— « من حقي يا أم الفضل أن أختار العقيدة التي يقتنع بها عقلي ، ويستجيب لها قلبي ... ومن حق العشيرة علي أن أحميهم من الشطط ، وأحفظ عليهم دماءهم وأموالهم وأولادهم ونساءهم ... »

هزت كتفيها في حيرة وقالت :

— « لا أفهم الا القليل ... »

— « غدا تفهمين كل شيء ... »

قالت مستدركة :

— « لكن كيف عرفت بمقدم محمد ؟ ؟ »

— « هذا سر لن أبوح به لاحد طول حياتي ... كل ما يمكنني قوله هو أنني أديت واجبي ، وأديت دوري بشرف ... »

ثم قال في لهفة :

— « أعدى الطعام ، ودعيني أجهز راحلتي ... »

— « إلى أين ؟ ؟ »

— « إلى الجحفة ... هناك القاه ... »

— « لقد قرب موكبه ... »

ثم امسكت بكمه قائلة :

— « حذار أن يلحظ أبو سفيان شيئاً ... »

— « اطمئني ... لن يطول بأبي سفيان الوقت حتى تتجلى له الأمور على حقيقتها ... إن له حاسة شم قوية ... رأيته اليوم يلف ويدور ، ويتنطس الأنباء ، رأيت في عينيه توجساً وخوفاً ، الرجل يقف في الأسواق وكأنه متأكد من وقوع كارثة وشيكة لا يستطيع لها دفعا ... »

وعادت ام الفضل تقول :

— « لكن بماذا تجيب اذا سألك سائل عن وجهة سيرك ... »

هز كتفيه باسما وقال :

— « بسيطة ... إنني ذاهب لتنطس الأخبار في هذه الأيام الحرجة ... »

— « الله معك ... »

وانطلق العباس إلى الرسول ، وتدارسا الموقف ، وكان الهدف من وراء هذه المدارسة دخول مكة دون حرب ، وطلب الأمان لأهلها ، فكيف تستطيع مكة الممزقة التي لم ترتب أية استعدادات ليوم كهذا كيف لها أن تصمد لعشرة آلاف محارب ، كل واحد منهم لا يرتضي بغير الاستشهاد او النصر بديلا ؟ ؟ »

وخرج العباس متجهاً صوب مكة ليخبرها بما أعد محمد من قوة لا تقهر ، وليقدم النصح حتى يحفظ الدم والولد والنساء والمال ، وبينما هو في طريقه ، والليل حالك السواد سمع صوت أبي سفيان يخاطب صاحباً له ، قال أبو سفيان وهو يرى نيراناً كثيرة :

— « ما هذا ؟ ؟ انه لأمر غريب حقاً ... ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ! !

قال صاحبه وقد دهش هو الآخر لهول ما رأى :

— « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فخرجت تطلب الثأر من بني بكر ومن والاها ... »

فوكزه ابو سفيان في غضب وقال وقلبه يرتجف :

— « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ... »

وابتلع ابو سفيان ريقه وقال :

— « أشعر ان الكارثة قد اقتربت ... »

وعرف العباس صوت ابي سفيان فهتف به :

— « يا أبا حنظلة ... »

قال أبو سفيان في دهشة :

— « من ؟ ؟ أهو أنت يا أبا الفضل ؟ ؟ »

اقترب منه العباس وقال دون مقدمات :

— « ويحك يا أبا سفيان ! ! هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش اذا دخل مكة عنوة ! ! » دارت الأرض بأبي سفيان، اختلط الظلام بالنجوم اللامعة فبدت امام عينيه خليطاً مبهماً من الرعب والعذاب، وتمتم في حسرة: « يدخل مكة عنوة ؟؟ أيمكن أن يحدث ذلك ؟ ؟ »

قال العباس :

— « لا تخدع نفسك، لا مجال للمكابرة والجدل العقيم، إن وراءه عشرة آلاف محارب يستطيعون ان يكتسحوا أية مقاومة ... أتخوض يا أبا حنظلة معركة تعرف نتائجها المخزية سلفاً ؟ ؟ وأين حشودك المنظمة وسلاحك ؟ ؟ »

اقترب ابو سفيان منه، وتعلق بأهداب ثيابه قائلا :

— « وما الحيلة فداك ابي وأمي ؟ ؟ أعرف أن ابن اخيك لا شك بالغ ما يريد ... لكني أخاف ان يسفك الدماء، وينتقم ... وستكون عنقي أول عنق يهوي عليها سيفه، وزوجتي هند هي الأخرى سوف ... »

فقاطعه العباس قائلا :

— « اركب هذه البغلة وهيا معي إلى رسول الله ... »

ويمضي موكب الحسرة بأبي سفيان وسط آلاف الجنود، والنيران المتقدة تنعكس ظلالها الحمراء على الوجوه المشرقة المؤمنة التي لفحتها الشمس، ويثور عمر بن الخطاب في وجه العباس لحمايته ابي سفيان ويطلب من الرسول ان يأمر بضرب عنق أبي سفيان، ولكن العباس يقول :

— « لقد أجرته يا رسول الله ... »

وقال الرسول في هدوء :

— « اذهب به يا عباس إلى رحلك، فاذا اصبحت فآتني به ... »

ومال أبو بكر على اذن عمر هامساً :

— «لم الغضب ؟ ؟ أصبح قائدهم في يدنا، وهذه بداية طيبة ... »

قال عمر وهو يصر على أسنانه :

— « قاد أبو سفيان الفتنة، واشعل الحروب، وعذب الأبرياء، ورمى الشرفاء بكل نقيصة، وحالف اليهود والمنافقين ... أية جريمة بعد ذلك ؟ ؟ »

قال أبو بكر باسما :

— « دع الأمر لله »

وقضى أبو سفيان ليلة لم يغمض له فيها جفن، الذكريات تطحن رأسه المتعب، ومشاهد الايام الخالية تملأ قلبه بالحسرة والخجل والعار، وتمتم : « أعرف انه السقوط... قلت ذلك عند عودتي خائباً بالأمس القريب عندما رفض محمد مد أجل الهدنة ... سقطت أمام المسلمين ... وبيني وبين نفسي ... وعندما عدت إلى مكة ... شعرت أيضاً بآلام السقوط. قال الرفاق لي : ما زاد الرجل على أن لعب بك ... آه ... لقد هزمني الخواء الذي تنعق فيه كبرياء « المكيين » الفارغة ... دمرني الأغبياء من الطائشين والطائشات ... فليأت عكرمة ليشهد بعينيه آثار الحماقات التي نكتوي بنارها ... أشعر أني قد جريت شوطا طويلا مرهقاً ... وأن قدمي تدميان ... وأنفاسي تتلاحق ... والغبار يكسو لحيتي ووجهي وأهدابي وثيابي ... أشعر برغبة جارفة في أن ارتمي في مكان ندي هادىء رطب واستريح.. أو أموت ... واكرباه ؟ ؟ إن رجالي الآن يشربون الكؤوس، ويدقون الطبول ويخططون للمستقبل عند الداعرات وهم سكارى ... ويتحدثون عن آلهتهم في قلب الحانات والمراقص ... » فلما كان الصباح، جيء بأبي سفيان إلى الرسول ... الموت ولا هذا ... ها هم كبار المهاجرين والأنصار يسددون إلى أبي سفيان نظرات مستطلعة ... لكنه يرى بعقله المكدود المرتبك السخرية والاحتقار، فيثور الدم في رأسه، لكنه يكظم غيظه، ويرفع إلى الرسول عينين محتقنتين ...

فيبتسم الرسول ويقول :

— « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ ؟ »

فيرد أبو سفيان مرتجفاً :

— « بأبي أنت وأمي ! ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد اغنى شيئاً بعد ... »

قال النبي :

— « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ ؟ »

— « بأبي وأمي ! ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! أما والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ... » وظلت ابتسامة الرسول مضيئة، تعيد الهدوء إلى أصحابه الذين تغيرت نظراتهم، واحتقنت وجوههم وحرك الضيق ما سكن من مشاعرهم، ومال العباس على ابي سفيان وقال في حدة :

— « بقية من كبرياء تمنعك من أن تنطق بكلمة الحق، والله إني لأعلم أنك أدرى أهل مكة بالحق، وأفهمهم للصالح من الطالح، لكن عنجهيتك تزين لك العناد، وتأخذ بيدك إلى موارد التهلكة والفساد ... ماذا تنقم على محمد ؟ ؟ أفي أخلاقه عوج ام في مبادئه زيف ؟ ؟ أفق لنفسك ايها الرجل ... وانتصر لكلمات الله ... وامح ما فات من تاريخك الاسود ...

طأطأ أبو سفيان رأسه في خجل، فقد تبللت عيناه بقطرة دمع، وتمتم :

— « واشهد انك يا محمد رسول الله ... »

هتف العباس في فرح :

— « فلتذهب إلى مكة، ولتفتح عيون الناس على الحقيقة، إن أنت فعلت ذلك فقد فتحت قلبك حقاً لنور الله ... »

ثم مال العباس على رسول الله قائلا :

— « يا رسول الله، إن ابا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً ... »

قال الرسول في رضى :

— « نعم ... من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ... »

ولم يهرول أبو سفيان إلى مكة إلا بعد أن وقف عند مدخلها ليرى قوات المسلمين، عندئذ قال وقد رأى الكتيبة الخضراء التي يتقدمها الرسول :

— « يا عباس : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيماً ... »

ثم انطلق إلى قومه يصيح فيهم بأعلى صوته :

— « يا معشر قريش ! ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار ابو سفيان فهو آمن، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ... »

وتمّم حطّاب عجوز يمضي في الطريق :

— « لقد آمنا قبل أن تأتي ... ومقدمه هو الأمان بعينه ... أحببناه لا خوفاً من جنده، أو طمعا في مغانمه، وإنما لأننا رأينا فيه الاب والأخ والإبن والصديق ... ورأينا في كلماته نور الله ... هو أخو الحيارى والمعذبين والمضطهدين ... هو في القلوب قبل أن يكون في مكة ... »

ولم تضع كلمات العجوز الفقير في الزحام ... بل كانت كصدى يتردد في الحارات والردهات والحجرات الصغيرة ... »

الفصل الواحد والاربعون

جرى عكرمة إلى سيفه وهو يصيح : « لن نستسلم لمحمد ورجاله »، وجرت خلفه أم حكيم « زوجه » وأمسكت بذراعه وقالت ضارعة : « ارحم نفسك وولدك، الرجل على حق، وقد تعرض لظلم كثير منا » دفعها عكرمة في عنف وهو يزمجر : « أيتها الملعونة، أنا لا أفكر في حق أو باطل، إن ما يعمر قلبي الآن هو حقد لا حد له، لقد قتل محمد ورجاله أبي واقربائي، ومرغوا شرفنا في التراب والوحل، ولا معنى للحياة بعد انتصار محمد»

شهقت باكية وقالت في تحد :

ـ « بل ان انتصار محمد شرف للعرب أجمعين، كلماته نور وهداية، خلقه كريم، فهو خيار من خيار ... »

أشاح بوجهه قائلا :

ـ « لا أريد أن أسمع هذا الكلام ! ! لقد أهدر دمي »

ـ « أؤكد لك انه سيعفو عنك »

ـ « كيف ؟ ؟ »

ـ « أنا أعرفه ... »

ـ « أنا ابن ابي جهل، وقاتل الأبطال من رجاله ومحرض بني بكر، أنا عكرمة ... ومثلي لا ينالون العفو ... »

وابتلع ريقه، واستطرد :

ـ « وهم قتلوا أبي ... »

ـ « هكذا الحرب يا عكرمة، كل من حمل سيفه فهو يعرض للموت فيها، أكنت تظن أن يتجنب المسلمون أباك ؟ ؟ وهو يشبعهم قتلا وتسفيهاً ؟ ؟ لم لا تنصاع للعدل ... »

ركلها بقدمه قائلا:

ـ « إليك عني ، فلو اجتمع أهل الأرض لاقناعي بالتسليم والإسلام لما انصعت لهم... »

واسرع إلى الشارع ممتشقاً سيفه ...

وفي بيت آخر، كان الحويرث يتخبط في اركان البيت شاحب الوجه، مجنون النظرات ويقول :

— « الحرب حتى النهاية، فليناد ابو سفيان ما شاء، فلن نخضع لرأيه بعد اليوم »، وهتفت به زوجه في ذعر : « انك تسوق نفسك إلى هاوية أكيدة، وتضيع إلى الأبد فرصة العفو عنك »

قهقه كشيطان وقال :

— « ان هذا العفو الذي تتحدثين عنه، أبشع ذل ... انه ألعن من الموت، لسوف أعيش طول حياتي مديناً لمحمد بالفضل ... رهذا ما اكرهه ... »

وتشجعت زوجه لأول مرة منذ ان اشتدت الأزمة وألقت في وجهه بكلماتها تلك :

— « هذه سفاهة في الرأي »

جرها من شعرها الطويل واخذ يشبعها ركلا ولكماً، وهو يصيح كثور :

— « ايتها النجسة ... أتجرئين على قولها ؟ ؟ »

صرخت في اصرار :

— « انني أحول بينك وبين الموت ... من أجلك ... »

— « ليس هذا يوم النساء ... لقد أسأت إلى ابنة محمد اساءة بالغة ... »

ثم رفع وجهه الشاحب في تحد وقال :

— « وأنا أكره محمد ... وعندما تمكنني الأقدار منه فلسوف أقتله على الفور ... » وتندى جبينه بعرق غزير، فأخذ يجففه وهو يقول .

— « ولقد عاهدت الرجال على الحرب ضد محمد حتى الموت ولو كنا وحدنا ... ولن انكث بوعدي ... أتفهمين ما هو عهد الرجال ؟ ؟ »

نظرت اليه بغضب :

— « عشرة آلاف رجل يطرقون أبواب مكة، بينهم محمد، وأبو سفيان يحني رأسه لهم، والعباس يعلن إسلامه، وسادات مكة يتوارون في بيوتهم، وأنت تريد ان تتحدى الطوفان بيديك المرتعشتين ... »

وبصق عليها واختطف سيفه واسرع خارجاً ...

أما هند زوجة ابي سفيان ... فقد لطمت خدودها، وشقت ثيابها وهتفت :

— « احق ما تقول يا ابا سفيان ... أيدخل مكة، وتدينون له بالولاء، وتؤمنون بدينه ؟ ؟ هل أنا في حلم أم في يقظة ؟ ؟ ولماذا لا تحمل سيفك، لتدافع عن كرامتك وشرفك، وتلبي دعوة الدماء التي أراقها محمد من أهلي وأهلك ؟ ؟ انه عار الأبد وذل الحياة ... »

اطرق ابو سفيان برهة، ثم رفع اليها وجهاً صارماً وقال :

— « ابو سفيان يعرف متى يحارب ومتى يضع السيف في الغماد، اطبقي شفتيك ولا تنطقي بكلمة أخرى وإلا ضربت عنقك ... »

قهقهت في جنون :

— « ايها الفارس الهمام ... »

ثم أجهشت باكية :

— « الغيظ يأكل قلبي، ومحمد أهدر دمي، ما كرهت أحداً في حياتي كما كرهته ... انه لخير لي أن أقتل نفسي ... »

هتف بصوت واهن، وصدره يعلو ويهبط :

— « نعم الرجل محمد، آذيناه وطاردناه، ورميناه بكل نقيصة، وهو الشريف النجار، السامق الخلق، وأثرنا الدنيا في وجهه حرباً شعواء لا هوادة فيها، وصالحنا اليهود وتجمعنا لضربه ... وكنت أنا أول المناوئين له حتى النهاية ... أتدرين كيف استقبلني ؟ ؟ كانوا يريدون قتلي لكن محمد أبى ... ابتسم لي يا امرأة ... ما رأيت على وجهه شماتة أو حقداً... فرح بإسلامي أكثر من فرحه بيوم بدر المشهود ... »

أخذت هند تولول وتندب أباها وأخاها وعمها وولدها، فلم يكترث لها أبو سفيان، وبعد فترة صرخ فيها :

— « كفى ضجيجاً وإلا ... »

فنظرت إليه في دهشة وصمتت، بينما استطرد ابو سفيان في هدوء مفاجىء :

— « لسوف أكلمه في العفو عنك يا هند ... على أن تؤمني بالله وبرسوله وبكتابه ... »
واخذت تجفف دموعها، دون أن يبدو عليها أي اهتمام ظاهري، وإن خفق قلبها بالأمل والراحة ... ودخل محمد مكة وسط جنده من جهاتها الأربع، واستسلمت مكة إلا في جهتها الجنوبية حيث تقدم خالد بن الوليد برجاله، ليتصدى لرفيق الكفاح وصديق العمر

عكرمة بن أبي جهل، ومعه صفوان بن أمية والحويرث ووحشي وغيرهم من محفل الحاقدين والمضلين ...

وما هي الا ساعة او بعض الساعة، حتى انهارت المقاومة المنعزلة في جنوب مكة، وفر عكرمة وصفوان يطلبان الذهاب إلى اليمن، وهرول وحشي صوب الطائف، وجرى الحويرث إلى بيت لؤلؤة يرتجف من الرعب ...

فتحت له الباب متجهمة الوجه، فهتف في ضراعة :

– « أتيت إليك يا حصني الأخير ... حاولت الهرب فأخذوا عليّ الطريق من كل ناحية ... قالت في حدة :

– « اخرج من بيتي ... »

رفع اليها عينين ذليلتين وقال :

– « انت الأمل الباقي ... أصبحت وحيداً ذليلا ... إنهم ورائي ... ضاقت بي الدنيا على سعتها ... »

صاحت به ثانية :

– « اخرج من بيتي ... »

ارتمى لدى قدميها، وأخذ يلثمها ويقول :

– « لسوف اعد العدة لقتل محمد غيله ... أعطني الفرصة حتى أحقق أمل العمر... »

قهقهت ساخرة وقالت :

– « انتهى عهد الحماقات ... لن تستطيع قتله ... لقد كتب الله له أن يحيا ... ومن أنت أيها الحشرة حتى تتحدى محمداً ... لكن قتلك أنت فيه خير كثير ... »

وركلته بقدمها فتراجع في دهشة وهو يقول :

– « ايتها الداعرة ... لسوف يقتلك أنت الأخرى »

قالت في ثقة :

– « محمد لا يقتل التعساء والمظلومين ... »

– « لكنك تكرهينه ... »

– « أصبحت الآن أحبه كما لم أحب أحداً في الوجود ... »

رماها بنظرة حاقدة وقال :

— « انه لا يرتاد الأماكن القذرة ... »

— « لسوف أؤمن به، وأبدأ من جديد ... ولسوف أنفذ فيك امر محمد ليكون ذلك بداية طيبة ... لحياة طاهرة ... »

واستلت خنجراً كان مخيفاً في طوايا ثيابها، وهمت بالهجوم عليه لكنها سمعت صوتاً يقول :

— « لا تشغلي نفسك بهذا الأمر، لسوف نقوم به نيابة عنك ... »

وساقوه إلى الرسول، وهو يسب ويتوعد وينثر بذاءته على جانبي الطريق ...

وقُتِلَ الحويرث ...

واحتشد أهل مكة، وخاصة أئمة الحقد والعناد فيها أمام الرسول ليرى رأيه فيهم، وقال الرسول :

— « ماذا تظنون اني فاعل بكم ... »

قالوا :

— « خيراً ... أخ كريم، وابن أخ كريم ... »

اشار بيده الكريمة قائلا :

— « اذهبوا فأنتم الطلقاء ... »

وتعالى الهتاف والتكبير في أرجاء مكة ...

ودلفت « ام حكيم » وسط الزحام، وقدمت إلى الرسول تعلن إسلامها وتطلب العفو لزوجها عكرمة، فوافق الرسول، فأسرعت إليه قبل ان يبحر إلى اليمن هو ورفيقه ...

ثم أتى أبو سفيان تصحبه هند ليتشفع لها، فقبل شفاعته ...

وتحولت الحرب المرتقبة إلى افراح في كل مكان ...

« لا إله إلا الله وحده ... صدق وعده ... ونصر عبده ... وأعز جنده ... وهزم الأحزاب وحده ... »

نداء يتردد في كل ناحية ...

ويصعد بلال إلى سطح الكعبة بعد تحطيم الأصنام وينطلق صوته ندياً رقراقاً :

— « الله اكبر الله اكبر ... »

وبعد أن أتم الله الفتح، وأقيمت الشعائر، وتوافد أهل مكة ليعلنوا إسلامهم، جلس رفاق الجهاد من الأنصار، وقال احدهم :

— « أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ فتح الله عليه ارضه وبلده يقيم بها ؟ ؟ »

وعلم الرسول بما قالوا، فذهب اليهم وقال :

— « معاذ الله ... المحيا محياكم، والممات مماتكم ... »

وهكذا دخل محمد مكة ...

ودخل في ركابه التاريخ وقد فتح سجله الكبير ليسجل إلى الأبد اروع قصة خالدة... القصة التي تمتد عبر القرون والاجيال، تقهر التحديات وتحمل نو ر الله إلى شتى الأرجاء .. »

تمــــــــــت

وبعـــد ...

أخي القارىء العزيز ...

كنت وفياً بوعدي معك اذ قدمت لك روايتي « نور الله » عن عصر النبوة في جزئين وواضح أن الجزء الثاني ينتهي بفتح مكة، وعلى الرغم من انتهاء الرواية، الا ان جزءا كبيراً من سيرة الرسول بعد الفتح لم نتناوله بعد، وكنت بين أن اعد جزءا ثالثا لتكملة الرواية وبين أن أترك الأمر لكي اختار بعض المواقف او الشخصيات الهامة لا فرد لها اعمالا قصصية مستقلة ، تغطي الفترة الباقية، وقد آثرت الرأي الأخير، بل إني قدمت لك قصة « قاتل حمزه » كنموذج عملي لفكرتي الأخيرة ... ان في عصر النبوة خاصة والتاريخ الإسلامي عامة مجالاً خصباً للاقلام المؤمنة ولذوي العقيدة من الفنانين والأدباء ...

لقد أثبتت الايام والأحداث بما لا يدع مجالا للشك أن الفراغ « الايديولوجي » في الأمة الاسلامية لن تملأه « البضائع » المستوردة، وألا نهوض لشعوبنا من نكبتها وضياعها الا بالعودة لهذا الدين ... ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها ... بالاسلام ...

وإلى لقاء قريب ... »

المؤلف

اقرأ

قاتل حمزه

قصة وحشي عبد من العبيد، قتل حمزة بن عبد المطلب عم الرسول، وسيد الشهداء ... وقتل مسيلمة الكذاب وحشي الذي يقول : بجربتي هذه قتلت خير الناس بعد رسول الله حمزة بن عبد المطلب، وشر الناس مسيلمة الكذاب .

صدرت عن مؤسسة الرسالة . بيروت ص . ب (٤٧٦٠)

كتب للمؤلف

روايات

١ ـ الطريق الطويل
٢ ـ في الظلام
٣ ـ عذراء القرية
٤ ـ اليوم الموعود
٥ ـ الربيع العاصف
٦ ـ رأس الشيطان
٧ ـ ليل الخطايا
٨ ـ طلائع الفجر
٩ ـ الرايات السوداء
١٠ ـ أرض الأنبياء
١١ ـ النداء الخالد
١٢ ـ الذين يحترقون
١٣ ـ الكأس الفارغة
١٤ ـ ابتسامة في قلب شيطان
١٥ ـ يوميات الكلب شملول
١٦ ـ ليل العبيد
١٧ ـ قاتل حمزة

مجموعات القصص القصيرة

١٨ ـ موعدنا غداً
١٩ ـ دموع الامير
٢٠ ـ العالم الضيق
٢١ ـ عند الرحيل

دراسات

شعر

مسرحيات